

المصباح في المعاني والبيان والبديع

تأليف

الإمام أبي عبد الله بدر الدين بن مالك الدمشقي
الشهير بابن الناظم
المتوفى سنة ٦٨٦هـ

حقق الكتاب وقدم له بدراسة في تاريخ البلاغة
الدكتور عبد الحميد هنداوي
مدرس البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن
بكلية دار العلوم - جامعة الأزهر

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



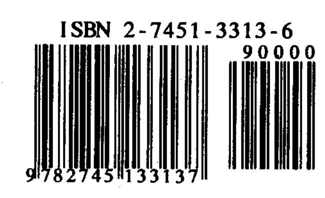
الطّبعَة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3313-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ، وبعد :

فإن كتاب المصباح في علوم البلاغة للإمام بدر الدين بن مالك المعروف بابن الناظم لمن أحسن كتب البلاغة في زمانه ، لما يشتمل عليه من سهولة عبارته ، ووضوح معانيه ، مع إيجاز لفظه ، وكثرة شواهده ، الأمر الذي يعز وجوده في الكتب التي صنفت على كتاب مفتاح العلوم في تلك الفترة وما بعدها. لذا ، فقد حفزني ذلك إلى تحقيق هذا الكتاب الجليل .

ورأيت أن القارئ ربما نظر في الكتاب فاستكثر ما ادعيته له من الحسن والإجادة ، لذا فقد رأيت أن أورد بين يدي الكتاب بمقدمة تاريخية أعرف القارئ بها كيف بلغت البلاغة في عصر مؤلف هذا الكتاب وقبله وبعده حدًّا بعيداً من الغموض والتعقيد والجفاف والمنطقية الشديدة، الأمر الذي يجعلنا نحمد لصاحب هذا الكتاب منهجه وتصنيفه في ضوء مناهج التأليف في عصره ، وقد جعلت هذا الكتاب في ثلاثة أقسام :

الأول : قسم الدراسة

وقد ذكرت فيه التعريف بالكتاب وصاحبه ومنهج تحقيقه ودراسة تاريخية للبلاغة قبل عصره .

الثاني : قسم التحقيق

وقد أوردت فيه متن الكتاب محققا بالمنهج الذي سيأتي بيانه .

الثالث : قسم الفهارس

وقد جعلته مشتملا على فهارس شاملة لجميع شواهد الكتاب القرآنية

والحديثية والشعرية وغيرها ، مع فهرس شامل لموضوعات الكتاب والله أسأل أن ينفع به عباده ، وأن يجزل الأجر والمثوبة لكل من شارك فيه بجهد أو عمل .

وكتبه
د/ عبد الحميد هنداوي
المدرس بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة
الجيزة في ١٥ محرم ١٤٢٢هـ

أولا : قسم الدراسة

ويشتمل على :

١- ترجمة المصنف والتعريف به .

٢- التعريف بكتاب المصباح .

٣- منهج التحقيق .

٤- دراسة عن التأليف البلاغي وتطوره قبل كتاب المصباح .

بدر الدين بن مالك [المتوفى سنة ٦٨٦هـ]

هو أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك بدر الدين الدمشقي الإمام البليغ النحوي ابن الإمام العلامة جمال الدين الطائي الجياني الشافعي ثم الدمشقي".

مولده ونشأته :

ولد بجيَّان بالأندلس ، وهاجر مع والده إلى دمشق ، وتلقى العلم عليه ووقع بينه وبينه وحشة للهوه ومجونه وعشرة مالا ينبغي لمثله معاشرته .

وذكر الصفدي في ترجمته أنه كان إماماً ذكياً فهيماً حاد الخاطر إماماً في النحو إماماً في المعاني ، والبيان ، والبديع ، والعروض ، والمنطق ، جيد المشاركة[1] في الفقه والأصول ، وأنه أخذ عن والده وجرى بينه وبين والده وحشة[2] ؛ سكن لأجلها بعلبك ، فقرأ عليه بها جماعة منهم بدر الدين بن زيد ، فلما مات والده طُلِبَ إلى دمشق وولي وظيفة والده وسكنها ، وتصدَّى للاشتغال والتصنيف ، وكان اللعب يغلب عليه والعشرة[3] ، وحكى لي الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين محمود الكاتب - رحمه الله تعالى - حكاية جرت له مع الأمير علم الدين سنجر الدواداري وهى غريبة ما أُوثِرُ ذكرها ، وحكى لي غيره عنه ما يوافقها من اللعب[4] .

شعره ونثره :

قال السيوطي في بغية الوعاة[5] : "كان إماماً في مواد النظم من النحو والمعاني والبيان والبديع ، ولم يقدر على نظم بيت واحد مع أن والده ذو النظم الرائق ، والشعر

---

(1) قال الذهبي في تاريخ الإسلام بعد ترجمة والده ، وكان بدر الدين بن مالك جيد المشاركة في الفقه والتدريس ، وأنه تصدر بعد والده للتدريس" .

(2) في الأصل : (صورة) وهى الخلاف والقطيعة .

(3) عشرة من لا يصلح "بغية الدعاة ١/٢٢٥ .

(4) الوافي بالوفيات ٢/٢٤٠ .

(5) بغية الوعاة ٢/٢٢٥ .

الكثير الجيد ؛ كذلك لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من الرسائل المستملحة التي تروى لمثله من أهل العقول الراجحة والزعامة العلمية" أ.هـ .

ويقول الصفدي : "ولقد حضرت إليه رقعة من صاحبه فيها نظم أراد أن يجيبه عنها بنظم فجلس في بيته من بكرة إلى صلاة العصر ، ولم يقدر على بيت واحد حتى استعان بجار له في المدرسة على الجواب بعد ما حكى ذلك لجاره ، وقيل له أنه أملى على قول أبي جلنك :

والبان تحسبه سنانيراً رأت   قاضي القضاة فنفشت أذناها

كرَّاسة ، وتكلم على ما في هذا البيت من علوم البلاغة ، سبحان الله العظيم!!!

ووالده ينظم العلوم في الأراجيز ، ويُدْرج المسائل الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وهذا دليل القدرة على النظم"[١] .

تصانيفه ومؤلفاته :-

ومن تصانيف الشيخ بدر الدين بن مالك :

١-"شرح ألفية والده"[٢] ، وهى ما عُرف بالخلاصة ، وهو شرح فاضل منقى منقح ، وخطأ والده في بعض المواضع ، ولم تشرح الخلاصة بأحسن ، ولا أسد ، ولا أجزل على كثرة شروحها وأراها في الشروح كالشرح الذي لابن يونس للتنبيه[٣] .

٢-"المصباح" اختصر فيه معاني وبيان المفتاح ، وهو في غاية الحسن ، وقيل بأنه وضع أكثر منه وسماه "روضة الأذهان" ولم نره ، والمصباح ما نحن بصدده الآن .

٣-مقدمة المنطق .

---

(١) الوافي بالوفيات نفس الصفحة .

(٢) وجاء في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة -لابن حجر في ترجمة شمس الدين بن مالك أخو بدر الدين بن مالك أنه كان يسأل الطلبة فإذا قال أحدهم قرأت ألفية ابن مالك يفرح ويقول ألفية والدي وهو أخو الشيخ بدر الدين الذي شرح الألفية ومات قديماً - مات هذا في شهر رمضان سنة ٧١٩هـ .(١١٩/٢) .

(٣) هذا الكلام وما يليه للصفدي في المرجع السابق نفسه .

٤-مقدمة العروض .

٥-شرح اللمحة .

٦-شرح الحاجبية .

٧-شرح التسهيل ، لم يتمه .

وله كذلك شرح كافية والده ، وشرح لم يتمه .

ذكر وفاته - رحمه الله :

قال ابن العماد الحنبلي(١) "توفي بدر الدين بن مالك بدمشق يوم الأحد ثامن المحرم من قولنج(٢) كان يعتريه كثيراً" .

وقال السيوطي(٣) "توفي سنة ست وثمانية وثمانين ، وتأسف الناس عليه"

وقال ابن عماد الجنبلي(٤) "وقال ابن حبيب توفي عن نيف وأربعين سنة ، وقال الذهبي(٥) ولم يتكهل ، وقال غيره توفي كهلاً"

وجاء في طبقات الشافعية الكبرى(٦) : "توفي محمد ابن محمد بن عبد الله بن مالك الشيخ بدر الدين ، شارح ألفية والده جمال الدين ، كهلاً في المحرم سنة ٦٨٦هـ" .

وفي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(٧) "جاء في وفيات ٦٨٦هـ ، وفيها توفي الإمام النحوي بدر الدين بن مالك في شهر المحرم"

وجاء في البداية والنهاية(١) "توفي الشيخ بدر الدين ابن مالك يوم الأحد في الثامن من المحرم ، ودفن من القبر بباب الصغير" .

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٣٩٨/٥ ، ٣٩٩ ط . دار الفكر .

(٢) هو مرض القولون المعروف .

(٣) بغية الوعاة ٢٢٥/١ .

(٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي ١٨٠/١٣ .

(٦) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ٩٨/٨ رقم ترجمته ١٠٩٢

(٧) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى الأتابكي ٣٧٣/٧ ط . دار الكتب العلمية .

وجاء في الوافي بالوفيات[٢] "ومات قبل الكهولة من قولنج كان يعتريه كثيراً في سنة ست وثمانية وستمائة بدمشق ، ودفن بمقبرة باب الصغير ، وكثر التأسف عليه ، وولي إعادة الأمنية بعده الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني وكثر تأسف الناس عليه ، وقيل إنه حضر مجلس الشيخ شمس الدين الأيكي ، وكان يعرف الكشاف معرفة مليحة.

فقعد لا يتكلم والأيكي يذكر درسه إلى أن أطال الكلام فقال له : يا شيخ بدر الدين : لأى شيء ما تتكلم ؟! فقال : ما أقول : ومن وقت تكلمت فيه إلى الآن عددت عليك إحدى وثلاثين لحنة" ، أو كما قيل ، فرحم الله الجميع" .

مصادر ترجمته : -

١-طبقات الشافعية الكبرى - تأليف تاج الدين السبكي : ترجمة رقم ١٠٩٢.

٢-البداية والنهاية ٣٣١/١٣ ، في وفاة ٦٨٧هـ .

٣-ذيل مرآة الزمان ٦١/٤ .

٤-مفتاح السعادة ١٥٦/١ .

٥-هدية العارفين ١٣٥/٢ .

٦-شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٩٨/٥ ، ٣٩٩ .

٧-الوافي بالوفيات ٢٠٤/٢ ، ٢٠٥ .

٨-نفح الطيب ٢٣٤/١ .

٩-بغية الوعاة ٢٢٥/٢ .

١٠-الدرر الكامنة في ترجمة أخيه شمس الدين ١١٩/٤ .

١١-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٧٣/٧ .

١٢-وفيات الأعيان لابن خلكان ٣١٣/٤ .

١٣-تاريخ علوم البلاغة - الشيخ المراغي ص٨١ .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٣ .

(٢) الوافي بالوفيات ٢٤٠/٢ .

كتاب المصباح في علوم البلاغة
لبدر الدين بن مالك

يعد كتاب المصباح في المعاني والبيان والبديع أحد هذه الكتب والمؤلفات الـتي دارت في فلك مفتاح السكاكي[1] حيث ذكر الدارسون أن كتاب المصباح في المعاني والبيان والبديع هو اختصار للجزء الثاني من كتاب المفتاح لأبي يعقوب السكاكي ، ومن هؤلاء كارل بروكلمان ، والدكتور رمضان شيس ، اللذين ذكرا أن بدر الدين ابن مالك قد اختصر المفتاح بأجزائه الثلاثة .

غير أننا نستطيع أن نقرر أن هذا الكتاب يتميز عن تلك المؤلفات الـتي دارت في فلك المفتاح[1] بما يخفف من حدّة ذلك المنهج السكاكي بما يشتمل عليه من سمة الجفاف والمنطقية الشديدة والمبالغة في التعقيد ، وقلة الشواهد الأدبية ، فامتاز كتاب المصباح بعكس ذلك كلهّ من وضوح العبارة مع إيجازه ، وكثرة شواهده وحسن اختياره لها ، مع حسن التبويب والتقسيم حيث يقسم النوع الواحد إلى ضروب ، والضرب إلى أقسام ، مع البعد عن التعقيد الشديد والإيغال في جفاف الحدود المنطقية التي استعملها البلاغيون من شراح المفتاح والتلخيص .

وقد أثنى على كتابه الباحثون والدارسون قديما وحديثاً ، وقد أوردنا في ترجمته والتعريف به ، ذكر من أثنى عليه وعلى مصنفاته من القدماء ، فلا نطيل بإعادة ذلك ، أما من المحدثين والمعاصرين فقد أثنى عليه الدكتور شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ ، حيث ذكر أن ابن مالك قد لخص الجزء الثاني الخاص بعلوم البلاغة من مفتاح العلوم "دون أى التفات أو اهتمام بمصادره ومع اعترافنا بأن المصدر الأساسي للمصباح هو مفتاح العلوم للسكاكي ، فإننا نجد بدر الدين بن مالك يتوسع في الاستشهاد بالشعر توسعاً يفوق السكاكي كما نجده يستخدم شواهد لم يستخدمها السكاكي ،

---

[1] انظر هذه الكتب والتعريف بها وكيف تطور التأليف البلاغي حتى وصل إلى كتاب مفتاح العلوم . انظر ذلك كله في دراستنا التالية عن تاريخ البلاغة وتطورها .

ونلاحظ نوعاً من التأثر بقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وبابن رشيق في كتاب العمدة في نقد الشعر ، وبالعسكرى في كتابه الصناعتين ، وبالبديع لابن منقذ ، وبابن الأثير في كتابه المثل السائر ، وبابن أبي الإصبع في تحرير التحبير . ومع اعترافنا بصعوبة تحديد أوجه التأثر عند هؤلاء العلماء فإننا نستطيع أن نقرر ذلك بناء على سبقهم له واقتفائه أثرهم .

أما تأثره الواضح فبابن رشيق سواء في استخدام المصطلحات أو في عرض الشواهد ، وقد أشار هو لذلك صراحة في دراسته للتكرار ، كما نجده ينقل عن ابن رشيق ما قاله في عرضه لشواهد التقسيم عند المتنبي : يقول ابن رشيق : ثم زاد في هذا وتباغض حتى صنع عش ابق اسم سد قد .. البيت .

ويقول بدر الدين بن مالك بعد عرض نفس الشاهد الذي عرضه ابن رشيق : ثم زاد وتباغض فصنع : عش ابق اسم سد قد .. البيت .

وقد وضع بدر الدين بن مالك ، المطابقة والمقابلة في باب المحسنات اللفظية ، خلافاً للسكاكي وغيره من البلاغيين ، وأكاد أجزم أنه نقل عن ابن رشيق تعليقه على رأى قدامة في دراسته للتجنيس ، حيث جعل المطابق من الشعر داخلا في باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناهما أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة، ونلاحظ أن هناك نوعاً من التشابه بين استخدام بدر الدين بن مالك لمصطلح الابتداء والخروج وحسن التخلص والخاتمة وبين ما قدمه ابن الأثير في المثل السائر وابن رشيق في العمدة .

كما نلاحظ أن ما استخدمه بدر الدين من مصطلحات في البديع هو ثمان وخمسين مصطلحاً وليس أربعاً وخمسين كما ذكر الدكتور شوقي ضيف ، حيث استخدم فيما يرجع إلى الفصاحة اللفظية أربعاً وعشرين مصطلحاً ، وفيما يرجع إلى الفصاحة المعنوية تسعة عشر مصطلحاً ، وفيما يرجع إلى الفصاحة المختصة بتحسين الكلام وتزيينه خمسة عشر مصطلحاً .

ونلاحظ أنه قد تأثر في تعريفه للمصطلحات بابن أبي الإصبع في كتابيه تحرير

التحبير ، وبديع القرآن ، الذي تأثر هو بسابقيه ، مع توسع في عـرض المصطلحـات وتعريفها وشرح الشواهد شرحاً وافياً[1] .

ونحن إذ نثني على هذا الكتاب فإنما نثني عليه بالنظر إليه في ضـوء موازنتـه بالكتب المؤلفة في عصره بل في العصور اللاحقة التالية له كذلك حيث غلب عليـها الجمود والتعقيد والجفاف ، ولذا فلسنا ندّعى أن الكتاب قد بلغ الغاية في الجـودة ، أو أنه قد تخلص من عيوب الدرس القديم ، وما أخذ على البلاغة السكاكية على العموم ؛ ولكننا نزعم أنه قد أجاد وأحسن في حدود عصره وزمانه ، وهـذا لا يعـني الرضـا والتسليم بكل ما جاء في كتابه ولذا فقد كانت لنا بعض الوقفات مع ما أثاره كتابـه من القضايا البلاغية أشرت سريعاً إلى بعضها في تعليقاتنا على هذا الكتاب ، وفصلـت القول في أكثرها في دراستي عن الطيبي وجهوده البلاغية[2] في حديثي عـن القضايـا المشتركة بينهما ، وما تأثر فيه الطيبي ببدر الدين بن مالك ، و لم أشأ أن أعد ذكر هـذا هنا خشية الإطالة . هذا ، ونرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب بغيته مـن حيـث الوضوح واليسر والسهولة والوصول إلى الفائدة من أيسر الطرق ؛ والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

---

[1] انظر مقدمة تحقيق د/ حسنى عبد الجليل لكتاب المصباح ط مكتبة الآداب .

[2] ط مكتبة نزار الباز / مكة المكرمة .

منهج التحقيق

١-اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب على نسخه المتداولة ، وقد اعتمدت منها نسخة بتحقيق د/ حسنى عبد الجليل ط مكتبة الآداب لجودها ، مع الاستعانة بالمخطوطات المتاحة لها وقد وقفت على نسختين منها بدار الكتب المصرية ، ومعهد المخطوطات بالقاهرة .

٢-قمت بتخريج جميع شواهد الكتاب القرآنية .

٣-تخريج جميع الشواهد الحديثية في كتب الحديث المشهورة مع الحكم على الحديث ما أمكن .

٤-تخريج جميع الشواهد الشعرية-إلا ما ندر مما لم نقف على مصدر له-في مصادره الأصلية ، وفي كتب البلاغة والمعاجم وغيرها .

٥-تخريج الأمثال والأقوال المأثورة في مصادرها .

٦-شرح الألفاظ الغريبة .

٧-ترجمة أهم الأعلام .

٨-التعليقات العلمية على أهم مسائل الكتاب وقضاياه .

٩-التقديم بدراسة عن الكتاب وصاحبه ومقدمة تاريخية عن البلاغة إلى عصره.

١٠-الفهارس العلمية الشاملة لجميع الشواهد وموضوعات الكتاب .

(تاريخ البلاغة)

من النشأة إلى مرحلة استقرار التأليف البلاغي

تمهيـــد

مرت البلاغة العربية منذ نشأتها إلى عصرنا الحاضر بعدة مراحل أو أطـــوار ، لكل طور منها طبيعته ومنهجه الذي تقتضيه ثقافة العصر وطبيعة أهله وحالـــة الأدب فيه، والحالة العلمية والحضارية التي وصل إليها أهل هذا العصر .

ويمكننا أن نقسم مسيرة البلاغة العربية إلى عدة مراحل هي :-

١-الجذور الأولى وما قبل التدوين .

٢-بداية التدوين البلاغي على هامش العلوم .

٣-الدراسة المتداخلة .

٤-استقلال واستقرار التأليف البلاغي .

الفصل الأول

نشأة البلاغة وتطورها

المبحث الأول : البلاغة في طور النشأة

المرحلة الأولى : –الجذور الأولى وما قبل التدوين .

١–البلاغة في العصر الجاهلي .

٢–البلاغة في صدر الإسلام .

٣–البلاغة في العصر الأموي .

المرحلة الثانية : –بداية التدوين البلاغي على هامش العلوم في العصر العباسي. .

أولاً : طائفة الكتاب .

ثانياً : طائفة الشعراء .

ثالثاً : طائفة اللغويين .

رابعاً : طائفة المتكلمين .

خامساً: طائفة المفسرين

البلاغة في طور النشأة والتكوين

المرحلة الأولى :–

(الجذور الأولى وما قبل التدوين)

يرجع عصر النشأة والتكوين إلى القرن الثاني الهجري حيث دونت الملاحظات التي تعنى ببيان أسرار فصاحة النثر والنظم مختلطة بمباحث العلوم الأخرى ، فلم يكن هناك ما يعرف باسم علوم البلاغة ، وإن كانت الكلمة معروفة مستخدمة من قبل ولكنهم ما كانوا يعنون بها ما عني بها أخيراً من دلالتها على علوم ثلاثة هي علوم (المعاني ، والبيان ، والبديع) .

وإذا كنا قد أرجعنا نشأة البلاغة إلى القرن الثاني الهجري باعتبار أن هذا التاريخ هو بداية التدوين البلاغي ؛ فإننا مع ذلك نستطيع أن نرجع جذورها إلى العصر الجاهلي فما بعده .

ويحسن بنا أن نلم إلمامة سريعة بالبلاغة في تلك العصور الأولى قبل تفصيل القول في عصر بداية التدوين .

١-البلاغة في العصر الجاهلي :

لم يزل العرب منذ جاهليتهم الأولى أرباب لسن[١] ، وأهل فصاحة وبلاغة وبيان .

وكما كانت العرب تتكلم بالكلام المستقيم المعرب بلا لحن ولا اضطراب ولا فساد ، وذلك قبل أن توضع قواعد النحو وإعراب الكلم ؛ كذلك كانت تتكلم بالكلام الفصيح البليغ ولما توضع قواعد البلاغة وطرق الفصاحة والبيان .

و لم تقسم البلاغة إلى علوم ثلاثة مع تمييزها عن الفصاحة وجعلها مقدمة لها[٢]، أو فنا قسيما للبلاغة ونظيراً لها[٣] ، لم تقسم إلى تلك الأقسام إلا في القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي ت (٦٢٦هـ) .

وكانت مسائلها قبل ذلك ، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ومشاكلة وتجريد وجناس وتورية ومبالغة وتقسيم إلى آخر تلك الفنون ، كان يطلق عليها جميعاً اسم : البديع أو البيان أو الفصاحة أو البراعة ، دون تمييز ، وكانت ترد في الشعر والنثر القديم ناصعة صافية وبلا تكلف ولا تصنع . فكان لها أثرها في إبراز المعني وإظهار جماله وحسنه .

من ذلك ما نشعر به في قول امرئ القيس مشبها إذ يقول :

أيقتُلُني والمشْرَفِيُّ[٤] مُضاجِعِي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وقوله مجانسا :

وإن كنتِ قد ساءتْكِ منيِّ خليقةٌ فسلّي ثيابي من ثيابِك تنسلِ

وقوله :

لقد طمح الطماحُ من بعد أرضِه ليُلْبِسَنِي من دائهِ ما تلبَّسا

وقوله مطابقا ومشبها ومبالغاً في وصف فرسه :

---

(١) اللسن بالتحريك : الفصاحة .

(٢) كما فعل الخطيب القزويني ت ٧٣٩ هـ في إيضاحه .

(٣) كما فعل الطيبي ت ٧٤٣ في تبيانه .

(٤) المشرفي : سيف منسوب إلى قري الشأم .

مِكَرٍّ مفَرٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً   كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من عَلِ

وقوله مبالغا في وصف فرسه أيضاً :

فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ   دراكا ولم يَنضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ

وقوله رادا أعجاز الكلام على صدوره :

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لسانَه   فليس على شئ سواهُ بخازنِ

وقوله مصرعا أول القصيدة :

ألا عِم صباحاً أيها الطَّللُ البالى   وهل ينعمَن من كان في العصرِ الخالي

وقوله في حسن الابتداء :

قفا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل   بسقطِ اللّوى بين الدَّخولِ وحَوْملِ

وفي قول زهير بن أبي سلمى في الاستعارة :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطله   وعُرِّى أفراسُ الصّبا ورواحلُه

وقوله مطابقا :

ليثٌ بعثَّر يصطادُ الرجالَ إذا   ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانهِ صدقا

وقوله في حسن التقسيم وكان عمر رضي الله عنه يعجب منه ويردده :

فإنَّ الحقَّ مقطعهُ ثلاثٌ   يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ

وقوله في التذييل :

ولستَ بمستبقٍ أخا لا تلُمُّه   على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ

وقول لبيد في الاستعارة :

وغداةَ ريحٍ قد كَشَفْتُ وقرةٍ   إذ أصبحتْ بيدِ الشمالِ زمامُها

وفي قول طرفة بن العبد محترسا :

فسقى ديارَكِ غيرَ مفسدِها   صوبُ الغمامِ وديمةٌ تَهمى

وقول حسان مبالغا :

لنا الجفناتُ الغرُّ يَلمعْنَ في الضحى   وأسيافُنا يَقْطُرن من نجدةٍ دما

وقو الخنساء في الكناية عن أخيها :

طويلُ النجـادِ رفيـعُ العِمـا ... دِ ســاد عشيرتَـه أمـردا

وقوله في حسن الاستطراد :

إن كنتِ كاذبةَ الذي حدثْتِـني ... فنجوتِ مَنجى الحارثِ بنِ هشام

ترك الأحِبةَ أنْ يقاتِلَ دونَهـم ... ونجـا بـرأسِ طمِـرّةٍ ولجـامِ

وفي قول الأعشى موغلا :

كناطحٍ صخـرةً يـوماً ليوهنِهَـا ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنهَ الوعْـلُ

وقوله مغالياً :

فتىً لو ينادى الشمسَ ألقَتْ قناعَها ... أو القمرَ الساري لألقى المقالِـدا

وفي قول النابغة الجعدى مغالياً :

بلغنا السماءَ مجدُنـا وسناؤُنـا ... وإنا لنرجو فوقَ ذلك مَظْهـرا

لم يكن هؤلاء القدماء يعرفون أسماء تلك الفنون ، ولا وضعوا لها قواعدهـا واصطلاحاتها ، فلم تكن تلك الاصطلاحات قد وضعت بعد .

ومع ذلك فقد رأيناهم ينظمون تلك الفنون في أشعارهم ويأتون بها في جيـد نثرهم ، يجرون في ذلك على السليقة العربية ، وعلى نهج العرب في الإنشاء والقول .

كل ذلك يدلنا على أن البلاغة والفصاحة والبيان وإن لم تكن إذّاك قواعد وفنا له أصوله ، فإنها كانت لدى العرب فطرة وسليقة ومن أكبر الدلالة على أنهم كـانوا أهل فصاحة وبيان دعوة القرآن لهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله ، فلو أنهم لم يكونوا مـن أهل تلك الصناعة لما جاز ذلك التحدي القرآني لهم ، ويدل ذلك على أن لهم بصـراً بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني وتبين ما فيها من البلاغة والبيان .

يروى أن الوليد بن المغيرة وكان من الراسخين في الكفر وكان قـد وسـطته قريش بينها وبين النبي ﷺ ليحاول إثناءه عن دعوته ، فاستمع من النبي ﷺ لبعض آيـات من القرآن فلم يتمالك نفسه حتى شهد لهذا الكلام بالتميز والعلو ، فقال : "والله لقـد

سمعت من محمد كلاما ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق"[1] .

وهذا يدل على مدى معرفتهم بأقدار الكلام ، والبصر بما فيه من روعة النظم ، وجودة الأداء ، وبراعة التصوير .

وقد كان العرب يحبون البيان والطلاقة ... والتحبير والبلاغة والتخلص والرشاقة – كما يقول الجاحظ – فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب والإكثار ؛ لما في ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى والمنافسة في العلو والقدر كما كانوا يكرهون الفضول في البلاغة ، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة ، والسلاطة تدعو إلى البذاء .

وقد ورد عنهم من الأخبار والآثار ما يفيد أنهم كانوا يوائمون بين الألفاظ والمعاني ، وذلك كالذي تجده في قصة طرفة مع المسيب بن علس ، فقد مر المسيب بمجلس بني قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم ، فلما بلغ قوله :

وقد أتناسى الهمَّ عند ادّكارِه ... بناج عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مِكدم

فقال طرفة : "استنوق الجمل" .

وأساس نقد طرفة للمسيب : أنه وصف الجمل بما توصف به الناقة ؛ إذ إنهم قالوا للناقة : ناجية و لم يقولوا للبعير : ناج .

وهذا وإن كان النظر فيه إلى الربط بين الألفاظ والمعاني من حيث الصحة اللغوية ؛ فإنه كان بداية لرعاية المشاكلة بين اللفظ والمعنى ، ورعاية الملاءمة والمناسبة بينهما ، كذلك فقد ورد في نقد العرب لشعرائهم ما يدل على رعايتهم لأساس البلاغة ومقصدها الأعظم ، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ففى أخبار النابغة الذبيانى أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه ، وكان في أثناء ذلك يبدى بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم ، ويقال إنه

[1] انظر تفسير الكشاف للزمخشرى في سورة المدثر ، ومعنى مغدق : أى كثير المياه وهو كناية عن خصوبة معانيه .

فضل الأعشى على حسان بن ثابت ، وفضل الخنساء على بنات جنسها . وثار حسان عليه ، وقال له : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟

قال : حيث أقول :

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرن من نجدةٍ دَمـا
ولدنا بنى العنقاءِ وابنى محـرقٍ فأكِرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنمـا

فقال له النابغة : "إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخـرت بمـن ولدت و لم تفخر بمن ولدك . وفي رواية أخرى : فقال له : إنك قلت الجفنات فقللت العدد ، ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت : يلمعن في الضحى ، ولو قلت : يـبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت : يقطرن من نجدة دما ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين لكان أكثر ، لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسرا منقطعاً .

فاعتراض النابغة على حسان يتمثل في عدم مطابقة ألفاظه لمقام الفخر الـذي يقتضي المبالغة والتكثير .

كما يتمثل ذلك الاعتراض أيضاً في عدم المناسبة بين الألفاظ والمعاني ، وهمـا بابان عليهما أساس البلاغة .

هذه مجرد أمثلة تدل على أن الشعراء في العصر الجاهلي كانوا يقفـون عنـد اختيار الألفاظ والمعاني والصور ، وكانوا يأتون في أشعارهم بألوان شتى من فنون البيان والبديع ورعاية النظم ، ومطابقة مقتضى الحال وغير ذلك مما عرفه المتأخرون بعدهـم ووضعوا لكل المصطلح الخاص به .

٢-البلاغة في صدر الإسلام :

جاء الإسلام ، وكان القرآن هو لسان حجته الباهرة ، وشمس أنواره الظاهرة ، وانقسم الناس بين مصدق بالقرآن ومكذب له ، ولكنهم جميعاً - المصدقين والمكذبين - كانوا مشدوهين بحلاوة نظمه ، وبديع لفظه ، وجمال صوره ، وكان منهم من يتخفى فيسترق السمع ليصغي إلى قراءة رسول الله ﷺ دون أن يشعر به ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على إعجاب هؤلاء القوم بهذا الكتاب ؛ وإدراكهم لعظمته ، ووقوعهم في أسر بيانه .

وأما الرسول ﷺ فكانت أحاديثه وخطبه ذائعة مشهورة يتلقفها الصحابة عن النبي ﷺ يحصوها كلمة كلمة خشية أن يتفلّت حرف منها .

ولم لا وهو ﷺ الذي "لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة .. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته .. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ "[1] وقد صح عن النبي ﷺ ما يدل أنه كان يعني أشد العناية بتخير لفظه ، فقد أثر عنه أنه كان يقول : "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي "كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه .

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتعجبون لفصاحة النبي ﷺ ويرون أنه أفصح العرب ، فابن الأعرابي يحدثنا بأن رسول الله كان جالساً مع الصحابة ، فسألوه عن سحابة فأجابهم ، فقالوا : يا رسول الله ما أفصحك ما رأينا الذي هو أفصح منك ! فقال . وما يمنعني ؟ وإنما أنزل القرآن بلساني ، بلسان عربي مبين .

---

[1] البيان والتبيين ١٧/٢ .

كذلك فقد كان الخلفاء الراشدون – رضوان الله عليهم – خطباء مفوهين ، يتخيرون الألفاظ ، ويعنون بالنظم ، وقد ورد عنهم ما اتخذه البلاغيون بعدهم أساساً لأبواب من البلاغة والفصاحة والبيان ، فمن ذلك ما يروى عن أبي بكر رضي الله عنه من أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . وتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ ، إذ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء ، فقال له : "لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله"[1] .

ولقد كان شيوع هذه الرواية وترددها على ألسنة البلاغيين هو الذي حدا بهم إلى أن يفتحوا في البلاغة باباً خاصاً هو : باب "الفصل والوصل" .

وكان عمر –رضي الله عنه – فصيحا بليغاً ، فقد ضرب الرواة مثلا لفصاحته وبلاغته ، بأنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء .

وعلى بن أبي طالب – رضي الله عنه – لم يكن يجاريه أحد في مضمار الفصاحة والبلاغة ، وخير ما يثبت هذا : كتاب "نهج البلاغة" المنسوب إليه ، وقد عرف هو البلاغة ، فقال : "البلاغة إيضاح الملتبسات بأسهل ما يكون من العبارات" .

وإلى جانب بلاغة الكتاب والسنة وخطب الخلفاء الراشدين وملاحظاتهم في نقد الكلام وبلاغته ، فقد وجدت عدة عوامل دعت إلى الاهتمام بصياغة القول ، ونظم التراكيب ، وتصوير المعاني صوراً رائعة جذابة .

ومن هذه العوامل : الصراع حول العقيدة بين المسلمين والمشركين وانطلاق الشعراء من المشركين في هجاء الإسلام والمسلمين ، وانطلاق الشعراء من المسلمين في الرد عليهم بهجاء الشرك والمشركين .

وقد كان يمثل شعراء المشركين : عبد الله بن الزبعرى ، كما كان يمثل شعراء المسلمين : حسان بن ثابت الأنصاري[2] .

---

[1] البيان والتبيين ٢٦١/١ .

[2] انظر في تفصيل هذه النقطة : معالم على طريق النقد الأدبي د/عبد الحميد هنداوى ص١٣١ وما بعدها ط دار الثقافة .

ومنها الخلاف الذي نشب بين على ومعاوية ، ذلك الخلاف الذي أدى إلى انقسام المسلمين في ذلك الوقت إلى أحزاب ثلاثة :

حزب يؤيد عليا ، ويرى أنه أحق بالخلافة من معاوية ، وهو حزب الشيعة وحزب يؤيد معاوية ، ويرى أنه أحق بالخلافة من على ، وهو حزب بنى أمية . وحزب "ثالث" لا ينضم إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فهو يرى أن الخلافة ليست من حق على ، وأنها ليست من حق معاوية كذلك ، وإنما هي لمن يصلح لتوليها من عامة المسلمين ، وهو حزب الخوارج :

واحتاج كل حزب من هذه الأحزاب الثلاثة في الدفاع عما يدعو إليه من رأى، إلى بلاغة الخطباء والشعراء وفصاحتهم إلى جانب ما يحتكم إليه في ساحة القتال من الحسام .

٣–البلاغة في عصر بني أمية

وإذا تحولنا إلى عصر بني أمية وجدنا الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية تزدهر ازدهاراً عظيماً ، وفي كل لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب ، أما في السياسة فيشتهر من ولاة بني أمية زياد والحجاج ، وفي زياد يقول الشعبي :"ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما" وفي الحجاج يقول مالك بن دينار : "ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج".

ومن خطباء الشيعة زيد بن الحسين بن على وكان لَسِناً جَدِلاً يجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته . ومن خطباء المحافل سَبْحان وائل وقد خطب بين يدي معاوية بخطبة باهرة سميت من حسنها باسم الشوهاء ، ومثله صُحار العبدى الذي راع معاوية بخطابته ، فسأله : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، فقال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ .

أما خطباء الوعظ فقد بلغوا الغاية من روعة البيان وفي مقدمتهم غَيْلان

الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء ، ويقول الجاحظ إن أدباء العصر العباسي كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيلان ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية ، ويشيد ببلاغة واصل مدللاً عليها بإسقاطه الراء من كلامه لِلُثْغَتِه فيها ، مع ما انتظم له من الطلاوة والجزالة . ونرى الجاحظ في غير موضع من بيانه يسوق ملاحظات الناس على الخطباء ، كما يسوق ملاحظات الخطباء أنفسهم ، وخاصة أصحاب الوعظ منهم، إذ كان تلاميذهم يتحلقون حولهم ، وكانوا يدربونهم على إحسان الأداء وقرع الأدلة بالأدلة الناصعة . ومن طريف ما ساقه من ملاحظات الناس ما رواه الرواة عن عمران بن حطان إذ قال : "إن أول خطبة خطبتها عند زياد -أو عند ابن زياد- فأعجب بها الناس ، وشهدها عمى أو أبي ، ثم إني مررت ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن."

ومما ساقه من كلام الوعاظ ، قول شبيب بن شيبة : "الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية ، وإن كانت كلمة واحدة ، أرفع من حظ سائر البيت" . ويسوق الجاحظ حواراً طريفاً بين أبي الأسود الدؤلى وغلام كان يتقعر في كلامه ، وقد تلومه أبو الأسود تلوماً عنيفاً لاستخدامه ألفاظاً مفرطة في الغرابة .

والحق أن الملاحظات البيانية كثرت في هذا العصر ، وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة ، فقد تحضر العرب واستقروا فى المدن والأمصار ، ورقيت حياتهم العقلية، وأخذوا يتجادلون في جميع شئونهم السياسية والعقيدية ، فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة ، ونما العقل العربي نمواً واسعاً ، فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان ، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب ، بل أيضاً في مجال الشعر والشعراء ، بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه ، وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقواد والأجواد أبوابهم ، فوفدوا من كل فج ، وكانوا يجعلون جوائز كل منهم بقدر شعره وبراعته فيه ، فاشتد التنافس بينهم ،

وهيأ من بعض الوجوه لاندلاع الهجاء بين فريق منهم . والمهم أنه هيأ لكى يتخير كل منهم معانيه وألفاظه بحيث تصغي لها القلوب والأسماع ، وتساق إليه الجوائز الضخمة . وأخذ الشعراء - بحكم استقرارهم في المدن - يلقى بعضهم بعضاً في المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب من يمدحونهم وفي حضرتهم ، فكثرت المحاورات - بينهم من جهة وبينهم وبين سامعيهم من جهة ثانية - في براعتهم وفي بعض معانيهم وأساليبهم .

وقامت في هذا العصر سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية ، بل لقد تحولا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين ، يغدو عليهم شعراء البلدتين ، ومن يفد عليهما من البادية ، لينشدوا الناس خير ما صاغوه من أشعار[1] .

ومن الأمثلة على ظهور الملاحظات البلاغية في هذا العصر أن جريراً سمع عمر بن لجأ التيمى ينشد في أرجوزة له يصف إبله ، يقول :

قد وردتْ قبلَ إنيِ ضحائِها ... وتَفرسُ الحيات في خَرْشائها[2]

جرَّ العجوزِ الثنى من ردائها

فتعرض له يقول : كان أولى بك أن تقول : "جر العروس" لا جر العجوز التى تتساقط خوراً وضعفا ، واستشاط عمر غضباً ، فهجاه ، واحتدم بينهما الهجاء .

وهذا النقد الموجه إلى الكميت في هذا البيت كان أساسا لما سماه البلاغيون بعد بمراعاة النظير .

ونستطيع أن نقرر أن الملاحظات البلاغية والبيانية قد ازدادت في هذا العصر لعدة عوامل تتلخص في .

١-ازدهار الخطابة في هذا العصر نتيجة لأمور سياسية ، ودينية ، واجتماعية ، فقد تنوعت الخطابة إلى : سياسية ، ودينية ، وحفلية .

---

[1] البلاغة تطور وتاريخ د/شوقي ضيف ص١٤-١٦ .

[2] إني : وقت ، من أني يأني إذا حان وقته . ضاح الإبل : رعاها في الضحى . تفرس : تحطم وتدق . الخرشاء : جلد الحيات .

٢-ومنها أن العرب قد تحضروا ، واستقروا في المدن والأمصـــار ، وأخـــذوا يتجادلون في أمورهم السياسية والعقيدية .

٣-ومنها قيام الأسواق الأدبية على غرار سوق عكاظ في الجاهلية .

٤-ظهور النقائض بين جرير والفرزدق وكثرة الهجاء الذي يدعو إلى التنـافس وحرص كل واحد من الشاعرين المتهاجيين على قهر خصمه والتفوق عليه برائع .

ونستطيع أن نجمل الحديث عن طبيعة البلاغة في هذا العصر بأنها لا تعدو مجرد ملاحظات انطباعية غير مقننة ولا مدونة لم يقصد منها أن تكون علما بقدر ما قصـــد فيها إلى التعبير عن الحس والذوق البلاغي المستكن لدى أصحابه .

المرحلة الثانية

بداية التدوين البلاغي على هامش العلوم

البلاغة في العصر العباسي :

اتسعت الملاحظات البلاغية في العصر العباسي اتساعاً يمثل طفرة كبيرة كانت استجابة لعدة عوامل أثرت في جميع مجالات الحياة في العصر العباسي وليس في مجال الأدب وحده .

وقد نشأ عن هذه العوامل أن شاركت في نشأة البلاغة وتدوين الملاحظات البيانية في هذا العصر عدة طوائف ، تتمثل في الطوائف التالية :

أولاً : طائفة الكتاب من الفرس والموالى :

تطورت الحياة العقلية والحضارية في هذا العصر بتأثير الحضارات الوافدة ، وبتأثير دخول كثير من الفرس والموالى في دواوين الحكم واتخاذ الخلفاء لهم كتاباً ووزراء وقادة من هؤلاء الموالى وقد أتقن هؤلاء الموالى العربية وحذقوها ، وبرعوا فيها أيما براعة مع صبغتها بما اكتسبوه من لغتهم وثقافتهم الخاصة بهم .

ويكفي أن نذكر في هذا الصدد ابن المقفع (المتوفى سنة ١٤٣ للهجرة) ، فقد ترجم عن الفارسية كتبا تاريخية مختلفة وأخرى أدبية وسياسية ، كما ترجم كليلة ودمنة وأجزاء من منطق أرسططاليس . واتسعت الترجمة بعده ، وأسست لها دار الحكمة ، وأكب المترجمون من السريان وغيرهم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي . وكان ذلك تحولا كبيراً في الفكر العربي ، إذ اصطبغ بثقافات أجنبية كثيرة ، وأخذت أوعية لغته تحمل كل التراث الحضاري القديم ، واتسعت جنباتها سعة شديدة ، وهى سعة أتيح لها منذ أول الأمر كاتب فذ خبر أساليب اللغة ومرن عليها مرانة دقيقة ، ونقصد ابن المقفع ، وهو بدون ريب يعد في طليعة من ثبتوا الأسلوب العباسي الجديد الذي سمى باسم الأسلوب المولد ، وهو أسلوب يمتاز بالنصاعة والدقة في اختيار الألفاظ ووضعها في أمكنتها الصحيحة وبث المعاني المستحدثة فيها دون عوج أو تعقيد[1] وقد ذكر الرواة أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال :

"البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل .

---

[1] البلاغة تطور وتاريخ ص١٩-٢٠ .

وفي هذا القول تحديد واضح لمفهوم البلاغة ، ومنه أخذ البلاغيون المتأخرون تعريفهم للبلاغة بأنها : "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[1] . فالإيجاز له مواضع والإطناب له مواضع وما يصلح لهذا لا يصلح لذاك فلكل مقام مقال .

كما أن في كلامه- أيضاً-إشارة إلى ما سمي فيما بعد:"براعة الاستهلال" ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك". وإشارة أخرى إلى ما عرف باسم"رد الأعجاز على الصدور". "خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته".

وقد كان ابن المقفع واحداً من كتاب الدواوين الذين عُنوا بصياغة النثر العربي حينئذ واتخذوا الكتابة صناعة لهم ، وكانوا يختارون من الفصحاء البلغاء ، وقد استطاعوا أن يجعلوا من الدواوين العباسية ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة ، إذ كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب ، وكانوا لا يزالون يراجعونهم فيما يكتبون من رسائل ، فإذا وقفوا منهم على ناشئ تنم كتابته عن تفنن في القول شجعوه ، وربما قدمه إلى الخليفة أو إلى بعض الوزراء فلمع اسمه وتألق نجمه . وكانوا يأخذون أنفسهم بالتثقف ثقافة واسعة بكل ما نقل من التراث الأجنبي ، وخاصة الفلسفة اليونانية ، كما كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة عربية أصيلة . وهى ثقافة ما زالوا يكبّون عليها حتى وقفوا على تصاريف الكلام ووجوه استعماله وميزوا بين جيده ورديئه ومقبوله ومرذوله، وبلغوا من ذلك كله مبلغا جعل الجاحظ ينوه بهم في بيانه طويلا ، يقول : "أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقيا[2] "فهم يجتنبون في كتابتهم الساقط والوحشى ، وهم يدققون في انتخاب ألفاظهم وفي التخلص إلى المعاني الطريفة . وعنايتهم بالمعاني لم تكن تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، غير أن الجاحظ التفت إلى عنايتهم الثانية ، لأنهم بلغوا فيها – على ما يظهر – الغاية . وقد عاد مرة في بيانه يشيد بعنايتهم بالطرفين جميعاً هم ونابهى الشعراء ، يقول : "ورأيت عامتهم لا يقفون إلا على الألفاظ

[1] الإيضاح ١/٢٦ .
[2] البيان والتبيين ١/١٣٧ .

المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر"[1] .

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الكتاب كانوا يعيشون لإحسان الكتابة في أساليبها ومعانيها ، وكان ذوقهم مترفا بعامل ما انغمسوا فيه من الحضارة ، وكانت عبارة تعجب في كتاب أو رسالة لهم خليفة أو وزيراً فإذا هم يصعدون إلى أعلى المناصب ، لذلك مضوا يصفون كلامهم ويتخيرونه مما يجمع الجزالة والرصانة مع السلامة والنصاعة ، مع الرونق والطلاوة . وكانوا لا يزالون يبدئون ويعيدون في صفات البيان الحسن والبلاغة ، يشركهم في ذلك من حولهم حتى من تسنموا منصب الوزارة مثل جعفر بن يحيى البرمكي ، وكان في الذروة من الفصاحة والبلاغة ، وفيه يقول الجهشاري "كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وتُدورست بلاغاته"[2] وفيه يقول ثمامة بن أشرس : "كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ، وقال ثمامة مرة : ما رأيت أحداً كان لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى"[3] . ونرى ثمامة إعجابا منه بجعفر وبيانه البليغ وفتنة منه بما يحسن من التعبير وما يكسوه من تفننه يسأله : ما البيان ؟ فيجيبه بقوله : "أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا

---

(1) البيان والتبيين ٤/٢٤ وانظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٨٤ .

(2) الوزراء والكتاب للجهشاري (طبعة الحلبي) ص٢٠٤ .

(3) البيان والتبيين ١/١٠٥ .

تستعين عليه بطول الفكرة ، والذي لابد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنيا عن التأويل"[1] .

وجعفر يريد بالاسم اللفظ ، ويقول إنه ينبغي أن يحيط بالمعنى بحيث يحصره من جميع أطرافه ، كما ينبغي أن يجلى عن مغزاه بحيث يشف عنه ، وأيضاً فإنه ينبغي أن يخرج عن الشركة ، بحيث تختار له الكلمات الدقيقة التى تدل على المعنى في وضوح دون أن تشترك معه معان أخرى . وينبغي أن يبرأ من التكلف والتعقيد بحيث لا يظهر فيه التعمل والتصنع ، وبحيث لا يحتاج إلى شرح أو تفسير . وانصب من هذا التعريف معان كثيرة في "البيان والتبيين" إذ نرى الجاحظ من حين إلى حين يوصى بالوضوح وينهى عن التكلف والتعمية والتعقيد والاستغلاق .

وجعفر إنما هو مثل واحد من أمثلة هؤلاء الكتاب الذين برعوا في فنون التعبير، والذين طالما أداروا بينهم آراءهم في البيان والبلاغة [2] .

---

[1] البيان والتبيين ١٠٦/١ .

[2] انظر البلاغة تطور وتاريخ ٢١-٢٣ .

ثانياً : الشعراء وأثرهم في تطور البلاغة في العصر العباسي :

لم يكن تأثير الشعراء في هذا العصر بأقل من تأثير الكتاب في نهضة فنون البلاغة وتطورها والالتفات إلى أبوابها ومسائلها .

لقد وجدنا الشاعر العباسي كبشار -مثلا -يترع مترعين مختلفين :

مترعا يحتفظ فيه بشار بالتقاليد الموروثة مع شيء من التطور بتأثير ما حدث من رقى العقل العربي لكثرة ما تزود به من المعارف الأجنبية ، وأيضاً بتأثير ما داخل الحس العربي من تحضر ومن رقة الشعور ورفاهته ، وهو مترع كان يضطر إليه اضطراراً حين يعنى بمديح الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء ؛إذ كان هو الذي يرضيهم فيضفون عليه نوالهم الغمر . وكان يقابل هذا المترع عنده مترع ثان لم يكن يعني فيه بالمديح . إنما كان يعني بتصوير حياته الشخصية وأهوائه وميوله ولهوه وطربه وخمره وحبه . وتبعه الشعراء العباسيون يترعون في شعرهم نفس المترعين ، مضيفين إلى أنغام المترع الثاني أنغاما كثيرة ، وهى أنغام أهملوا فيها أو على الأقل في جمهورها ما عرف به العرب من العفة والوقار ، والارتفاع عن الدنيات ، إذ أطلقوا العنان لأنفسهم في اللهو والمجون ، وفي تصوير عواطفهم وأهوائهم دون أي احتشام .

وأخذ الشعراء في المترعين جميعاً يعنون عناية شديدة بالعربية وراح فريق منهم إلى البادية ، يتقدمهم بشار وأبو نواس ، ومن أقام منهم في الحاضرة لزم اللغويين في المساجد الجامعة يروي عنهم الشعر القديم ، وما يزال يرويه حتى تستقيم له سليقته العربية ، وحتى يغدو كأنه عربي أصيل . وقد مضوا يلائمون بين لغة الشعر القديم وبين ما عاشوا فيه من حضارة ومن رقي عقلى ، مستخدمين كل ما يملكون من مهارة ، وبذلك ثبتوا بدورهم الأسلوب المولد الجديد كما ثبته الكتاب والمترجمون من أمثال ابن المقفع ، وهو أسلوب يمتاز بالكلمة المنتخبة الرشيقة ، وبالمعنى المصيب الدقيق ، أسلوب يمتاز حينا بالصفاء والنقاء والنعومة والعذوبة ، وحينا بالجزالة والرصانة[1] .

---

(1) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٤ .

ومن الأمثلة على وجود هذين المترعين إلى القديم والجديد عند الشعراء العباسيين ومحاولتهم الجمع بين المترعين ، مع التفاهم إلى نهج العرب وطرقهم في بيانهم وبلاغتهم ، ما ورد عن بشار:" ما زلت أروى في بيت امرئ القيس :

كأنّ قلوبَ الطَّير رطْباً ويابساً لدى وكْرها العنَّابُ والحشَفُ البالى[1]

إذ شبه شيئين بشيئين ، حتى صنعت :

كأنّ مُثارَ النَّقْع فوق رءُوسِنَا وأسيافُنَا ليلٌ تهاوى كواكِبُه"[2]

وهو إنما يريد مجرد تشبيه شيئين بشيئين ، إذ التشبيهان مختلفان . ولعل في ذلك ما يشير إلى أن الشاعر العباسي كان يحاول محاكاة الشاعر القديم في وسائله البلاغية من تشبيه وغير تشبيه ، مستعيناً بفكره الدقيق ولطف مسالكه إلى المعاني والأخيلة وبحسه الحضرى الرقيق ومشاعره المرهفة"[3] .

وعلى هذا النحو كان الشعراء والكتاب يكثرون من ملاحظاتهم البلاغية ، محاولين بكل ما وسعهم أن يذللوا المادة الأدبية القديمة لتحمل عصرهم ونفوسهم وأحاسيسهم وعقولهم وأخيلتهم ، واستطاعوا أن يستوعبوا خصائص الأدب القديم وأن ينموها ليبلغوا كل ما كانوا يرومونه من روعة الشعر والنثر . إن الأدب في رأيهم تفهم ودراسة لنماذجه القديمة ، حتى يتشبع بها الشاعر والكاتب ، ثم يأخذ في أن يجد نفسه ومحيطه ، ويصورهما في لغة منمقة تزخر بالمحسنات أو في لغة شفافة لطيفة كالغلائل الرقيقة[4] .

---

(1) العناب : عذب الديب . الحشف : أسوأ التمر .

(2) أغاني ١٩٦/٣ .

(3) البلاغة تطور وتاريخ ص٢٥ .

(4) السابق ص٢٨ .

ثالثاً : طائفة اللغويين وأثرهم في نشأة البحث البلاغي :

وإذا كان دور الكتاب والشعراء في هذا العصر قد اقتصر في تمثلهم لوجوه البيان العربي مع ما أضافوه إليه من أثر الثقافات الأجنبية وظهور أثر ذلك في أدهم ، مع ظهور بعض الملاحظات البلاغية التى تدل على بداية تنبههم لمسائل البلاغة وفنونها ، أقول : إذا كان دور الكتاب والشعراء قد اقتصر على ذلك ، فإن ثمة طائفة أخرى كان لها الدور الأكبر في الانتقال بالبلاغة إلى مرحلة التقنين والتقعيد ، وقد امتد تأثيرهم إلى بداية التأليف المنهجي في علوم البلاغة ، واستمر كذلك لم ينقطع عن علم البلاغة حتى بعد استقلالها وتميزها ، وهذه الطائفة هى طائفة اللغويين بدءاً من الخليل وسيبويه حيث تطرقوا إلى كثير من الملاحظات البيانية والبلاغية أثناء بحوثهم اللغوية ، وقد كانت تلك الملاحظات بمثابة الثمرة والنتيجة للأبحاث اللغوية ، حيث إن هؤلاء اللغويين لم تقصر همتهم -كمن بعدهم- عند وضع القواعد والضوابط اللغوية بل كانوا يتطرقون أحياناً لبيان أثر تلك الأبحاث أو المسائل اللغوية على المعاني ؛ ومن ثم وجدنا عند الخليل وسيبويه بوادر كثيرة من المسائل التى خصص ها علم المعاني فيما بعد ، فقد تحدث سيبويه في الكتاب عن بعض خصائص التراكيب ، والمناسبة بين الألفاظ والمعاني ، كما تحدث عن التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف ، وعن معاني بعض الأدوات مثل أدوات الاستفهام وأدوات الشرط وغير ذلك .

وقد التفت الخليل إلى المناسبة بين الألفاظ وبين المعاني التى وضعت لها في لغة العرب ، مما كان أساساً لرعاية المشاكلة بين اللفظ والمعنى فيما بعد .

فمما جاء عن الخليل في ذلك قوله : "كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : (صرّ) وتوهموا في صوت البازى تقطيعا فقالوا : (صرصر)[1] "نلمح هنا إشارة الخليل إلى ما بين الفعل الثلاثي المضعف"صر" وبين معناه من التناسب ، من حيث بنية الصيغة ، ودلالتها على المعنى الإفرادى لتلك الكلمة . فنحن نلاحظ أن

---

[1] ابن جنى الخصائص ، ١٥٢/٢ تحقيق د / محمد على النجار ، وانظر بتحقيقي. ط. دار الكتب العلمية-بيروت.

تضعيف الراء الناشيء من التشديد فيها ينتج عنه نوع من المط والاستطالة في نهاية الكلمة يناسب ما في صوت الجندب من مدّ واستطالة ، فالمناسبة هنا ظاهرة بين صيغة الكلمة أو هيئتها ومعناها الذي تدل عليه .

فإذا انتقلنا إلى كلام سيبويه في هذا الموضع فإننا نجد أن سيبويه قد أصل سبق الخليل إلى هذا الباب ، فهو يقول : "هذا باب افعوعل وما هو على مثاله مما لم نذكره، قالوا :خشن وقالوا: اخشوشن ، وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد ، كما أنه إذا قال (اعشوشبت الأرض) فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيراً عاما قد بالغ..."[1] لقد التفت الخليل وسيبويه هنا إلى أثر زيادة المبنى في زيادة المعنى ، كما قد التفتا -كذلك- إلى الغرض من تلك الزيادة وهو هنا المبالغة والتوكيد ، وقد عقد سيبويه لذلك بابا في كتابه وسماه "ما جاء على مثال واحد حين تقاربت المعاني"[2] .

ونحتاج أن نقف أمام بعض هذه المواضع لتأمله ، وبيان مدى وقوف سيبويه على هذه الظاهرة . فلنتأمل على سبيل المثال قوله : "ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك : النزوان والنقزان والقفزان ، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع ، ومثله العسلان والرتكان .. ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة وتحرك ومثله الغثيان لأنه تجيش نفسه وتثور ، ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك اللهبان والصخدان والوهجان لأنه تحرك الحر وثؤوره فإنما هو بمنزلة الغليان ..."[3] .

وبتأمل هذا النص نقف على الآتي :

التفات سيبويه إلى المناسبة بين الصيغ والمعاني حيث إنه قد وقف على ظاهرة مهمة وهي مجيء مجموعة من الألفاظ المتقاربة المعنى على صيغة واحدة ، أو بتعبير سيبويه على (مثال واحد) ، وكأنه يشير إلى التفات سيبويه إلى الدلالة المركزية

---

[1] سيبويه / الكتاب ، ٢٤١/٢ط المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٣١٧ .

[2] المرجع السابق ٢١٩/٢ . وثمة مواضع أخر كثيرة في كتابه انظر على سبيل المثال الكتاب ٢١٤/٢-٢١٦ .

[3] سيبويه الكتاب ٢١٨/٢ .

المشتركة بين هذه الألفاظ التي استدعت مجيئها على تلك الصيغة ، فالتروان والنقزان والقفزان والعسلان والرتكان والغليان والغثيان والخطران واللمعان واللهبان والوهجان.. ونحوها تشترك جميعها في معنى مشترك فيما بينها هو الحركة والاهتزاز والاضطراب ، ومن ثم يرى سيبويه أن هذه المصادر قد جاءت على ذلك المثال الواحد أو تلك الصيغة الواحدة (**فعلان**) حين تقاربت المعاني .

ويعلل سيبويه مجيء بعض الألفاظ على أكثر من صيغة كما يعلل تقارب المعاني التي تدل عليها صيغتان بما بين الصيغتين من التشابه في مناسبة المعنى ، فيقول : "ومثله العسلان والرتكان وقد جاء على فعال نحو النزاء والقماص كما جاء عليه الصوت نحو الصراخ والنباح لأن الصوت قد تكلف فيه من نفسه ما تكلف من نفسه في التروان ونحوه"[(١)] فالعسلان والرتكان جاءا على فعلان كما جاءا على فعال التي تأتي عليها الأصوات نحو الصراخ والنباح ، وذلك لما بين الصيغتين من تشابه في مناسبة المعاني ، فكل من الفعال والفعلان يدل على حركة وتكلف ، فالصراخ والنباح (فعال) يدل على صوت يتكلف المرء فيه من نفسه ، ما يتكلفه من نفسه في التروان ونحوه .

والحق أن سيبويه قد وقف كثيرا على ظاهرة مجيء ألفاظ متقاربة المعنى على صيغة واحدة كما أنه وقف كثيرا على هذه الألفاظ لاستخراج المعنى الإجمالي المشترك بينها والذي جاءت لأجله على ذلك المثال أو تلك الصيغة ، ولكنه – والحق يقال – كان قلما يعلل مجيء ذلك المعنى على تلك الصيغة ، بمعنى أنه -وإن وقف على ظاهرة المناسبة بين الصيغة والمعنى – لم يعلل لمجيء المعنى على تلك الصيغة بذاتها دون غيرها على نحو ما اهتم بذلك ابن جني مثلا فيما بعد .

فسيبويه يقول على سبيل المثال :

"ومما جاءت مصادره على مثال لتقارب المعاني قولك: يئست يأسا ويآسة وسئمت سأما وسآمة وزهدت زهدا وزهادة فإنما جملة هذا لترك الشيء .. ..

---

(١) سيبويه الكتاب ٢/٢١٨ .

وقالوا زهد كما قالوا ذهب ، وقالوا الزهد كما قالوا المكث ، وجاء أيضاً ما كان من الترك والانتهاء على فعل يفعل فعلا وجاء الاسم على فعل وذلك أجم يأجم أجما وهو آجم وسنق[1] يسنق سنقا وهو سنق ، وغرض يغرض غرضا وهو غرض ، وجاءوا بضد الزهد والغرض على بناء الغرض وذلك هوى يهوى هوى وهو (هَوٍ) ، وقالوا : قنع يقنع قناعة كما قالوا : زهد يزهد زهادة وقالوا قانع ، كما قالوا زاهد وقنع كما قالوا : غرض ، لأن بناء الفعل واحد وأنه ضد ترك الشيء ، ومثل هذا في التقارب : بطن يبطن بطنا ، وهو بطين وبطن ، وتبن تبنا وهو تبن ، وثمل يثمل ثملا وهو ثمل ، وقالوا طبن يطبن وهو طبن[2] "[3] فهذا كلام سيبويه بتمامه في هذا الموضع قد التفت فيه إلى مجيء ألفاظ على صيغة واحدة هي (**فَعِل يفْعَل فَعَلا ، والاسم فيها على فَعِل**) مشتركة في معنى إجمالي واحد ، هو ما عبر عنه بقوله "فإنما جملة هذا لترك الشيء" ولكنه لم يقف ليعلل لنا سبب مجيء هذه الصيغة للدلالة على الترك ، أو ما المناسبة بينها وبين معنى الترك ، حتى استدعى ذلك مجيء الألفاظ على تلك الصيغة مفيدة ذلك المعنى .

وكذلك فعل في باب "ما جاء من الأدواء على مثال وجع يوجع وجعا وهو وجع لتقارب المعاني" وكذلك فعل فيما جاء بعضه على فعال كما جاء فعال وفعول قالوا : نعس نعاسا وعطس عطاسا، ومزح مزاحا ، وأما السكات فهو داء كما قالوا العطاس"[4] فيقول "فهذه الأشياء لا تكون حتى تريد الداء (جعل) كالنحاز والسهام وهما داآن وأشباههما"[5] وكذلك يقول في (باب فعلان ومصدره وفعله) ، أما ما كان

---

(1) السنق : البشم وهو الشبعان كالمتخم . لسان العرب (سنق) .

(2) طبن : أي فطن . اللسان (طبن) .

(3) سيبويه ٢/٢١٨-٢١٩ .

(4) الكتاب ٢/٢١٦ .

(5) السابق ، والنحاز : داء يأخذ الدواب والإبل في رئاها ، فتسعل سعالا شديداً (نحز) . والسهام الضمر وتغير اللون وذبول الشفتين وهو أيضا داء يأخذ الإبل . اللسان (سهم) .

من الجوع والعطش فإنه أكثر ما يبنى من الأسماء على فعلان ويكون المصدر الفعل ويكون الفعل على فعل يفعل وذلك نحو ظمىء يظمأ ظمأ وهو ظمآن وعطش يعطش عطشا وهو عطشان ، وصدى يصدى صدى وهو صديان ، وقالوا الظماءة كما قالوا السقاية لأن المعنيين قريب كلاهما ضرر على النفس وأذى لها"[١] .

وإذا كان سيبويه قد التفت إلى تلك الظاهرة مع عدم التعليل لها ؛ فإننا نجد أن ابن جني قد اهتم بذلك التعليل في كتابه الخصائص ، حيث عقد لتلك الظاهرة بابا في كتابه سماه : (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) يقول فيه :

"اعلم أن هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته"[٢] .

ثم ذكر عبارة الخليل وسيبويه اللتين سبق نقلهما ولكن ابن جني لم يكتف بمجرد النقل لكلام سيبويه ولكنه يكمل ما تركه سيبويه من تعليل مجيء ذلك المعنى على تلك الصيغة حيث يقول :"فقابلوا بتوالي حركات المثال توالى حركات الأفعال"[٣].

فابن جني يلمح المناسبة بين تلك الحركات المتوالية في صيغة (فعلان) التي جعلت تلك الصيغة بتلك الهيئة مناسبة أتم المناسبة لمعناها الدال على الحركة والاضطراب .

والحق أن ابن جني قد أطال النفس جدا في هذا الباب ، وقد أفاد فيه وأجلد ، ونحتاج أن نقف هنا أمام كلامه في هذا الباب وقفات متأنية لنرى إلى أي حد تكون المناسبة بين صيغ الألفاظ ومعانيها .

قال ابن جني بعد ذكر كلام الخليل وسيبويه السابق نقله : "ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه[٤] ومنهاج ما مثلاه . وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير ، نحو الزعزعة ، والقلقة ، والصلصلة ، والقعقعة،

---

[١] الكتاب ٢/٢٢٠ .

[٢] الخصائص ٢/١٥٢ .

[٣] السابق .

[٤] في الأصل حداه . وفي الهامش عن بعض النسخ (حذياه)

والصعصعة[1] والجرجرة ، والقرقرة . ووجدت أيضاً (الفعلى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة ، نحو البشكى ، والجمزى والولقى .. فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكـرر – أعني باب القلقلة – والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالـت الحركـات فيها[2] .

يلمح ابن جني في هذا النص ما بين المصادر الرباعية المضعفة ومعناهـا مـن المناسبة ، إذ إن هذه المصادر بما اشتملت عليه من تضعيف وتكرير تناسب ما تدل عليه معانيها من التكرير المشترك بين ألفاظ تلك الصيغة ، مما يضيف إلى معناها المعجمـي معنى آخر تضيفه الصيغة وتدل عليه بهيئتها الصرفية .

كما يلمح ابن جني كذلك ما بين (الفعلى) من تكرار الحركات وتلاحقـها وتتابعها وما تدل عليه من معنى السرعة والتتابع وتوالى الحركات في الفعل كما توالـت الحركات في النطق .

يقول ابن جني : "ومن ذلك – وهو أصنع منه – أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب ، نحو استسقى ، واستطعم ، واستوهب ، واستمنح ، واستقدم عمـرا ، واستصرخ جعفرا ، فرتبت في هذا الباب الحروف على ترتيب الأفعال . وتفسير ذلـك أن الأفعال المحدثة عنها أنها وقعت عن غير طلب تفجأ حروفها الأصول ، أو ما ضارع بالصيغة[3] الأصول .

فالأصول نحو قولهم : طعم ووهب ، ودخل وخرج ، وصعد ونـزل ،فـهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت ، و لم يكن معها دلالة تدل على طلب لهـا ولا إعمال فيها . وكذلك ما تقدمت الزيادة فيه على سمت الأصل ، نحو أحسن وأكـرم ، وأعطى وأولى فهذا من طريقة الصنعة (الصيغة) بوزن الأصل في نحو دحرج ، وسرهف ، وقوقى ، وزوزى ، وذلك أنهم جعلوا هذا الكلام عبارات عن هذه المعـاني ، ازدادت

---

[1] الصعصعة : التحريك والقلقلة ، اللسان / صعصع .

[2] الخصائص ٢/١٥٣ .

[3] كذا بالأصل ، وفي بعض النسخ (بالصنعة) .

العبارة شبها بالمعني كانت أدل عليه ، وأشهد بالغرض فيه . فلما كانت إذا فاجأت الأفعال فاجأت أصول المثل الدالة عليها أو ما جرى مجرى أصولها ، نحو وهب، ومنح ، وأكرم ، وأحسن ، كذلك إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها ، وجب أن تقدم أمام حروفها الأصول في مثلها الدالة عليها أحرفا زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها ، والمؤدية إليها ، وذلك نحو : استفعل ، فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ، ثم وردت بعدها الأصول الفاء والعين واللام ، فهذا من اللفظ وفق المعنى المقصود هناك ، وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعي فيه والتأني لوقوعه تقدمه ، ثم وقعت الإجابة إليه ، فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه ، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة ، وذلك نحو : استخرج ، واستقدم ، واستوهب ، واستمنح، واستعطى ، واستدنى"[1] .

في هذا النص يقارن ابن جني بين الصيغ المجردة (الأصول) والصيغ المزيدة في دلالتها على معانيها . فالصيغ المجردة وهي ما سماها بالأصول هي نحو : طعم ، ووهب، ودخل ، وخرج ... إلخ .

أما الصيغ المزيدة فيجعلها نوعين :

*__مزيد جرى مجرى الأصول__ : نحو : أحسن ، وأكرم ، فهذا يجري مجرى الأصول في مشابهته الرباعي المجيء على (فعلل) .

*__ومزيد زاد على الأصول__ ، ومثل له بما زاد على الأصول بأحرف متقدمة على الأصول (كاستفعل) .

ثم يلمح ابن جني المشابهة والمناسبة بين كل من هذه الصيغ وما تدل عليه من المعاني . فالصيغ المجردة إنما تدل على المفاجأة للسمع بالإخبار عن الحدث دون تمهيد

---

[1] الخصائص ١٥٣/٢ ، ١٥٤ .

بأحرف تسبقه ، فهي إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت ، و لم يكن معها دلالـة تدل على طلب لها ولا إعمال فيها .

وذلك نحو طعم ووهب وخرج ودخل وكذلك ما تقدمت الزيادة فيه علـى سمت الأصل ، وهو ما جرى مجرى الأصول الرباعية على (فعلل) ، فجعل ما جاء على وزن (أفعل) كأحسن وأكرم جاريا مجرى الأصول على (فعلـل) في نحـو دحـرج وسرهف.. إلخ .

أما ما دل على سعى وتسبب وتعمل تقدمه ، فهذا يحتاج إلى أحرف تتقـدم على الأصول لتشعر بما تقدم الفعل من سعى وتسبب وتعمل . فلما كانت إذا فاجـأت الأفعال فاجأت أصول الصيغ الدالة عليها أو ما جرى مجرى أصولها نحـو : وهـب ، ومنح، وأكرم ، وأحسن ، كذلك إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها وجب أن تقدم أمام حروفها الأصول في صيغها الدالة عليها أحرفاً زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها ، والمؤدية إليها .

ويزيد ابن جني في بيان المناسبة بين الصيغة والمعنى فيقول : "ومن ذلك أنهـم جعلوا تكرير العين في المثال[1] دليلا على تكرير الفعل ، فقالوا : كسر ، وقطع ، منح ، وغلق . وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغى أن يقابل به قـوة الفعل ، والعين أقوى من الفاء واللام ؛ وذلك لأنها واسطة لهما ، ومحفوفة بهما ، فصار كأنهما سياج لها ، ومبذولان للعوارض دونها ، ولذلك نجد الإعلال بالحذف فيـهما دونها .. فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها ، وجعلوه دليلا على قوة المعـنى المحدث به ، وهو تكرير الفعل ، كما جعلوا تقطيعه في نحو : صرصر وحقحق دليـلا على تقطيعه .."[2] لقد استطاع ابن جني في هذا النص السابق أن يكشف لنـا عـن المناسبة الوثيقة بين صيغة (فعل) ودلالتها على التكرار في الحدث .

---

[1] يقصد بالمثال هنا (الصيغة) كما هو واضح من النص ، وكما توصلت إليه بالاستقراء التي عبر فيها عن الصيغة بالمثال فانظر على سبيل المثال ٢/١٥٥ ، ١٥٧ ، ٣/٩٨ ، ١٨٨ .

[2] الخصائص ٢/١٥٥ .

ويكشف ابن جني كذلك عن المناسبة بين بعض الصيغ ودلالتها على المبالغة ، فيقول: "وقد أتبعوا اللام في باب المبالغة العين ، وذلك إذا كررت العين معها في نحو : دمكمك وصمحمح وعركرك وعصبصب وغشمشم ، والمواضع في ذلك للعين ، إنما ضامتها اللام هنا تبعا لها ولاحقة بها ، ألا ترى إلى ما جاء عنهم للمبالغة في نحو اخلولق، اعشوشب ، واغدودن ، واحمومى ، واذلولى ، واقطوطى ، وكذلك في الاسم نحو عثوثل ، وغدودن ، وحفيدد ، وعقنقل ، وعبنبل ، وهجنجل .. كما ضاعفوا العين للمبالغة ، نحو عتل ، وصمل ، وقمر ، وحزق .."[1] وقد أطال ابن جني في توجيه ذلك ، وهو واضح في أن زيادة المبنى فيه قد ناسبت زيادة المعنى وهو إرادة المبالغة .

كما ورد عن الخليل في كتابه العين بعض الملاحظات التي اتخذها البلاغيون المتأخرون بعد ذلك أساساً لبعض ما قرروه في باب الفصاحة فمن ذلك قوله في أوصاف اللفظة المفردة :

"العين والقاف لا يدخلان في بناء إلا حسناه لأنهما أطلق الحروف"[2] .

فقد كان ذلك أساساً لما قرره البلاغيون بعد ذلك في درس الفصاحة مما ينبغي أن تكون عليه الكلمة من حيث تركيب حروفها .

هذا وقد تحدث سيبويه عن سر بلاغة التقديم عند جواز تقديم المفعول على الفاعل : "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعني ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم"[3] .

ويتحدث عن همزة الاستفهام فيذكر أن قولك :أزيد لقيت أم عمراً ؟ تقديم الاسم فيه أحسن وأفضل ، ولو قلت ألقيت زيداً أم عمراً ؟ لكان جائزاً حسناً[4] . وما أجازه سيبويه وعده حسناً وفضله عبد القاهر والبلاغيون المستفهم عنه الهمزة إذا كانت للتصور فلا يجوز عندهم في المثال المذكور إلا : "أزيداً لقيت أم عمرا ؟ ..وهو ما جعله

---

(1) الخصائص ٢/١٥٥-١٥٦ .

(2) العين للخليل ١/٥٣ ، وقد نقله عن الطيبي في التبيان في فن الفصاحة بتحقيقي ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة .

(3) الكتاب ١/١٥ .

(4) انظر الكتاب ٣/١٦٧ .

سيبويه أحسن وأفضل[1] . وقد ذكر صاحب دلالات التراكيب وجهاً حسنا في التوفيق بين الرأيين فارجع إليه[2] .

ويشير إلى المجاز العقلي عند حديثه عن بيت الخنساء :

تَرتعُ ما غَفلتْ حتىّ إذا ادّكرتْ فإنمّــا هي إقبــالٌ وإدبــارُ

فيقول : "جعلتها الإقبال والإدبار مجازاً على سعة الكلام[3] كما يتحدث عن التشبيه ويورد أمثلة له نحو قولك : مررت برجل مثل الأسد ، إذا كنت تشبهه[4] .

الأصمعي (ت٢١١هـ) : لم يترك الأصمعي كتابا في صيغ التعبير القرآني كالفراء وأبي عبيدة ، ولكن من جاءوا بعده كابن المعتز وابن رشيق وأبي هلال وقدامة نقلوا آراءه وإشاراته البلاغية ، فقد تحدث عن الجناس ويقال إنه ألف فيه كتابا وتحدث عن المطابقة وعن صورة أخرى للالتفات غير الصورة التي ذكرها أبو عبيدة . كما تحدث عن الإيغال وعن المبالغة .

يقول ابن المعتز : التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها[5] ويقول ابن رشيق :ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال : أصلها وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع ، ثم قال : أحسن بيت قيل لزهير في ذلك :

ليثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجــال إذا

ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانِه صَــدقَا[6]

---

[1] انظر دلائل الإعجاز ١٤١ .

[2] ارجع إلى دلالات التراكيب ٢١٩ للدكتور محمد أبو موسى .

[3] الكتاب ١٦٩/١ .

[4] انظر الكتاب ٢٣١/١ .

[5] كتاب البديع ٢٥ .

[6] العمدة ٧/٢ ، وعثر : موضع قبل تبالة من أرض اليمن .

رابعاً : طائفة المتكلمين :

إزاء طائفة اللغويين ظهرت طائفة ثانية كان لها أثر كبير في نشـــأة الـــدرس البلاغي وتميزه كعلم مستقل بذاته له أصوله وفنونه .

هذه الطائفة هي طائفة المتكلمين الذين عنوا ببحث مسائل العقيدة ، والكـــلام فيها ، ومجادلة المخالفين لهم حول أصولهم واعتقاداتهم .

ونحن وإن كنا نحمّل هؤلاء المتكلمين النصيب الأكبر من أســـباب اختـــلاف المسلمين وتفرقهم ، بما أثاروه وشققوه من القضايا والمسائل العقدية التي لا يعود الجدال فيها بكبير طائل ؛نظرا لأنها مما لم يكلفنا الله تعالى ببحثه واستقصائه كقضيـــة الجـــبر . والاختيار ، والذات والصفات ، وهل الصفات هي عين الذات أم خارجة عنها ؟

وكالاختلاف حول ما أثبته الله تعالى لنفسه من الصفات في كتابـــه وســـنة رسولهﷺ هل هي من باب الحقيقة أو المجاز ؟ مع استحداث عدد من القضايا الـــتي لا أصل لها في الكتاب أو السنة مما تعد من البدع والمحدثات كالقول : بخلق القرآن مثلاً ، وكالزعم بأن الإيمان هو مجرد المعرفة أو القول أو التصديق دون العمل ، وغير ذلك من القضايا الكلامية التي استحدثتها تلك الفرق فكانت سبباً في غرس بذور الفتنة والشقاق والفرقة بين صفوف المسلمين .

وانقسم المسلمون إزاء تلك القضايا وغيرها إلى فرق عديدة من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة وجبرية وقدرية .. إلخ .

فقد أخذوا ينقسمون منذ أواخر القرن الأول للهجرة فرقا تتجادل في نظرياتهـا العقيدية من إرجاء وجبر واختيار ، وكانت تزخر بهم مساجد الكوفة والبصرة وبغـداد بعد إنشائها . ومنذ ظهورهم في عصر بني أمية ، وهم يتخاصمون ويتحاورون حـــواراً عنيفاً ، كل يحاول أن يقهر خصمه ويظهر عليه ، وسرعان ما أصبحت هذه المحـلورات والخصومات ، بل قل المناظرات - شغل الناس الشاغل ، فهم يعجبون بهذا المُنـــاَظر أو ذاك، وهم يتحدثون فيمن كان له الظفر ومن هزم وغلب على أمره ، ويحـــاولون أن

يتبينوا أسباب الظفر والهزيمة ، فيعودوا إلى النظر في حجج الخصمين وفي لغتهما ومخارج حروفهما وإشاراتهما وهيئاتهما .

وكلما تقدمنا مع الزمن احتدمت المناظرات بين هؤلاء المعلمين ، واحتدمت معها الأسئلة في نجاح المناظر والخطيب ، إذ كان جمهور هؤلاء المعلمين يعنى بوعظ الناس ، وكان منهم من يحسن الخطابة والمناظرة والجدل ، ومنهم من لا يوفيها جميعاً حقوقها ، فكثر الحديث في قوة الحجج وفي وضوح العبارة ودقتها وفي جهارة الصوت، وفي ملامح المتكلم وفي ملاءمته بين كلامه والمستمعين . وكان يعنى كل صاحب نحلة فيهم أن يجمع من حوله الشباب وأن لا ينصرفوا إلى خصومه ، فأخذوا يقفوهم على النقص في الحجج والأدلة والنقص في الأداء والبيان ، كما أخذوا يقفوهم على أسرار المهارة في الإقناع والظفر بالخصوم وأسرار البراعة في القول[1] .

وقد حاول هؤلاء المتكلمون في سبيل تحقيق الظفر والانتصار على خصومهم أن يتسلحوا بكافة الأسلحة التي تعينهم على مهمتهم الجدلية البرهانية التي تقوم على الاستدلال ومحاولة إقناع الخصوم بأصولهم وأفكارهم .

لذا فقد أخذوا أنفسهم بثقافة عربية أصيلة واستعانوا عليها بالأبحاث الفلسفية، وتسلحوا لها بالمنطق ، حتى ليقول الجاحظ "لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام، متمكناً في الصناعة يصلح للرياسة ،حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا (يريد المعتزلة) هو الذي يجمعهما" .

"وهؤلاء المتكلمون لم يتفوقوا على معاصريهم في الخطابة والبلاغة القولية فحسب ،بل تقدموهم أيضاً في بحث المسائل البلاغية من الوجهة النظرية والتعليمية ، فلا غرو أن نجد أقدم تعريف دقيق للبلاغة عند عمرو بن عبيد المعتزلي المتوفى (سنة ١٤٤هـ) إذ عرفها بأنها تخير اللفظ في حسن الإفهام"[2] .

---

[1] انظر البلاغة تطور وتاريخ ص٣٢-٣٥ ، وانظر د/ بدوي طبانة ، البيان العربي ص٤٢ ، والشيخ أمين الخولي ، فن القول ، ص٧٢ ، وانظر كلام الجاحظ في الحيوان ط. الحلبي ١٤٣/٢ .

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق وشرح أ/ عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ .

هذا وقد رأينا تأثير ما جلبه هؤلاء المتكلمون من مباحث الفلسفة وحدود المنطق ومباحث الكلام في تراثنا البلاغي منذ ذلك العصر وحتى عصر استقرار المباحث البلاغية وتحديدها بصورتها النهائية على يد السكاكي ومن حذا حذوه .

وفي سبيل تعلم الخطابة والبيان لإقناع المجادلين ، أقبل هؤلاء المتكلمون على بحث كثير من المسائل والقضايا البلاغية ، كما جرهم إلى ذلك أيضاً كثير من مباحث الكلام ككلامهم في تعريف الإيمان وأنه لا يطلق على العمل إلا مجازاً ، وكذلك نفيهم أو تأويلهم لكثير مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ بحجة أنه من المجاز[1] فكان ذلك كله مما حفز المتكلمين للخوض في مبحث المجاز وهو عمود الدراسة البيانية ولعل كتاب ابن قتيبة (تأويل مشكل القرآن) خير شاهد على ذلك"[2] .

هذا وقد أثرت هذه المباحث الكلامية كذلك في الدراسة البيانية التي تمت حول القرآن أو حول قضية الإعجاز ، ولعل خير الأمثلة على ذلك كشاف الزمخشري والحواشي العديدة التي ألفت عليه ، وكان من أهم أهدافها الرد على الزمخشري في اعتزاله ، وقد رأينا من بين هذه الحواشي حاشية الطيبي ، وقد تتبع الطيبي فيها ألفاظ الزمخشري" وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة"[3] كما يقول ابن خلدون . هذا بالإضافة إلى أن مباحث البلاغة بصورتها التي قد استقرت عليها في عصر السكاكي ومن بعده كالقزويني والطيبي لم تكن إلا محصلة تلك الجهود السابقة في مختلف العصور. وقد أسهم هذا الاتجاه الكلامي بنصيب كبير في إرساء كثير من قواعد البلاغة وفي إثارة كثير من مباحثها وقضاياها ، فقد رأينا أئمة المعتزلة يشاركون في بحث أهم القضايا البلاغية التي شغلت كثيراً من دارسي البلاغة بعد ذلك .

---

(1) ابن تيمية ، الفتاوى ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ، ط١ ١٣٨٢ الجزء السابع، كتاب الإيمان ص٨٨ .

(2) د/شفيع السيد ، البحث البلاغي عند العرب ، تأصيل وتقييم ، ص٢١-٢٢ وانظر ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، تحقيق وشرح السيد أحمد صقر ، ط٢ ، دار التراث ، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ .

(3) مقدمة ابن خلدون ، ٢/٧٨٨-٧٨٩ .

كما وضع بشر بن المعتمر أساس التعريف البلاغي المشهور "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" الذي يعرفون به البلاغة .

وقد يخصون بهذا التعريف علما من علومها هو "علم المعاني" . والناظر إلى صحيفته تلك يجد أنها قد اشتملت على عدد من الأفكار والقضايا البلاغية والنقدية يحسن أن نعرض هنا لموجزها :

صحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ)

تعد صحيفة بشر من الأصول البلاغية المهمة التي أفاد منها الدارسون كثيراً فقد ألهمتهم كثيرا من الأفكار والقضايا وقد رواها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وإليك خلاصة ما تضمنته هذه الصحيفة من أفكار .

١-يوصي بشر في أول صحيفته الأديب أن يقبل على عمله في وقت نشاطه وعندما يكون مستعداً لهذا العمل فارغ البال مما سواه وألا يخوض في أدبه عندما يكون مجهداً متعباً .

٢-ينبغي للأديب سواء كان خطيباً أم كاتباً أم شاعراً أن يبتعد عن التعقيد وعن الألفاظ الغريبة الوعرة وأن يتخير الألفاظ الملائمة للمعنى الذي ينشده .

٣-المعنى الشريف الكريم يلائمه اللفظ الشريف فينبغي للأديب أن يصون معانيه وألفاظه عما يفسدهما ويهجنهما .

٤-ينبغي للأديب أن يلائم ويوازن ويراعي المقامات والأحوال ؛ مقامات الكلام وأقدار المعاني وأحوال المستمعين ، فإن كان من المتكلمين ويخاطب غيرهم تجنب ألفاظ المتكلمين ، وإن خاطب المتكلمين كان الأولى والأجدر استعمال ألفاظهم ومصطلحاتهم ،إذ هم على فهمها أقدر وإليها أميل وبها أشغف ، فعلى الأديب -إذا- أن يلائم بين الألفاظ والمعاني وأحوال المستمعين الذين يوجه إليهم الحديث .

٥-ثم يضع بشر الأديب في منزلة من منازل ثلاث :

<u>أولاها</u> : منزلة البليغ التام وهو الذي يقدر على أن يصوغ معانيه في ألفاظه رشيقة عذبة وسهلة فخمة، وأن تكون معانيه ظاهرة واضحة وقريبة معروفة ،وأن يمكنه

إفهام العامة معاني الخاصة بأن يكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فالمعنى لا يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، ولا يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال .

ثانيتها : منزلة من لا تسعفهم طبائعهم بالألفاظ والقوافي الجيدة المتمكنة بل يجدون في ذلك عسرا وصعوبة ، ومثل هؤلاء يحسن أن يتأنوا ، لأن طبائعهم لا تسمح لهم بالكلام الجيد لأول وهلة ؛ فعليهم أن يتركوا العمل إذا تأبى عليهم سواد الليل وبياض النهار ثم يعاودوه عند نشاطهم واستعدادهم واكتمال تهيئهم ، فإن كان لهم في الأدب طبيعة ومنزع فسيواتيهم عندئذ وإن لم يكن غزيرا .

ثالثتها : منزلة من شحت طبائعهم وقضبت ينابيع القول في نفوسهم ، فهم مهما تأنوا وتهيئوا ونشطوا وخلصوا أنفسهم من أي شاغل آخر ، لا يقعون من الأدب إلا على المستكره المرذول أو لعلهم لا يقعون على شيء منه أبدا ،وهؤلاء حرى بهم أن يهجروا صناعة الأدب إلى صناعة أخرى تشاكلهم وتناسبهم .

هذه القضايا التى اشتملت عليها صحيفة بشر كانت أساساً لكثير من القضايا البلاغية والنقدية التى شغلت بال النقاد والبلاغيين إلى وقتنا الحالي .

الجاحظ (ت٢٥٥هـ):

يعد الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر المعتزلي الكبير صاحب اللبنة الأولى للبيان العربي بكتابه الموسوعي العظيم (البيان والتبيين) ولا غرو إذ وصفه د/طه حسين وغيره من الباحثين والنقاد بأنه مؤسس هذا البيان لا لأنه "وصل بجهده الخاص إلى قاعدة بيانية بعينها ،"وإنما" لأنه جمع طائفة من النصوص توضح لنا توضيحاً حسناً كيف كان العرب يتصورون البيان العربي في القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي[1] .

---

[1] د/شفيع ، السابق ، ص٦٤ ، مقدمة كتاب نقد النثر ، د/ طه حسين ط . المكتبة العلمية ببيروت ، ص٣ ، د/محمد عبد المنعم خفاجي ، الإيضاح ص٢٤-٦١ ، د/شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص٥٧-٥٨ . د/بدوي طبانة ، البيان العربي ، ص٤٩-٥٠ .

ولقد تحدث الجاحظ في كتبه عن كثير من القضايا البلاغية والنقدية التي تداولها البلاغيون والنقاد من بعده .

فمن ذلك ما عرف في تراثنا النقدى باسم قضية اللفظ والمعنى حيث ذهب فريق من النقاد إلى أن قيمة الأدب ترجع إلى جمال ألفاظه الموجودة في صياغته ؛ وبراعة الأديب فيما يضيفه عليه من تحسين وتزيين .

وذهبت طائفة إلى أن قيمة الأدب ترجع إلى معانيه ، وما يشتمل عليه من بديع الحكم ، ولطائف الكلم ، وشرف المعنى وغير ذلك .

وكان مذهب الجاحظ أن قيمة الأدب ترجع إلى إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وإلى صحة الطبع وجودة السبك ، لأن الأدب أو الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير . أما المعاني فإنها - في نظره - مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي ، والبدوي والقروي .

"وهذا الرأي يدل على مذهب من المذاهب ، كان الجاحظ أول من نادى به في نقد الأدب العربي ، وهو مذهب الصناعة ، والافتنان في الصياغة فالنظرة إلى الأدب ينبغي أن تكون إلى مقدار ما حوى من آثار الصنعة من جودة التشبيه ، وحسن الاستعارة ، وابتكار الصورة التي يتميز صاحبها على غيره من الأدباء بمقدار ما تأنق فيها ، وبمقدار ما غالى في إبراز الفكرة على هيئة غير ما عرف الناس .

وهو يبني رأيه في تصنيع الأدب على أن للصنعة أثرها البعيد في خلود الأدب ، وفي سهولة حفظه وجريانه على ألسنة الناس والرواة جيلا بعد جيل ، ولولاها لاندثر كما يندثر سائر الكلام المنثور ، ولم يحفظ ويؤثر إلا ما كساه التصنيع .

ويرى الجاحظ مصداق ذلك أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشيّ: لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا أؤمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب

والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت[1] . وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الوزن ، فلم يحفظ من المنثور عشره الموزون ، ولا ضاع من الموزون عشره .

ثم هو يرى أن المعاني إذا كسيت الألفاظ الجيدة زادت على حقيقة قدرها ، ويؤيد ذلك بما نسبه إلى بعض أهل المعرفة من البلغاء "أنذركم حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلا ، ومنحه المتكلم دلا متعشقا ، صار في قلبك أحلى ، ولصدرك أملا ، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وأكسبت الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينت ، وحسب ما زخرفت ، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجوارى[2] .

وقد عالج الجاحظ في كتابه بعض وسائل هذا التصنيع فذكر "البديع" وذهب إلى أنه مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان، كما أشاد بأصحاب البديع من الشعراء : فالراعى كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، وليس في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة ، والعتابي يذهب شعره في البديع ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين ، كمنصور النمرى ومسلم بن الوليد وأشباههما[3] . وذكر "السجع" في أكثر من موضع من البيان ، وأطال في سرد كثير من النصوص المسجوعة والمزدوجة مما أثر عن أمراء البيان[4] ، وخصص باباً للمزدوج من الكلام"[5] مثل فيه بقول النبي ﷺ في معاوية : "اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب" وقول رجل في تعزية : إنه فرط افترطته ، وخير قدمته ، وذخر أحرزته . وإجابة المعزى : ولد دفنته وثكل

(1) البيان والتبيين : ج١ س٢٨٧ .

(2) البيان والتبيين : ١/٢٥٤ .

(3) البيان والتبيين : ج١ص٥١ وج٢ س ٦٥ وج٤ س٥٥ ، ٥٦ .

(4) البيان والتبيين : ج١ ص٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٤٠٨ وج٣ ص٦ .

(5) البيان والتبيين : ج٢/١١٧ ص١١٦ .

تعجلته، وغيب وعدته ، وكان مالك بن الأخطل سمع شعر جرير والفرزدق ، فقيل : جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر ، فأيهما أشعر ؟ فقال : الذي يغرف من بحر أشعرهما" .

وتكلم في "الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالشعر"[١] ، وفي "الألفاظ الغريبة والحوشية[٢] "وفي "الإيجاز" الذي هو كالوحي وكالإشارة و"الإطناب"[٣] و"مراعاة الحالة النفسية للسامعين"[٤] ، و"جودة الابتداء المقطع"[٥] ، و"الإلغاز"[٦] أورد قول النمر بن تولب :

أعاذلَ إنْ يصبحْ صَداي بقَفْرَة   بعيداً نآني صاحِبي وقَريبي
تَرَىْ أنَّ ما أبقيتُ لم أكُ ربَّه   وأن الذى أمضيتُ كانَ نَصيبي

وقال فيه : الصدى هنا "مستعار" أي إن أصبحت أنا[٧] وفي قول الشاعر :

طفقت سحابةٌ تغشاها   تبكي على عراصها عَيْناها

جعل المطر بكاء من السحاب على طريق "الاستعارة" وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[٨] وقال الله عز وجل : ﴿**هذا نُزلهم يومَ الدين**﴾ والعذاب لا يكون نُزلا ، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم ، سمى باسمه ، وقال الشاعر:

فقلتُ أطعمني عُميرُ تمراً   فكان تمرى كهرةً وزبْرا

والتمر لا يكون كهرة ولا زبراً ، ولكنه على ذاك[٩] . وفيما سماه البلاغيون بعده "التوشيح" ، أو الإرصاد أو التسهيم" ، وما يشبه "رد أعجاز الكلام على ما

---

(١) البيان والتبيين : ج١ ص١١٨ وج٢ ص٦ ، وج١ ص١١٨ .

(٢) البيان والتبيين : ج١ ص١٤٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨ ، وج٢ ص٢٧٠ .

(٣) البيان والتبيين : ج١ ص١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٧٦ وج٢ ص٢٧٨ ، ٢٨١ .

(٤) البيان والتبيين : ج١ ص١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) البيان والتبيين : ج١ ص١١٢ .

(٦) البيان والتبيين : ج٢ ص١٤٧ .

(٧) البيان والتبيين : ج١ ص٢٨٤ .

(٨) البيان والتبيين : ج١ ص١٥٣ .

(٩) البيان والتبيين : ج١ ص١٥٣ والكهرة : الانتهار ، والزبر : الزجر والمنع .

تقدمها" عند ابن المعتز يقول الجاحظ : وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته .. ولكل فن صدر يدل على عجزه[1] ، وذكر "الكناية والتعريض" ، وأورد قول شريح : "الحدة كناية عن الجهل : "وقول أبي عبيدة : العارضة كناية عن البذاء . وإذا قالوا : فلان مقتصد ، فتلك كناية عن البخل وإذا قيل للعامل "مُستقص" فذلك كناية عن الجور .

ورأى أن "الكناية والتعريض" لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف[2] ، و"ألفاظ المتكلمين" التي تحسن في مثل شعر أبي نواس وفي كل ما قالوه على وجه التظرف والتملح[3] ، و"الهزل يدخل في باب الجدّ"[4] ، وأشار إلى "التقسيم والتفصيل"[5] حين أورد قول الشاعر :

المرءُ ساعٍ لشيءٍ ليس يُدركُهُ والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

قال : وقد كرر عمر الشطر الثاني متعجباً من حسن ما قسم وما فصل . ودرس "الاحتراس" بالتمثيل ، واستشهد له ببيت طرفة الذي يستشهد به البلاغيون :

فسقَى ديارَكِ غيرَ مُفْسِدِها صوبُ الربيعِ وِديمةٌ تَهْمِي

قال : إنه طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار ، وقال النبي ﷺ في دعائه : "اللهم اسقنا سقيا نافعا" لأن المطر ربما جاء في غير إبان الزراعات ، وربما جاء والتمر في الجرن والطعام في البيادر ، وربما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة[6] .

وبهذا الأسلوب ونحوه عرض الجاحظ بعض المصطلحات البلاغية ، سواء ما اهتدى إليه منها بفهمه وتقديره ، وما نقله عن غيره من العلماء والرواة .

---

[1] البيان والتبيين : ج١ ص١١٦ .

[2] البيان والتبيين : ج١ ص١١٧ ، ٢٦٣ .

[3] البيان والتبيين : ج١ ص١٣٩-١٤١ .

[4] البيان والتبيين : ج١ ص٩٣ .

[5] البيان والتبيين : ج١ ص٢٤١ .

[6] البيان والتبيين : ج١ ص٢٨٨ .

ونلاحظ أن الجاحظ قد عرض لهذه المصطلحات في دلالتها اللغوية والأدبية وهما دلالتان يجيدهما الجاحظ بثقافته ومعرفته ، وبذوقه وحسه الفني . وعلى الرغم من أن الجاحظ ، قد عنى بوضع حدود البلاغة كما تصورها ، وكما نقل عن العلماء من العرب والأعاجم ، حتى تستبين أمام الدارس معالمها ، فإنه لم يعرض هذه المصطلحات عرضاً علمياً منظماً يلمح فيه الحد والحصر واستيفاء الأقسام ، ولكنه عرضها عرضاً أدبياً كما قدمنا ، ومثل لها بأمثلة من الروائع الأدبية التى تهيأت له نظماً ونثراً مما يدل عليها .

ومن الإنصاف أن نقرر أنه لم يكن من المتوقع أن يفعل الجاحظ أكثر من هذا الذي عمل ، إذا قدرنا أن هذا الموضوع يكتب فيه الجاحظ للمرة الأولى بحثاً مستحدثاً، تراه أشبه بالنظرات أو اللمحات منه بمحاولة تحديد المصطلح العلمي وتجريده ، وهى لمحات شتى تناولت كما رأينا الأدب من نواحيه المختلفة ، كما تناولت الأديب وعوامل نجاحه وإخفاقه ، كما تناولت دفاعاً حاراً عن العرب وبيانهم .

ويلاحظ بعد ذلك أن هذه الفنون البلاغية التى ذكرناها ، أو التي فاتتنا الإشارة إلى بعضها ، لا تختص بالبيان وحده كما حدَّد مباحثه البلاغيون فيما بعد ، وإنما فيها من مباحث علومها الثلاثة "البيان والمعاني والبديع" وهكذا كان اسم "البيان" شاملاً لفنونها المختلفة ، لتعلقها جميعاً بالبيان ، الذي هو المنطق الفصيح ، المعرب عما في الضمير[1] .

ونستطيع أن نقول إن أهمية ما كتبه الجاحظ لاسيما في كتابه (البيان والتبيين) أنه يعد بمثابة الأصول الأولى أو الروافد التراثية لقضايا البلاغة والنقد الأدبي التي أثيرت بعده .

فقد عرض الجاحظ لملاءمة اللفظ للمعنى ، وملائمة الكلام للمقام ولأحوال المستمعين وقد مرت بنا صحيفة بشر التى ذكرها ، كما عرض الجاحظ وأشار للنظم

[1] انظر البيان العربي د/بدوي طبانة – ص٧٣-٧٤ ط ٣ مكتبة الإنجلو ..

إلى كتاب له في "نظم القرآن" ولكنه لم يصل إلينا[١] . وقد أرجع الجاحظ إعجاز القرآن الكريم إلى نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد[٢] ويعد من أخطر القضايا النقدية والبلاغية التي أثارها الجاحظ وأثرت في مسيرة البلاغة العربية تأثيراً كبيراً قضية اللفظ والمعنى والمفاضلة بينهما .

وقد تصور كثير من الباحثين خطأ أن الجاحظ يقدم اللفظ على المعنى مستندين إلى عبارته : "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير..."[٣] وحينما نتأمل هذه العبارة لا نجد تقديما للفظ على المعنى وإنما نجد أن المقدم هو النظم : أي اللفظ المسبوك الموزون ، المصاغ شعرا يصور به المعنى . أما اللفظ المجرد الذي لم يوضع في نظم فلا مزية له ، ويقوى هذا قول الجاحظ في موضع آخر : "ثم اعلم – حفظك الله – أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية ؛ وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"[٤] فهو هنا يقدم المعاني لأنها مبسوطة ممتدة ويؤخر الألفاظ لأنها معدودة محدودة ولكن المعاني المقدمة هنا ؟ هي المعاني المركبة ، أي إنها هي الصياغة والتصوير والسبك ، وليس المراد بها المعاني المجردة واللفظ المؤخر هنا هو اللفظ المجرد ، لأنه هو المحدود المعدود أما الألفاظ المنظومة المركبة فهي ممتدة لا نهاية لها فالمزية إذا مرجعها عند الجاحظ إلى النظم . ونستطيع أن نقول إن الجاحظ يفرق هنا بين مستويين من المعنى :

المعنى الأول : هو ما يمكن أن نعبر عنه بأصل المعنى أو المعنى المجرد ، وهو ما يرادف الفكر ، والخواطر الإنسانية التي يشترك فيها الناس جميعاً كاستحسان الصدق

---

[١] حاول الزميل د/ سعد عبد العظيم جمع ما يوجد منه مما تفرق في كتبه في كتاب مستقل له ط مكتبة الزهراء .

[٢] الحيوان ٤/٩٤ .

[٣] الحيوان ٣/١٣١ .

[٤] البيان والتبيين ١/٧٦ .

واستقباح الكذب، والفرح بالنور، والنفور من الظلمة، وغير ذلك ، فهذه المعاني والأفكار كلها يعرفها العربي والعجمي .. إلخ . وهي من حيث كونها أفكاراً مجردة فهى مطروحة في الطريق ، وليس الشأن فيها وإنما الشأن في جمال النظم وروعته ، وهو المستوى الثاني من المعنى ، وهو ما يمكن التعبير عنه بالمعنى ، أو النظم ، أو الصياغة أو جودة السبك .. إلخ ما عبر به الجاحظ في كلامه .

هذه هي أهم القضايا البلاغية التي عرض لها الجاحظ ولعلنا سوف نتبين أنها أصبحت بعد ذلك عمود البلاغة العربية في دراسات المتأخرين بعده .

خامساً : طائفة المفسرين :

لعل من أعظم الطوائف منة وفضلاً على البلاغة العربية هي طائفة المفسرين ، وقد كان لهم تأثير كبير في نشأة البحث البلاغي وتطوره .

فمن هؤلاء المفسرين اللغويين في هذا العصر :

الفراء (ت٢٠٧هـ) تحدث الفراء في كتابه "معاني القرآن" عن مسائل بلاغية مختلفة ، كالتقديم والتأخير والإيجاز والإطناب والمعاني التى تفيدها بعض الأدوات كأدوات الاستفهام والتشبيه والاستعارة والكناية ، وهي إشارات موجزة يقف عليها الناظر في كتابه "معاني القرآن" . فنراه مثلا يشير إلى الكناية في الآية الكريمة : **﴿ولكن لا تواعدوهن سراً﴾**[البقرة : ٢٣٥] فيقول : "السر في هذا الموضع : النكاح، ثم يرويه عن ابن عباس – رضي الله عنه – وينشد لامرىء القيس :

ألا زعَمَتْ بسباسةُ اليومَ أنَّني كَبرتُ وألا يشهدَ السِّرَّ أمثالِي[1]

ويتحدث عن الاستعارة في قوله تعالى : **﴿وإنهما لبإمام مبين﴾**[الحجر : ٧٩] فيقول : "بطريق لهم يمرون عليها في أسفارهم فجعل الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع"[2] .

---

[1] معاني القرآن ١/١٥٣ .

[2] معاني القرآن ٢/٩١ .

ويتحدث عن إفادة الاستفهام لغير طلب الفهم في الآية الكريمة : ﴿كَيْفَ تكْفرون بالله وكنتم أمْوَاتًا فأحْياكمْ﴾[البقرة : ٢٨] . فيقول : "وقوله : "كيف تكفرون".. على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض أي : ويحكم كيف تكفرون؟"[١] .

وهذه إشارة دقيقة لو تنبه لها البلاغيون المتأخرون ما تعبوا وأتعبوا ، فقد قالوا : إن إفادة الاستفهام لمعانيه البلاغية عن طريق المجاز ، ثم راحوا يلتمسون العلاقات بين طلب الفهم وبين المعاني البلاغية كالإنكار والتعجب والتهكم والوعيد والتقرير . وقد تعبوا كثيراً في الوصول إلى علاقات مناسبة لا تسمن ولا تغني ، ولا تفيد الدارس شيئاً، وكانوا في غنى عن هذا التعب لو أنهم تنبهوا لإشارة الفراء إلى أن تلك المعاني دخلت الاستفهام وشابته فأفادها بالإضافة إلى إفادة طلب الفهم ، وصار بإفادته إياها استفهاماً غير محض[٢] .

أبو عبيدة (ت٢٠٨هـ) ألف أبو عبيدة كتابه "مجاز القرآن" بسبب مسألة تتعلق بالتشبيه إذ سأله سائل في مجلس الفضل بن الربيع عن التشبيه في قوله تعالى : ﴿طَلْعها كأنه رءوس الشياطين﴾[الصافات : ٦٥] ، فقال : إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف ، فأجاب أبو عبيدة ، إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتُلُني والمشرفيُّ مُضاجِعي ... ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به[٣] ، والمجاز عند أبي عبيدة لا يراد به المجاز الاصطلاحي المقابل للحقيقة ، وإنما يراد به المعنى اللغوي لكلمة "مجاز" فهي مصدر ميمي أو اسم من جاز يقال : جاز الطريق وجاز

(١) معاني القرآن ٢٣/١ .

(٢) د/ بسيوني عبد الفتاح ، علم البديع ص٢٣ .

(٣) نزهة الأدباء ٧٠ .

مجازا إذا عبر . فالمراد إذا بمجاز القرآن : التفسير وبيان الطرق التي يسلكها القرآن في التعبير عن المعاني أو قل إن المراد بالمجاز عنده : هو ما تؤول إليه الألفاظ من المعاني وهذا وإن لم يكن هو المجاز الاصطلاحي فإنه يدخل فيه كثير من صور هذا المجاز . وقد أشار أبو عبيدة إلى هذا المراد حيث يقول في الآية الكريمة : ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه**﴾[القيامة : ١٧] : مجازه تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال :﴿**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾ : مجازه فإذا ألفنا منه شيئا فضممناه إليك فخذ به واعمل به وضمه إليك"[١] . وفي أثناء تفسيره للآيات الكريمة تحدث عما فيها من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار ، كما أشار إلى الصورة العامة للالتفات وإن لم يسمعه بهذه التسمية إذ يقول : "ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى :﴿**حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم**﴾[يونس : ٢٢]. أي : بكم"[٢].

كل هذا يدلنا على أن كلمة المجاز لديه وإن لم تكن مساوية للمعنى الاصطلاحي فإنها أوسع منه بحيث تشمله وغيره .

إذا كانت الطوائف السابقة لاسيما طائفة المتكلمين قد وضعوا أسس البلاغة النظرية ، فإننا نستطيع أن نقرر أن المفسرين هم الذين وضعوا أسس البلاغة التطبيقية ، من خلال التطبيق على أرفع وأسمى نموذج لغوى ألا وهو القرآن الكريم .

ونستطيع هنا أن نقرر أنه إذا كان لنا أن نفاضل بين الاتجاهين النظري والتطبيقي، فإننا نقرر مطمئنين أن الاتجاه التطبيقي في الدرس البلاغي كان أجدى وأنفع وأثمر للبلاغة من الدرس النظري لأمور كثيرة :

أولها : الاقتراب من النصوص ؛ مما يساعد على التوصل إلى نتائج يؤيدها الواقع اللغوي .

---

[١] مجاز القرآن : ١١ .

[٢] مجاز القرآن : ١١ .

ثانياً : الابتعاد عن كثرة التقسيمات والتفريعات التي تولدت نتيجة القسمة المنطقية العقلية التي لا يؤيدها الواقع اللغوي .

ثالثاً : روعة التحليل ، وجمال التعبير ، وأدبية المعالجة وذلك بطبيعة المنهج التحليلي للنصوص .

رابعاً : الارتباط بالنص الخالد الذي لا يغير ولا يبدل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن ثم فإن البلاغة المرتبطة بالقرآن الكريم سوف تبقي ببقائه إلى آخر الدهر .

خامساً : الثراء الدلالي والفني والمضي قدماً إلى ما لا نهاية في مجال استنباط المعاني الفنية ، والوقوف على روعة التصوير ، والتزيين فيما اشتمل عليه الكتاب العزيز من فنون بيانية وبديعية عديدة .

سادساً : تحقيق التكامل والتفاعل بين علوم اللغة كافة في تحليل النصوص والوقوف على دلالاتها. ونستطيع أن نعد في المقابل مثالب البلاغة النظرية متمثلة في :

١-الابتعاد عن النصوص ، ومن ثم عدم التوصل إلى نتائج صحيحة .

٢-التورط في القسمة المنطقية والافتراضات العقلية البعيدة عن الواقع اللغوي .

٣-اقتضاب التحليل ، وجفاف التعبير ، وصعوبة المعالجة وذلك بطبيعة المنهج التقعيدي .

٤-الوصول إلى طريق مسدود ، وغاية محدودة ، وذلك لأن القسمة المنطقية محدودة ، للأبواب والمسائل والقضايا ، وهذا هو الواقع المشاهد إذ وقفت البلاغة العربية عندما انتهى إليه السكاكي بعقليته المنطقية الفذة في حصر أبواب البلاغة العربية ومسائلها فلم يستطع أحد من الباحثين بعده أن يزيد على ما أجمله السكاكي شيئاً ذا بال .

٥-الفصل بين البلاغة وغيرها من علوم العربية في حين أنها لا تتوصل إلى نتائجها مستقلة عن العلوم الأخرى التي هي بمثابة الأدوات المعينة لها .

٦-عدم مواكبة الأساليب العصرية المستحدثة ، ومن ثم تتلاشى الطريقة

التقعيدية القديمة ، أو يتم استحداث قواعد بلاغية جديدة تتناسب مع اللغة العصرية الجديدة ، وهذا هو ما جعل الأصوات ترتفع لتنادى ببلاغة عصرية جديدة تواكب العصر ، بعدما استقصى على هؤلاء الباحثين معالجة وتحليل النصوص الأدبية المعاصرة بتلك القواعد البلاغية القديمة البالية في نظرهم .

وسوف نعود لهذه النقطة في نهاية البحث ؛ لنسجل فيها تصورنا للمخرج من هذه الأزمة المعاصرة .

ونستطيع أن نقرر هنا على سبيل الإيجاز أن المخرج إنما يتمثل في العودة إلى البلاغة السائدة في النص المدروس بحيث لا تفرض عليه قواعد خارجة عنه .

فإذا كنا نؤمن باختلاف الأذواق اللغوية باختلاف البيئات والعصور ، ونؤمن بأن التطور الواقع في المجتمع في مختلف مناحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك لابد أن يؤثر على الواقع اللغوي ويؤدي إلى تطوره ، كما وقفنا على شيء من ذلك عند الحديث عن نشأة البلاغة في العصر العباسي ، وأثر الطفرة الحضارية التي حدثت في هذا العصر على الواقع اللغوي .

فأقول : إذا كنا نؤمن بوقوع ذلك التطور اللغوي فإن محاولة فرض مجموعة من القواعد الفنية التي أوحى بها الذوق في عصر بعينه في بيئة بعينها على الواقع اللغوي في سائر العصور والبيئات بعده ، أقول : إن هذه المحاولة لا تعدو أن تكون نوعاً من العبث تثير سخرية الناس واستهزائهم بتلك القواعد والتنكر لها ، واتهامها بالفساد والبطلان حتى في واقعها اللغوي السابق ، وهذا فيه ظلم لتلك القواعد ، بقدر ما فيه من ظلم للواقع الجديد الذي نحاول فرضها عليه .

ونرجئ الحديث عن هذه القضية إلى حينها لنرجع إلى ما نحن بصدده ، وهو تقرير الأفضلية لطائفة المفسرين بطريقتهم التطبيقية التحليلية في الدرس البلاغي خاصة ، والدرس اللغوي بعامة .

أحوجنا إلى الإطالة في هذه النقطة ما رأيته من تهوين طائفة من الباحثين لتأثير ذلك العامل المهم في نشأة البلاغة ألا وهو جهود طائفة المفسرين .

وهؤلاء الباحثون جميعاً لا ينكرون صلة البلاغة بالتفسير ولا جهود المفسرين وتأثيرها في تطور البلاغة في مراحلها التالية ، ولكنهم يهونون من دور هؤلاء المفسرين في مرحلة النشأة وحدها .

وفي هذا الصدد يقول أستاذنا الجليل أ .د / علي عشري : "أما علم التفسير فقد كانت صلته بالبلاغة أسبق من صلة علم الكلام بها ، وإن كان تأثيره على نشأة البلاغة وتطورها لم يكن في قوة تأثير علم الكلام ، على الرغم من أن صلة علم التفسير بالبلاغة أكثر منطقية - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - من صلة علم الكلام بها .

ورغم أنه يقرر أن صلة البلاغة قد بدأت بعلم التفسير منذ نشأة المحاولات الأولى لعلم التفسير ، فقد كانت هذه المحاولات هي أول مؤلفات اشتملت على ملاحظات بلاغية ذات شأن ، فكتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠هـ) وهو من المحاولات الأولى في مجال تفسير القرآن معدود من المؤلفات الأولى التي حوت بعض الآراء والأفكار البلاغية ذات القيمة .

ويأخذنا العجب من إقرار أستاذنا بقيمة تلك الملاحظات البلاغية ووصفه لها بأنها ذات شأن ، وأن كتاب أبي عبيدة يعد أول كتاب في علم البلاغة ، ثم إذا هو يهون من شأن تلك الجهود في نشأة البلاغة ، ويقدم عليها جهود المتكلمين في ذلك العصر .

وكما سبق أن قلت : إننا إذا اعتبرنا جهود المتكلمين في هذا العصر أمثال بشر ابن المعتمر والجاحظ وغيرهما هي النواة الأولى للدرس النظري لعلوم البلاغة ؛ فإننا نقرر أن ما كتبه الفراء والأخفش وأبو عبيدة وغيرهم حول القرآن في هذه المرحلة يعد هو الأساس الأول للدراسات البلاغية التطبيقية التي نرى أنها هي المنهج الذي سيكتب له الخلود ، بخلود النص القرآني الذي قد اقترن به .

سمات التدوين البلاغي في هذه المرحلة

يمكننا أن نجمل سمات التدوين البلاغي في هذه المرحلة في النقاط الآتية :

١-عدم التبويب .

٢-اضطراب مدلولات المصطلحات .

٣-اختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى .

٤-عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة بعضها عن بعض .

ويرى باحث كبير أن هذه السمات كلها يمكن أن تندرج تحت عنوان أساسي واحد هو (غياب المنهج العلمي)[1]

وبالنسبة للسمة الأولى وهي :

١-عدم التبويب : فإننا نتفق مع ما قرره أستاذنا / على عشري في ذلك حيث يؤكد أن المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة لم تعرف التبويب العلمي الدقيق الذي هو أبرز خصائص المنهج العلمي ، وإنما كان طابعها الخلط والاستطراد الذي يخرج بالقارئ عن الخط الأساسي الذي يعالجه المؤلف إلى موضوعات وقضايا فرعية أخري لا تمت إلى الموضوع المطروح بكبير صلة ، ويضل القارئ وسط هذه الاستطرادات الكثيرة العثور على الخيط الأساسي في فكرة المؤلف .

إلى جانب هذا الاستطراد والخروج عن الموضوع الأصلي كان المؤلف يبعثر الحديث عن القضية الواحدة أو الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب مما يجهد القارئ في لم شتات تلك الفكرة وجمع أجزائها المتناثرة . كما كان المؤلف أحياناً يكرر الفكرة الواحدة في أكثر من موضع من مواضع الكتاب بدون مبرر منهجي واضح .

وأخيراً لم يكن هناك ترابط علمي بين فصول تلك الكتب وأبوابها ، مما يفقدها وحدها العلمية .

---

[1] انظر د / علي عشري زايد ، البلاغة العربية ص٣٥ .

وقد كانت ظاهرة عدم التبويب العلمي بصورها المتعددة تلك شركة بين مؤلفات تلك المرحلة ، لم يكد يخلو منها كتاب ، ولكنها كانت أكثر بروزا في مؤلفات الجاحظ . حتى لتكاد هذه المؤلفات تكون عنواناً صارخاً على تلك الظاهرة ، فعلى الرغم من أن كتابيه الكبيرين "البيان والتبيين" و "الحيوان" من أهم المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة - بل لعلهما أهمها على الإطلاق - فإن افتقار الكتابين إلى التبويب العلمي الدقيق يجعل الإفادة الكاملة منهما على قدر كبير من الصعوبة والعسر ، ويقتضي قارئهما بذل الكثير من الجهد في سبيل استخلاص آراء الجاحظ المبعثرة بدون تنسيق خلال الكتابين إذ "إن من يحاول الاهتداء إلى آراء الجاحظ من كتبه ، عليه أن يستوعب تلك الكتب من أولها إلى آخرها وسيجد حتماً كثيراً من العنت حتى يوفق إلى ما يريد ويستطيع أن يجمع تلك الأفكار المشتتة ، ويضم الإلف منها إلى إلفه حتى تتضح له الفكرة المبثوثة في مواضع متفرقة ، وحينئذ وبعد هذا العناء يستطيع أن يقف على الجاحظ ، وأن يحكم على أفكاره ، وأن يحلها ما هي جديرة به من المنازل"[١] .

ولقد فطن العلماء منذ وقت مبكر إلى تفشى هذه الظاهرة في كتابات الجاحظ، حتى أولئك الذين لم تنج كتبهم منها ، وإن لم يكن بمثل وضوحها في كتب الجاحظ ، مثل أبي هلال العسكري الذي أشار في مقدمة "الصناعتين" إلى أن وجود هذه الظاهرة في "البيان والتبيين" كان من بين الأسباب التي دفعته إلى تأليف كتابه ؛ فمع أن كتاب "البيان والتبيين" في رأيه كتاب كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة .. إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل . والتصفح الكثير"[٢] .

---

[١] د . بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب العربي . الطبعة الخامسة مكتبة الانجلو المصرية : ص١٨٠ .

[٢] أبو هلال العسكري : "الصناعتين" تحقيق الأستاذين على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ، الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٧١ : ص١١ .

بل إن الجاحظ نفسه أدرك هذه الظاهرة في تآليفه ، وحاول أن يدافع عنها في كتابه "الحيوان" بأنه "لما قال الخليل بن أحمد لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه .

قال أبو شمر :إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار مالا يحتاج إليه يحتاج إليه ، وذلك مثل كتابنا هذا ؛ لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على الحق ، وصعوبة الجد ، وثقل المئونة ، وحيلة الوقار لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق ثمرته" ... إلخ[1] .

على أن هذا التبرير يحمل من روح الدعابة والسخرية التي جبل عليها الجاحظ أكثر مما يحمل من الموضوعية والقدرة على الإقناع . ولعل التبرير الأكثر إقناعاً يكمن في طبيعة الجاحظ الموسوعية حيث كان رجلاً متعدد الثقافات والمعارف والاهتمامات العلمية ، فكانت موسوعيته تغلبه فلا يستطيع لها كبحاً . هذا بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من طبيعة العصر ذاته من حيث المستوى العلمي ، إذ أن معظم العلوم العربية الإسلامية كانت ما تزال تخطو خطواتها الأولى تتلمس طريقها نحو النضج والتبلور ، فكان طبيعيا أن تكون المحاولات الأولى على هذا النحو من الاختلاط وعدم التحدد .

وإذا كانت كتب الجاحظ هي العنوان البارز على تلك السمة من سمات غياب المنهج العلمي فإنها لم تنفرد بها ، وإنما أخذت كل مؤلفات المرحلة بحظها منها ، وإن تفاوتت تلك الحظوظ[2] .

ونحن مع موافقتنا التامة لرأي أستاذنا في هذا النقطة ، فإننا نقرر هنا أن هذه الطريقة التي اتبعت في التأليف في هذا العصر لم يكن في الإمكان أبدع منها وقتئذ إذ إن طبيعة العصر تحتمها ، وهكذا يكون الأمر بالنسبة لمن يغامر ويخاطر في التصنيف في أي

---

(1) الجاحظ : "الحيوان" تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون : مطبعة الحلبي ١٩٣٨ م : ١/٢٧ ، ٣٨ ، وانظر د بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب العربي : ص١٨٢ .

(2) د/علي عشري للبلاغة العربية ص٣٨ .

علم أو موضوع لم يسبق إليه ، فإنه لا يكون لديه إلا خواطر وفكر يبثها كلما سنحت له ، ولعل هذا قد نشأ من عدم فصلهم بين البلاغة وأخواتها من علوم العربية آنـــذاك ، وهذا في حد ذاته محمود لدينا ؛ وذلك لأن بداية نضوب البحث البلاغـــي وجفافـــه وانقطاعه إنما حدثت منذ استقل البحث البلاغي عما سواه من علوم العربية .

٢-اضطراب مدلول المصطلحات :

ترددت في كتب المؤلفين في تلك المرحلة عدد كبير من المصطلحات البلاغية التي اعتمدها البلاغيون من بعدهم ، من هذه المصطلحات : (البلاغة) و(الفصاحة) و(البيان) و(البديع) و(المجاز) و(الكناية) و(التشبيه) و(الاستعارة) و(الإيجاز) و(الإطناب).

ويرى د/ عشري أنهم لم يكونوا يستخدمون تلك المصطلحات بمدلولات علمية خاصة ، على نحو ما تحدد لها فيما بعد من مدلولات ، وإنما كانت تدور في مؤلفاتهم بمدلولات عامة أقرب ما تكون إلى دلالتها اللغوية الوضعية، أي أن هذه الكلمات كانت بالنسبة لهم مفردات لغوية عادية أكثر منها مصطلحات بلاغية ذات مدلول علمي محدد ، وإن كان بعضهم قد حاول أن يضفي على بعض هذه الكلمات نوعا من الدلالة الخاصة ، التي تبتعد به قليلا عن دلالته اللغوية ، غير أن هذه المحاولات كانت جهودا فردية لم يقدر لها أن تنال حظا من الاتفاق والذيوع يرقى بها إلى مستوى المصطلح العلمي ، وعلى هذا فقد ظلت هذه المصطلحات في تلك المرحلة مضطربة الدلالة ، يختلف مدلولها ما بين مؤلف وآخر ، بل يختلف لدى المؤلف الواحد وفي الكتاب الواحد ما بين موضع وآخر .

ومن الملاحظ أن مدلولات المصطلحات العامة الأساسية في العلم كمصطلح "البلاغة" ذاته الذي أصبح فيما بعد عنواناً على العلم كله - ومصطلحي "البيان" و"البديع" اللذين أصبحا بدورهما عنوانين على فرعين من فروعه الثلاثة الأساسية - كانت أكثر اضطراباً وعمومية من المصطلحات الجزئية ، كمصطلحات "التشبيه" و"الإيجاز" و"الإطناب" مثلاً ، فهذه الأخيرة كانت تستعمل في مدلولات شديدة القرب من مدلولاتها البلاغية التي تحددت لها فيما بعد ، وإن لم تكن هي نفس هذه المدلولات بالتحديد . أما المصطلحات الثلاثة الأولى ، ويمكن أن نضيف إليها مصطلح "المجاز" فقد كانت على قدر كبير من العمومية والاضطراب ، وقد رأينا منذ قليل اضطراب مدلول مصطلح "المجاز" عند أبي عبيدة ، على الرغم من أنه كان عنواناً لكتابه .

أما مصطلح "البلاغة" فقد أورد له الجاحظ عدداً من المدلـــولات المختلفـــة ، كلها بعيدة عن مدلوله الذي استقر له فيما بعد .

و لم يكن مصطلح "البيان" بأسعد حظا من زميله "البلاغة" من حيث اضطراب مفهومه وعدم تحدده ، على الرغم من أن الجاحظ قد جعله عنواناً على كتابه الشـــهير "البيان والتبيين" .والبيان في عنوان الكتاب وفي الفصل الذي عقده الجاحظ في الكتـــاب تحت عنوان "البيان" ليس مقصوداً به المدلول البلاغي الدقيق للمصطلـــح أي "معرفـــة كيفية إبراز المعنى الواحد في صور متفاوتة المعنى في وضوح الدلالة على هذا المعــــنى ، وإنما مقصود به معناه اللغوى الشامل أي ما يرادف الوضوح والظهور والكشف ، وهو بهذا المعنى أعم من مصطلح "البلاغة" ذاته ، الذي أصبح "البيان" بمدلوله البلاغي فرعـــاً من فروعه فيما بعد ، وهو أعم من هذا المصطلح حتى بدلالته اللغويـــة العامـــة الـــتى استعمله بها الجاحظ ، لأن البلاغة حتى بهذا المفهوم الواسع عند الجاحظ محصــــورة في إطار الكلام البليغ ، أما البيان فهو عنده "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر والغايـــة الـــتى يجرى إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحـــت عن المعنى . فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[1] .

ويحدد الجاحظ أنواع الدلالة الموصلة إلى البيان والكشف ويحصرها في خمســـة أشياء :

(١) اللفظ .

(٢) الإشارة .

(٣) العقد .

(٤) الخط .

---

[1] البيان والتبيين : ٧٦/١ .

(٥) دلالة الحال (النصبة)[١] .

وواضح من هذا التقسيم أن مفهوم البيان عند الجاحظ أوسع كثيراً من مفهومه البلاغي الدقيق المحصور في إطار فرع من فروع البلاغة الثلاثة ، بل أوسع حتى من الكلام بليغاً كان أو غير بليغ ، إذ إن نوعين فقط من بين أنواع الدلالة الخمسة هما اللذان يتصلان بالكلام، وهما دلالة اللفظ ودلالة الخط ، أما الثلاثة الباقية فلا صلة لها بالكلام أساسا فضلا عن الكلام البليغ ، ومن هنا يتضح لنا مدى اضطراب دلالة مصطلح "البيان" عند الجاحظ ، الذي كان أكثر مؤلفى المرحلة اهتماماً بهذا المصطلح وسعياً وراء تحديد مدلوله .

أما مصطلح "البديع" الذي سيصبح في المرحلة التالية على امتداد حقبة طويلة من تاريخ البلاغة العربية أهم المصطلحات البلاغية وأكثرها شيوعاً – فإنه لم يلق في هذه المرحلة مثل حظ مصطلحى "البلاغة" و"البيان" من الرواج وحفاوة العلماء والمؤلفين .

ولعل الجاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره ، وأطلقه على فنون البلاغة المختلفة .. ولكنه لم يعرفه أو يشر إلى فنونه ، بل كان يطلق هذا المصطلح إطلاقاً[٢] .

وقد تردد المصطلح مرات معدودة في كتاب "البيان والتبيين" والجاحظ يستعمل المصطلح بمعنى قريب من دلالته اللغوية ، أي بما يرادف الجدة والطرافة والبراعة، وإن كان يستعمله في سياق يوحي بأنه يقصره على الأساليب الجديدة والطريفة في الشعر ، فمرة يذهب في سياق حديثه عن كلثوم بن عمرو العتابي إلى أنه "على ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى وأشباههما ، وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة"[٣] .

---

[١] السابق ص٧٦ وما بعدها ، و"الحيوان" تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة الحلبي . القاهرة ١٩٣٨ : ٤٥/١.

[٢] د/أحمد مطلوب : مصطلحات بلاغية : ص٨٢ .

[٣] البيان والتبيين : ٥١/١ .

ومرة أخرى في سياق تعليقه على أبيات الأشهب بن رميلة التي بينها بيته المشهور :

هُم ساعدُ الدَّهرِ الذي يُتقَّى بِه   وما خير كفٍّ لا تنوءُ بساعدِ

يقول : قوله "هم ساعد الدهر" إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع، وقد قال الراعي :

هُم كاهلُ الدّهر الذيُ يتقَّى بِه   ومنكبهُ إن كانَ للدهّرِ منكبُ

وقد جاء في الحديث "مُوسَى اللهِ أحَدُّ وساعِدُ الله أشدُّ"[(١)] .

وهو مرة ثالثة – في نفس الموطن السابق – يذهب إلى أن "البديع" مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان"[(٢)] .

ومرة رابعة – وفي نفس الموطن أيضاً – يحدد طابع كل شاعر من رواد البديع الأوائل ؛ فـ "الراعى كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب شعره في البديع"[(٣)] .

وهكذا نجد الجاحظ في كل هذه السياقات يحصر البديع في نطاق الشعر الجديد الطريف ؛ وإن كان لم يحدد خصائص هذا البديع وحدوده ، ولم يضع مفهوماً واضحاً للمصطلح ، مما يجعله مشاركاً لمصطلحي "البلاغة" و"البيان" – ولغالبية المصطلحات البلاغية في تلك المرحلة – في غموض مفهومه واضطرابه[(٤)] .

ولنا على ما ذكره أستاذنا في هذا الموضع بعض الآراء :

أولاً : لا يجوز لنا أن نجعل ما انتهى إليه المتأخرون من المعاني الاصطلاحية لهذه المصطلحات البلاغية معياراً يحكم به على مدلولات تلك المصطلحات لدى المتقدمين

---

(١) السابق : ٤/٥٥ ، والحديث أخرجه أحمد في المسند (٤٧٣/٣) مطولا من حديث أبي الأحوص ، وذكره الهيثمي في "المجمع" (١٣٣/٥) مختصراً ، وقال : "رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح" .

(٢) السابق : ص٥٥ ، ٥٦ .

(٣) البيان والتبيين : ص٥٦ .

(٤) د/ على عشري: البلاغة العربية ص٤٣ .

بالصواب والخطأ ، وذلك لأن هؤلاء المتقدمين قد وسعوا في مدلولات تلك المصطلحات نظراً لعدم تعدد المصطلحات وكثرتها ، وعدم ميلهم إلى التقسيم والتشقيق والتفريع الذي ولع به المتأخرون .

ثانياً : – إذا كنا نعيبُ على المتأخرين تقسيمهم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي: المعاني والبيان والبديع مع مصطلح رابع جعلوه مغايراً لها وهو الفصاحة التي جعلوها مقدمة للبلاغة .

أقول إذا كنا نعيب ذلك عليهم ، فمقتضى ذلك هو موافقة المتقدمين في جعل تلك المصطلحات جميعا كالألفاظ المترادفة وهذا هو ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني وهو مَنْ هو مِنْ حيث التقدم والإمامة في هذا العلم ، وقد سبق بيان ذلك ونقله عنه .

ثالثاً : – وبالنسبة لمصطلح البلاغة فنحن لا نوافق أستاذنا على أن ما أورده الجاحظ من معاني البلاغة كانت كلها بعيدة عن مدلوله الذي استقر له فيما بعد .

وقد سبق أن ذكرنا جملة من تلك التعريفات وبينا أنها وإن لم يكن كل تعريف منها صالحا بمفرده لتعريف البلاغة ، فإن كل واحد منها كان يمثل أبواب البلاغة أو أهم أسسها التي اتفق عليها البلاغيون فيما بعد .

رابعاً : – وبالنسبة لمصطلح البيان فإننا نقرر أن الجاحظ وإن كان قد استخدمه استخداما أوسع من مدلوله الذي استقر عليه عند المتأخرين ، فإننا لا يجوز لنا أن نلزمه بتعريف المتأخرين له : كما أن هذا التعريف للمتأخرين ليس مسلما لهم على الإطلاق ، ولا محل اتفاق ، بل إن وجهة النظر المعاصرة تتبرأ من هذا التقسيم الثلاثي للبلاغة على الجملة .

وإذا كان الجاحظ قد استخدم مصطلح البيان بدلالته المشتركة التي سبق بيانه لها ، فإننا لا نعيب ذلك عليه ما دام قد أبقى للبلاغة مصطلحاً خاصاً بها لا يخلط فيها بينها وبين غيرها من العلوم ألا وهو مصطلح البلاغة ، فقد نجا من مثل ذلك الاشتراك أو الاضطراب في مدلول مصطلح البيان .

خامساً : – وما قررناه هنا بالنسبة لمصطلح البيان هو ما نقرره بالنسبة

لمصطلح البديع ، فلا يجوز إلزام الجاحظ بمدلول المتأخرين له ، علـــى أن الواضـــح في استخدام الجاحظ لمصطلح البديع أنه قد استخدمه مرادفا للبلاغة بما دخل عليها مـــن تطور وصنعة في عصره .

٣-امتزاج القضايا البلاغية بقضايا العلوم الأخرى :

يرى أستاذنا أن القضايا البلاغية في هذه المرحلة قد امتزجت بموضوعات العلوم الأخرى التى نشأت البلاغة على هامشها ، وأن يكون هذا الامتزاج سمة من أبرز سمات الكتابة البلاغية في تلك المرحلة ، وقد ساعد على بروز هذه السمة في مؤلفات تلـــك المرحلة عاملان بارزان :

أولهما : - أن العلوم العربية والإسلامية التى نشأت البلاغة على هامشـــها لم تكن هى ذاتها قد تبلورت لها معالم واضحة محددة ، على الرغم من أن بعضها كان قـد تجاوز مرحلة البداية بقليل ، ولكن حتى في تلك المرحلة من حياة العلوم تختلط قضايـــا العلم بقضايا العلوم الأخرى ، حيث لا تكون حدوده على قدر من الصلابة يحول دون تسرب موضوعات العلوم الأخرى ومباحثها ، ومن ثم فقد تداخلت حدود هذه العلوم وتشابكت إلى الحد الذي يندر معه العثور على كتاب خالص لعلم من العلوم في تلـــك المرحلة ، وقد رأينا كيف كانت تتشابك في الكتاب الواحد قضايا علوم عدة ، بصورة تجعل مؤرخي كل علم من هذه العلوم يعدون هذا الكتاب من بين كتب العلم الـــذي يؤرخون له ، والمثال البارز لذلك كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة ، حيث يعده علمـاء التفسير كتاب تفسير، ويعده اللغويون كتاب لغة، ويعده مؤرخو البلاغة كتاب بلاغة ، والذي ساعد على توزع الكتاب بين هذه العلوم الثلاثة أن أيا منها لم يكن قـــد بلـــغ مرحلة النضج والتبلور النهائي ، وإنما كانت كلها في مرحلة البداية أو تجاوزها بقليل .

العامل الثاني : - أن علماء تلك المرحلة كانوا علماء موسوعيين ، لم يكـــن الواحد منهم يحصر نفسه في دائرة معرفة واحدة لا يتجاوزها ، وإنما كـــانت تتعـــدد معارفهم وتتنوع ثقافاتهم ، الأمر الذي ترتب عليه عدم وجود المؤلف المتخصـــص في

البلاغة ، أو في أي علم من العلوم، فكان المؤلف البلاغي مثلا متكلمـــاً أو نـــاقداً أو لغوياً... وقد يكون هذه الأشياء كلها ؛ فمؤلف كالجاحظ مثلاً كان أديباً ومؤرخـــاً للأدب، وناقداً ومتكلماً تنسب إليه فرقة من فرق المعتزلة هى فرقة الجاحظية . وما يقال عن الجاحظ يقال عن مثله عن أبي عبيدة وثعلب والفراء وغيرهم ممن وضعوا اللبنـــات الأولى في صرح البلاغة العربية . حيث كان هؤلاء جميعاً لغويين ونقاداً ومؤلفـــين في العلوم القرآنية قبل أن يكونوا بلاغيين ،ونتيجة لتعدد ثقافات هؤلاء العلماء وتنوعـــها واختلاطها كانت هذه الثقافات المتنوعة تنعكس على كتاباتهم فتتسلل قضايا كل علـــم من هذه العلوم إلى مؤلفات العلوم الأخرى .

ولقد كانت أبرز العلوم التى امتزجت قضاياها بقضايا البلاغة علوم المجموعات الثلاث التى نشأت البلاغة على هامشها ، وهى مجموعة العلوم القرآنيـــة ، ومجموعـــة العلوم اللغوية ، ومجموعة العلوم الأدبية ، وقد رأينا مدى امتزاج قضايا البلاغة بقضايـــا المجموعتين الأوليين في "مجاز القرآن". أما امتزاج القضايا البلاغية بموضوعات العلـــوم الأدبية فلعل مثالها البارز كتاب الجاحظ "البيان والتبيين" الذي يعد موســـوعة أدبيـــة ضخمة حوت الكثير من الأفكار والآراء النقدية والبلاغية ، ومن النصـــوص الأدبيـــة وتراجم كبار الأدباء والكتاب وأخبارهم . وقد امتزجت القضايا البلاغيـــة بقضايـــا الأدب والنقد في هذا الكتاب إلى الحد الذي جعل أبا هلال العسكرى يعتبر هذا الخلـط في كتاب الجاحظ سبباً من أسباب تأليف كتابه " الصناعتين" الذي يقول في مقدمتـــه بعد أن يشيد بكتاب الجاحظ وبقيمته العلمية "إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقســام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابي هذا ..."[1] إلخ .

و لم يكن اختلاط قضايا البلاغة بقضايا العلوم الأخرى مقصوراً على مؤلفـــات العلوم القرآنية والعلوم اللغوية والعلوم الأدبية – وإن كان أكثر شيوعاً بينـــها – وإنمـــا

(1) الصناعتين : ١١ .

تجاوز ذلك إلى علوم ومؤلفات هى أبعد ما تكون عن مظنة الاحتواء على أفكار بلاغية مثل كتاب "الحيوان" للجاحظ الذي يعد مصدراً من أهم مصادر آراء الجاحظ وأفكاره البلاغية ، على الرغم من أنه – بحسب عنوانه وبحسب موضوعه – أبعد ما يكون عن مجال البلاغة ، بل عن مجال الدراسات الأدبية كلها ، وتكفي في هذا الشأن الإشارة إلى أن عبارة الجاحظ المشهورة حول الألفاظ والمعاني ، والتى اعتبره مؤرخو النقد العربي والبلاغة بها إمام أنصار اللفظ إنما وردت في هذا الكتاب ، ولم ترد في "البيان والتبيين" مثلا ، وأعني بتلك العبارة قول الجاحظ" .. المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمى والعربي والبدوى والقروى والمدنى . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صياغة ، وضرب من النسج وجنس من التصوير"[1] .

كما أن هناك كثيراً من آراء الجاحظ وأفكاره البلاغية الصائبة قد تناثرت في هذا الكتاب واختلطت بموضوعاته ، كبعض آرائه في التشبيه[2] ، وغيره من الموضوعات البلاغية .

وأقول إن هذا الذي يأخذه الباحثون على التدوين البلاغي في هذه المرحلة أرى أنه يعد ميزة من ميزات التأليف أو التصنيف اللغوي في هذه المرحلة ، وأنه كان بداية لنشأة المنهج التكاملي في المراحل التالية حيث تتكامل مباحث البلاغة مع النقد والأدب، وتتكامل مع مباحث اللغة من نحو وصرف ومعجم وفقه لغة وغير ذلك ، أو تأتي متضافرة مع التفسير القرآني كما في الكشاف للزمخشرى ، أو تأتي بطريقة تطبيقية وأسلوب أدبي رصين في الموازنة بين الشعراء ، أو الوساطة بينهم ونحو ذلك .

أو تأتي مؤيدة لمبحث من أهم مباحث علم الكلام وهو مبحث الإعجاز الذي أثرى البلاغة العربية بما صنف حوله من المصنفات .

---

(1) الحيوان : ٣/١٣١ ، ١٣٢ .

(2) السابق : ١/٢١١ .

٤-عدم تميز علوم البلاغة الثلاثة :

يرى د /عشري أنه لم يكن من المتوقع أن تتميز علوم البلاغة الثلاثة ويستقل بعضها عن بعض في مثل تلك المرحلة المبكرة من تاريخ البلاغة التي لم تكن فيها البلاغة ذاتها كعلم قد استقلت عن سواها من العلوم الأخرى التي نشأت على هامشها . فعلى الرغم من أن علماء تلك المرحلة قد اكتشفوا كثيراً من الأساليب البلاغية ، وأشاروا - ولو بشكل مبهم - إلى كثير من الفنون التي أصبحت فيما بعد هي الركائز التي نهض عليها كل علم من علوم البلاغة الثلاثة ، فإن تصنيف هذه الفنون وهذه الأساليب إلى ثلاث مجموعات يمثل كل منها فرعاً من فروع البلاغة الثلاثة قضية لم تطرح في مؤلفات هذه المرحلة على أي نحو . فلم يكن هناك أي نوع من الفصل بين الفنون التي نهض عليها فيما بعد علم البيان، مثل التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، وقد أشار إليها جميعاً علماء تلك المرحلة، وهذه التي أصبحت ركائز علم المعاني، كالإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير ، وخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى... وغير ذلك من المباحث التي اندرجت فيما بعد تحت علم المعاني، وتلك التي صنفت في المرحلة الثالثة من حياة البلاغة تحت علم البديع .

وإذا كان مصطلحان من المصطلحات الثلاثة أصبحت فيما بعد عناوين للعلوم البلاغية الثلاثة قد عرفا واستخدما في مؤلفات تلك المرحلة ، وهما مصطلحا "البيان" و"البديع" فإنهما لم يستخدما في مدلولهما الذي تحدد لهما فيما بعد ، أي باعتبارهما عنوانين على فرعين متميزين من فروع البلاغة الثلاثة ، ويكفي أن نتذكر أن مدلول مصطلح "البيان" عند الجاحظ كان أعم من مدلول مصطلح "البلاغة" الذي صار "البيان" فرعاً من فروعه ، كما أن الجاحظ كان يطلق اسم "البديع" على بعض الفنون التي صنفت في المراحل التالية تحت علم البيان كالاستعارة ... والتشبيه ، كما فعل في تعليقه على بيت الأشهب بن رميلة الذي سبقت الإشارة إليه :

هُم ساعدُ الدهْرِ الذي يُتقَّـى بِـه ... ما خيرُ كفٍّ لا تنوءُ بساعدِ

حيث يقول : "قوله : هم ساهد الدهر ، إنما هو مثل . وهذا الـذي تسـميه الرواة البديع" .

ونحب أن نوضح أننا لا نختلف مع أحد في عد هذه النقطة سمة مـن سمـات التأليف البلاغي في هذا العصر ، ولكن الذي نتمسك به ونصر عليه ونريد تصحيحـه هو أن عد ذلك الأمر سمة من سمات التأليف البلاغي في هذه العصر لا يعني مطلقاً أنـه عيب من عيوب المنهج في تلك المرحلة المبكرة ، بل على العكس من ذلك إننـا نعـد ذلك من حسنات تلك المرحلة ، ونطالب بعودة البحث البلاغي إلى تلك السمة المهمـة وهى عدم تشقيقه وتقسيمه إلى تلك القسمة الثلاثية أو الرباعية التى لا حاجة إليها على الإطلاق ، ولا تفيد البحث البلاغي بشيء سوى تشتيت الظواهر البلاغية وتفرقها بـلا طائل .

مرحلة الدراسة المتداخلة

شارك في التصنيف البلاغي في هذه المرحلة عدة طوائف هي :

أولاً : طائفة اللغويين :

"ظل نشاط اللغويين في هذه المرحلة مستمراً ..وحقاً ظلت هذه البيئة تعنى بتسجيل ملاحظاتها على الشعر ، ولكنها اتجهت بها غالباً نحو نقد لغوي ونحوي جاف على نحو ما نرى في كتاب الموشح للمرزباني . ثم نشط البحث اللغوي في القرن الرابع عند أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني ، ولكنه نشاط يتصل بالكشف عن فقه اللغة ومعرفة أسرارها وقلما اتصل بأبحاث البلاغة والفصاحة[1] . ومع ذلك لا نعدم في خلال ذلك أن نجد بعض المباحث البلاغية أو بعض فنونها .

ثانياً : طائفة المتكلمين :

ظل نشاط المتكلمين في هذه المباحث متصلا وكان من أهم ما وصلهم بها أنهم عنوا بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا .

لقد كان البحث حول سر إعجاز القرآن الكريم في ذلك الوقت هو الشغل الشاغل لمعظم الباحثين .

ففي هذا العصر سعى كثير من الملاحدة والزنادقة إلى تشكيك الأمة في دينها وعقيدها وقرآنها ، فلقد دخل في الإسلام كثير من المغرضين الحاقدين من أبناء فارس وغيرها ، فاشتعلت الأحقاد الدفينة في حركة عنصرية عرفت باسم (الشعوبية) فكان الكلام في القرآن وإعجازه من مظاهر الخصوصية بين العرب وغيرهما ، وتعددت مذاهب القول فيه ، فكان أهم الدواعى التي دعت إلى الكلام في البيان العربي الدفاع عن القرآن ضد الذين ذهبوا إلى أن في كلام العرب ما يشبهه أو يدانيه ، وإلى أنه كان في العرب من يستطيعون معارضته والإتيان بمثله ، لأن حروفه كحروفهم ، وألفاظه من جنس ألفاظهم لولا أن الله صرفهم عن محاولة المعارضة .

[1] د/ شوقي ضيف ، السابق ، ص٦٢-٦٣ ، الشيخ المراغي ، تاريخ علوم البلاغة ، ص١٤/٢٠ .

وقد دان بهذا القول بعض علماء من المسلمين ، كإبراهيم بن سيار النظام ، الذي قال في إعجاز القرآن : إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً ، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة[1] . وأصبح الناس في ذلك العصر - كما يرى الباقلاني - بين رجلين : ذاهب عن الحق ، ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود في صنعته ، وقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين ، وقد قل أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه . وأسلمه أهله ، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول وعلى ما خاضوا فيه عند ظهور أمره ، فمن قائل إنه سحر ، وقائل يقول إنه شعر ، وقائل يقول : إنه أساطير الأولين وقالوا : (لو نشاء لقلنا مثل هذا) . إلى الوجوه التى حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه ، وتكلموا به فصرفوه إليه ، وذكر عن بعض جهالهم أنه يساويه ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه . وليس ببديع من ملحدة هذا العصر ؛ وقد سبقهم إلى عظم ما يقولون إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم ، إلا أن أكثر من كان طعن فيه في أول الأمر استبان رشده ، وأبصر قصده ، فتاب وأناب ، وعرف من نفسه الحق بغريزة طبعه وقوة إتقانه ، لا تصرف لسانه ، بل لهداية ربه وحسن توفيقه . والجهل في هذا الوقت أغلب ، والملحدون فيه عن الرشد أبعد وعن الواجب أذهب[2] . وبهذا يتضح أن العامل الديني كان أهم البواعث في إثارة الهمم وحفز العزائم ، وأن تلك الغيرة على العقيدة وكتابها ، هى التى دفعت إلى البحث في متصرفات الخطاب ؛ وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهاته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ،

---

[1] انظر معجم الأدباء . ج١٩ ص١٥٩ (طبعة المأمون - القاهرة) .

[2] الباقلاني : إعجاز القرآن . ص١٠ (المطبعة السلفية - القاهرة ١٤٤٩هـ) .

والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع ، ثم ما اختلفت به مذاهب المستعملين في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مناحي الخطاب[1] .

إذا كانت البلاغة علماً من علوم العربية فهى كذلك معدودة من جملة العلوم الإسلامية ، وهى العلوم التى نشأت بتأثير هذا الدين الجديد ، وكان لها دخل واضح في نشأتها وتطورها وتنوع مباحثها ، وكانت البلاغة من أهم ما اعتمد عليه في خدمة العقيدة الإسلامية ، لأنها تعمل على إبراز ما في القرآن الكريم، وهو كتاب العقيدة الإسلامية وآيتها المعجزة، من وجوه الجمال التي يمتاز بها ، ويتبين سر الإعجاز الذي بان به كلام الله وامتاز به من كلام العرب ، سواء من ناحية مقاصده ومعانيه ، أو من ناحية أساليب تأديتها والعبارة عنها .

"وذلك أن النبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقى ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة مظهراً لهم النكير ، زاريا على أديانهم ، مسفها آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت فيه النفوس ، وأريقت المهج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدامهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، هذا ما لا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذو لب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ، ووقارة العقول والألباب ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون ، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد ، فقال سبحانه : **﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خَصِمون﴾** وقال سبحانه : **﴿وتُنذرَ به قوما لُدّا﴾** فكيف كان يجوز على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه وأن يضربوا عنه صفحا ، ولا يجوزوا الفلج

[1] بدوى طبانة : البيان العربي ص١٨-١٩ .

والظفر فيه ، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع عنه ، ولقد كان القرآن عربيا ، نـزل بلسان عربي مبين"[1] .

"وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه ، فليس يعـرف فروق النظر واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من الرجـز ، والمخمـس مـن الأسجاع ، والمزاوج من المنثور ، والخطب من الرسائل ، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات .

فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسـائر الكـلام ، ثم لم يكتف بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله عن مثله ، وأن حكم البشر حكم واحـد في العجز الطبيعي ، وإن تفاوتوا في العجز العارض"[2] .

ومتى سلمت بذلك العقـول ، ورضيـت الأذواق ، واطمـأنت إلى إدراك الإعجاز، اطمأنت إلى سلامة دينها ، وآمنت بأنه من عند الله ، وأنه ليس من تـأليف الرسول ، وليس بقول شاعر ، ولا بقول كاهن ، لأنه أبعد مـن متنـاول الكهنـة والشعراء.

وقد كان بُعْدُ العهد بين المسلمين في العصر العباسي والمسلمين مـن العـرب الخلص في صدر الإسلام سببا في خفاء بعض المعاني القرآنية عليهم ، فانطلقوا يسـألون عنها العارفين بالعربية وأسرارها . ومن ذلك ما يذكر من أن أبا عبيدة معمر بن المثـنى (المتوفى سنة ٢٠٨هـ) كان في مجلس الفضل بن الربيع ، فقال له إبراهيم بن إسمـاعيل الكاتب : قد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ فقال أبو عبيدة : هات ، قال إبراهيم : قال الله عز وجل : ﴿**طلعُها كأنه رءوس الشياطين**﴾ وإنما يقـع الوعـد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ؟ فقال أبو عبيدة : إنما كلّم الله تعالى العـرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

---

[1] بيان إعجاز القرآن للخطابي : ص١٧ (مطبعة دار التأليف – القاهرة ١٩٥٣م) بشرح وتعليق عبد الله الصديق .

[2] كتاب العثمانية للجاحظ : ص١٦ (مطبعة الكتاب العربي – القاهرة ١٩٥٥م) بتحقيق الأسـتاذ عبـد السـلام هارون .

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجِعي ومسنُونةٌ زُرْق كأنيابِ أغْوالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ! فاستحسن الفضل ذلك ؛ واستحسنه السائل ، وعزم أبو عبيدة من ذلك اليوم أن يضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه ؛ وما يحتاج إليه من علمه . فلما رجع أبو عبيدة إلى البصرة عمل كتابه الذي سماه "مجاز القرآن"[1] .

وفي سبيل هذا الهدف النبيل وهو رد مزاعم الطاعنين في كتاب الله تعالى ، وجلاء الحقيقة أمام المشككين-الذين دقت على أفهامهم أسرار بيانه ، وخفيت عليهم لطائف نظمه-في سبيل هذا الهدف نجد عددا من المصنفات من بين كتب ورسائل ، شغلت كلمة "الإعجاز" عناوينها جميعا بشكل أو بآخر ، يعنينا منها تلك التي كتبت في مرحلة متقدمة تاريخيا ، قبل أن يستقر البحث البلاغي في صورته الأخيرة المتداولة بين الدارسين .

من أوائل هذه المصنفات "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (٢٩٦-٣٨٦هـ) ، و"بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان أحمد بن محمد ابن إبراهيم بن الخطاب المعروف بالخطابي (٣١٩-٣٨٨هـ) و"إعجاز القرآن" للباقلاني (ت٤٠٣هـ) ، و"إعجاز القرآن" للقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) ، ثم "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) .

[1] انظر معجم الأدباء . ج١٩ ص١٥٩ (طبعة دار المأمون – القاهرة) .

ثالثاً المفسرون: –

وكما ازدادت وتطورت جهود اللغويين والمتكلمين في هذا العصر في خدمة البلاغة العربية ازدادت كذلك جهود المفسرين .

فلم تكن علاقة الدين بمنهج البحث البياني مقصورة على الدفاع عن القرآن والتماس وجه إعجازه من طريق بيانه ، بل إن له به علاقة أخرى ، وهى الضرورة التى يحسها المسلم من جهة فهم معانيه ، ولا يتم هذا الفهم إلا بتعرف أساليبه ، وما يمكن أن ينطوى وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد . وتلك الغاية لا تقل في الأهمية عن الغاية الأولى ، وهى التصدى لهجمات الطاعنين ورد طعناهم وكيدهم للدين أو لمعتنقيه .

وبهذا وذاك اتسعت دائرة الدراسات الأدبية ، أو اتسعت دائرة "البيان" وكان العامل دينياً إسلامياً أو قرآنياً . ولذلك عد "البيان" من العلوم الإسلامية وبقى الغرض الديني بارزاً في توجيه علوم اللسان العربي ؛ ومن أركانها هذا البيان بعد دور التكوين وأصبحت معرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهما بلغة العرب ، ونقلتهما من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتهما من لغتهم ، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان .

وبذلك نفهم قول ابن خلدون : "إن علم البيان علم حادث في الملة[1] ، ومعناه أن تنظيم البحث في الأدب ، والكلام في عناصره ، وما يسمو به وما ينحط ، كان جهداً جديداً ، ودراسة لا عهد للعرب بها في جاهليتهم ولا في العصر الإسلامي ، وأن البيان كان من العلوم التى تولى غرسها المسلمون في سبيل فهم كتابهم ، والذب عن قرآنهم ؛ وكان نماؤه بعد ذلك وتشعب مباحثه بتأثير الدين ، وبتوجيه المفكرين من حملته ورجاله[2] .

(1) انظر مقدمة ابن خلدون . ص٥٤٥ .

(2) السابق ص٢٠ .

وفي سبيل هذه الغاية الشريفة وهى الكشف عن معـــاني القـــرآن ، وإماطـــة الحجب عن مكنون أسراره ودقائق أفكاره ، وحقائق إعجازه صُنفت عدة مصنفـــات جليلة مثل :

١-مجاز القرآن لأبي عبيدة وقد سبق الحديث عنه في المرحلة السابقة .

٢-تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

٣-تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي .

٤-الكشاف للزمخشرى .

٥-روح المعاني للألوسى .

٦-تفسير أبي السعود .

٧-حاشية الطيبـــي على كشاف الزمخشري ، وما تبعها من حواش عديدة .

٨-تفسير المراغي .

٩-تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

١٠-الظلال لسيد قطب .

رابعاً : طائفة المتفلسفة :

أخذت تنشط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بيئة جديدة ، عنيت بشئون البلاغة ، هى بيئة المتفلسفة ، وكان مما ساعد على ظهورها كثرة ما نقل عن اليونان واحتفال العرب بفلسفتهم وكل ما خلّفوه في شئون الفكر من منطق وغير منطق . وبذلك وجدت طبقة كبيرة من المتفلسفة ، وكانوا طائفتين : طائفة من نقلة السريان ومترجميهم ، وأكثرهم من النصارى ، وطائفة من العرب الذين أكبوا على قراءة المترجمات والمصنفات اليونانية . وأدى التفلسف بكثيرين من هذه الطبقة إلى أن يتخذوا من الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أساساً في تقويم نماذج الأدب العربي وتقدير قيمها البيانية .

هذه الطائفة الذين تسلحوا بالمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية كانوا هم الذين اتجهوا بالدرس البلاغي نحو اتجاه تصعيدى جاف يعتمد وضع الحدود والاستدلالات المنطقية الصارمة أكثر منه تجاوبا مع الواقع اللغوى بحس وذوق مرهف يتناسب مع طبيعة هذه العلوم الأدبية .

ومن ثم ظهرت عدة مصنفات في هذه المرحلة تعبر عن هذه الطريقة المنطقية القاعدية الجافة ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

(١)نقد الشعر لقدامة بن جعفر .

(٢)نقد النثر أو البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب .

خامساً : طائفة النقاد :

اختلطت في هذه المرحلة مباحث البلاغة بمباحث النقد الأدبي كما اختلطت بمباحث اللغة والتفسير وعلم الكلام ، وتكلم في كثير من مسائل البلاغة في ذلك العصر عدد من النقاد الذين استطاعوا أن يوظفوا ما انتهوا إليه من قواعد البلاغة وفنونها إلى عصرهم في استنباط الأحكام النقدية .

وتتميز معالجة هؤلاء النقاد والبلاغيين بأدبية الأسلوب ، وروعة التحليل ، وجمال العبارة وسلاستها ، حتى إنه يمكننا أن نعد ما كتبوه من كتب نقدية أو بلاغية في هذه المرحلة من خير ما يمكن أن ينصح الشبيبة بقراءته كنماذج لنصوص أدبية عالمية رفيعة المستوى .

وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرناه من أن البلاغة لم تصل إلى أوج مجدها إلا مقترنة ومتضامة إلى العلوم الأخرى المتداخلة معها كالنقد الأدبي وعلوم العربية ، والتفسير ، وقضية الإعجاز باعتبارها من أعظم قضايا علم الكلام التى تمثلت فيها وضوح العلاقة بين البلاغة والدين ، أو قضايا القرآن والعقيدة على الخصوص .

(كتابات النقاد)

نلمح في هذا الصدد عدداً من الكتب النقدية البلاغية مثل : "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) والموازنة بين أبي تمام والبحتري "للآمدي (ت٣٧١هـ)، وكتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢هـ) .

ونستطيع هنا أن نقسم كتابات تلك الطوائف في تلك المرحلة إلى ثلاث اتجاهات رئيسية .

اتجاهات التأليف في الدرس البلاغي

أولاً : الاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي

ثانياً : الاتجاه المنطقي الفلسفي في الدرس البلاغي

ثالثاً : الاتجاه الكلامي وامتداده

أولاً : الاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي :

فمن أهم أعلام هذا الاتجاه في هذه المرحلة ممن كان له أكبر الأثر في مسيرة البلاغة العربية ، عبد الله بن المعتز . (ت٢٦٩هـ) صاحب كتاب البديع .

وهنا نجد أنفسنا أمام تأليف ومؤلف يغلب عليه الأسلوب الأدبي وذلك بأمثلته العذبة الرقيقة التى استشهد بها ، والتي يبدو فيها دقة ذوقه وصفاؤه في اختيار تلك الأمثلة والشواهد فكان بذلك أول من رسم منهج البلاغة ، ووسائل تحسين الأسلوب الأدبي ومهد السبيل لكثير من العلماء الذي خاضوا بحار الصنعة الزاخرة ، فاستخلصوا فنوناً لا يكاد يدركها الحصر[1] .

وقد تكلم ابن المعتز في كتابه عن ثمانية عشر نوعاً ، جعل الخمسة الأولى هي البديع : وهي الاستعارة ، والتجنيس والمطابقة ، ورد الأَعجاز على الصدور ، والمذهب الكلامي والباقي أطلق عليه اسم المحسنات .

ومما يلاحظ على دراسة ابن المعتز لتلك الفنون أنها دراسة فنية لعناصر الجمال في الفن الأدبي ، تلك العناصر التي لا حدود لها ولا فصل بين فنوها ، ولذا لم يكن ابن المعتز يعنى من "البديع" أو يفهم منه ما فهمه البلاغيون المتأخرون ، من أنه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال . ووضوح الدلالة على المعنى المراد[2] .

وهذا لا يعدو البديع أن يكون مجرد حلية أو زينة يتحلى بها الأسلوب بعد أن يكون قد استوفى أغراضه من حيث المطابقة والوضوح[3] ، وقد كان هذا من جراء التقسيم الصارم للبلاغة الذي استقرت عليه عند السكاكي والقزويني من بعده متأثرة بالمنهج العقلي والاتجاه الفلسفي المنطقي في الدرس البلاغي .

---

[1] انظر د/حفني شرف ، ابن أبي الإصبع ، ص٥٨ . د/طبانة ، البيان العربي ، ص٦٥ ، د/شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص٧٥ .

[2] القزويني ، الإيضاح ص٤٧٧ .

[3] انظر د/طبانة ، ص٦٤ ، د/عبد الواحد علام ، قضايا ومواقف في التراث البلاغي ، ص١٣ .

إلا أن المدرسة الأدبية قد نحت من هذا التقسيم الصارم ؛ وذلك لأنها كانت أقرب إلى روح الفن ، لبعدها عن ذلك المنهج العقلي الصارم ، والتفكير الفلسفي المنطقي في الدرس البلاغي .

ولذا تجد أن ابن المعتز ، وهو من رواد هذه المدرسة ، ومن مؤسسيها ، قد جمع في بديعه ومحاسن الكلام عنده أصول "علم البيان" عند البلاغيين ، كالاستعارة التي جعلها أول البديع ، والتشبيه والكناية والتعريض . كما اشتمل البديع على مباحث من (علم المعاني) عندهم كالالتفات ، والاعتراض . وبقية البديع ، ومحاسن الكلام عند ابن المعتز ، هي أصول (علم البديع) عندهم ، كالتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها .. إلخ ما سبق ذكره من أنواع البديع التي ذكرها في كتابه .

ويمكننا أن نجمل ملامح الاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي في الآتي :

البعد عن إصدار أحكام عقلية على النص الأدبي بل يحكم الذوق الأدبي المرهف بعيدا عن صرامة العقل وأقيسة المنطق ، وتقوم فيه الشواهد الأدبية الكثيرة مقام الدليل والبرهان العقلي ، وتبعاً لذلك فلا تحفل تلك المدرسة ، أو قل ذلك الاتجاه بالتحديد ووضع التعريفات وإخراج محترزاتها ، أو غير ذلك من سمات المدرسة المنطقية كاقتباس مباحث الفلسفة والمنطق والكلام ، أو مصطلحاتها الخاصة بها[1] .

هذا وقد سلك هذا الاتجاه أئمة أعلام جاءوا بعد ابن المعتز ، وكان لهم دورهم البارز في مسيرة البلاغة العربية ، فقد وجدنا هذا الاتجاه عند طائفة من أصحاب الدراسات النقدية التي أثرت في البلاغة ، لقيامها على الأسس البلاغية ، أمثال : "عيار الشعر" لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ) "والموازنة بين أبي تمام والبحتري "للآمدي (ت٣٧١هـ) ، وكتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت٣٩٢هـ) . فقد كانت هذه الدراسات تعنى دائماً ببيان دقائق الشعر المعنونة ومحاسنه التصويرية واللفظية ، فتنظر في معاني الشعراء ، وصورهم البيانية المعنوية

---

[1] انظر الشيخ أمين الخولي ، فن القول ، ص٨٧-٩٠ . د/حفني شرف ، ابن أبي الأصبع ، ص٣٧٠-٣٧١ .

ومحاسنه التصويرية واللفظية ، فتنظر في معاني الشعراء ، وصورهم البيانية والبديعية وتريد أن تردها إلى أصولها الموروثة ، وبذلك اختلطت فيها أبحاث النقد بالبلاغة[1] . وعرضت فيها الأصول البلاغية وتقاليدها الموروثة دون معاناة لجفاف التقعيد والتنظير ، واستغني فيها بتحكيم الذوق والشاهد الأدبي عن تحكيم العقل وأقيسة المنطق .

وقد وجدنا جانبا آخر من نمو البحث البلاغي قد سار على هذا الدرب : "وخير ما يمثل ذلك كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ت٣٩٥هـ ، والعمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني ، ت ٤٦٣ هـ"[2] .

هنا نجد أن أبا هلال العسكري قد تناول البلاغة بروح أدبية كما تناول النقد بروح بلاغية ، ويمكن القول بأن كتاب الصناعتين نقطة تحول في الدراسات البيانية والنقدية ، وأنه جنح بتلك المعالم الذوقية اتجاهاً قاعدياً بما وضع من أسس فن البلاغة التي يعد كتابه من أهم مصادرها[3] .

علي أن هذا الاتجاه القاعدي لدي أبي هلال لا يكاد يخرجه من الاتجاه الأدبي في كتابته ، إلى طريقة المتكلمين أو المناطقة لأنه لم يعرج علي طريقتهم في كتابه ، بل تجده يعلن براءته من هذه الطريقة مبيناً أنه سيسلك في كتابه الطريقة الأدبية حيث يقول "ليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب"[4] .

أما ابن رشيق فقد ظهر عنده بوضوح تام أهم خصائص المدرسة الأدبية في الإحساس بالجمال الفني واعتماد الذوق حاكماً لإدراك جمال القول وليس العقل والعلم والقواعد[5] .

---

(1) د/شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص١٢١-١٢٢ .

(2) السابق ، ص١٤٠. وانظر تحقيقنا لكتاب العمدة. ط المكتبة العصرية-بيروت.

(3) د/بدوي طبانة ، البيان العربي ، ص٨١ .

(4) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ط . الأستانة ، ص٨ .

(5) د/حفني شرف ، ابن أبي الإصبع العدواني ، بين علماء البلاغة ، ص٧٢-٧٣ .

هذا ولا يكاد يخرج عن هذا الاتجاه الأدبي ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) في كتابه "سر الفصاحة" إذ إنه يعد دراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي مع آراء سديدة في النقد والبلاغة وفنون الأدب ، تدل على تبحر وسعة اطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي ، هذا ويمكن أن نقول إن ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) ، ومن قبله أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ومن حذا حذوه ، ومن بعدهم عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) يكادون يمثلون اتجاهاً وسطاً بين الاتجاه الأدبي الذي يجافي الروح العلمية والاتجاه القاعدى وبين الاتجاه المنطقي الفلسفي الذي يغالي في التقسيم والتنويع والتحديد ، وإصدار الأحكام العقلية المجانبة لتحكيم الذوق الفني والإقلال من الشاهد الأدبي ، والنموذج البلاغي ، أما عبد القاهر فقد وصل بالاتجاه الأدبي في الدرس البلاغي إلى الغاية من مراعاة الذوق الفني وتحكيمه في دراسة الأدب ، وتذوق بلاغة الكلم ، معتمداً في ذلك على أسلوبه التحليلي العميق ، والذي لم يظفر البيان العربي بمثل استقصائه ودقته من قبل ، حتى عند أصحاب هذا الاتجاه الأدبي أنفسهم ..[1] هذا ويمكن أن نضم إلى هذا الاتجاه كذلك ما كتبه ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) وهو وإن جاء في عصر استقرار المباحث البلاغية في تقسيمها النهائي على يد السكاكي الذي كان معاصراً له إلا أنه قد أفلت من قيد المنطق وخرج على سلطانه المطاع آنذاك فكان كاتباً ممتازاً ومؤثراً طريقة الأدباء. التي تليق بأمثاله من الكتاب ، وهو لا يفتأ يشيد بالذوق والطبع ووجوب توفر ذلك لمن أراد أن يلم بالبلاغة والفصاحة[2] .

---

[1] البيان العربي ، ص١٢٢-١٣٣ .

[2] د/شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص٣٣٤ .

ثانياً : الاتجاه المنطقي الفلسفي في الدرس البلاغي :

ومن أعلامه : قدامة بن جعفر والرازي والسكاكي : إذا نظرنا إلى كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، فإننا نجد أنفسنا أمام اتجاه آخر مخالف للاتجاه الذي سلكه ابن المعتز في كتابه البديع ، فهو وإن اشترك معه في تنظيم المادة العلمية التي عرض لها تنظيمًا منهجيًا إلا أنه قد بالغ في ذلك مبالغة غير محمودة[1] ، ولعل عذره في ذلك أنه كان أول من قنن للشعر ووضع لنقده أصولاً ومعالم توضح كل أصل منها في ضوء ما وضعه للشعر من نعوت الجودة[2] ، وقد غلب عليه في ذلك ثقافته العميقة بالفلسفة والمنطق اليونانيين فهو يستمد مباشرة من منطق أرسطو وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها التي تتكون منها[3] وللفلسفة - ولا سيما المنطق - أثر واضح في طريقة بحثه .

ومن ينظر في كتاب قدامة هذا يجد أنه يبذل جهداً عقلياً كبيراً في تطبيق ما فهمه من مقاييس البلاغة اليونانية عند أرسطو على البلاغة العربية ، ولكنه في الوقت نفسه يستقي تلك المقاييس كذلك من مؤسسي البيان العربي أمثال الجاحظ وابن المعتز والأصمعي وثعلب وغيرهم ممن سبقوه إلى النظر في وجوه البيان العربي واستنباط محاسن الكلام فيه .

ومن ثم ، فإذا كان ابن المعتز قد رسم المنهج الأدبي في دراسة البلاغة العربية ، فنستطيع هنا أن نقول إن قدامة بن جعفر - في المقابل - قد اختط طريقة المنهج العقلي ذي الاتجاه المنطقي الفلسفي في دراسة البلاغة ، ذلك الاتجاه الذي يعنى بصياغة التعريفات صياغة منطقية تهتم بوضع الحدود وبيان المحترزات بطريقة عقلية صارمة لا يهمها أن تراعي روح الفن الأدبي بقدر اهتمامها بالتقسيم والتنويع والتحديد والتقنين، وأن تكون التعريفات جامعة مانعة ضابطة لمباحث هذا العلم وفنونه وأنواعه وإصدار الأحكام العقلية في الاختصار الشديد في كثير من المواطن والإقلال من الشواهد الأدبية،

[1] أ.د/شفيع السيد ، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم – دار الفكر ١/٧٢-٧٣ .

[2] د/ بدوي طبانة ، البيان العربي – مكتبة الأنجلو المصرية – ط٢ ، ص٧٥ .

[3] د/شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف ط٦ ، ص٨٠ .

مع التعريج على الفلسفة ومصطلحاتها ومباحثها ، والتأثر بالثقافة الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية ، مع تطبيق تلك المقاييس الأجنبية على البلاغة العربية ، وإن لم يتجاهل التراث العربي والإفادة منه في ذلك[1] .

ومن ثم فيمكن أن نعد قدامة بن جعفر هو رائد هذا الاتجاه المنطقي الفلسفي في الدرس البلاغي ، ذلك الاتجاه الذي امتد تأثيره إلى عصر استقرار التأليف البلاغي فيما بعد ، حيث استقرت مباحث البلاغة وتقسيماتها على يد السكاكي ومن حذا حذوه من بعده .

إلا أنه مما يميز كتاب قدامة أنه قد تميز بالشرح والتوضيح لأغلب الشواهد[2] مع مزج النقد بالبلاغة[3] فكان ذلك بداية لنهج السكاكي ومن حذا حذوه في مرحلة استقرار التأليف البلاغي .

أما الرازي فهو كما يقول د/ ضيف : يمتاز في مؤلفاته بدقة التفكير ، وحدة المنطق والقدرة على تشعيب المسائل وتفريعها وحصر أقسامها حصرا يحيط بها إحاطة تامة .. واتجه بهذه الطريقة في التأليف إلى البلاغة باعتبارها مدار الإعجاز القرآني فألف فيها مصنفه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، وواضح من عنوانه أنه قصد فيه إلى الإجمال والاختصار[4] . وفي منهج الرازي تتجلى سمات المدرسة المنطقية تماماً حيث يخلو الكتاب من روعة التحليل للنصوص الأدبية ، وفي أحيان كثيرة يمضي دون استشهاد أو تمثيل وكأنما هو بصدد قواعد خالصة كقواعد النحو ، لا بصدد دراسة بلاغية تمتع الذوق والشعور ، هذا مع جفاف أسلوبه وكثرة تقسيماته المزعجة لأن فيه

---

[1] أمين الخولي ، فن القول ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م ،ص٧٨-٩٢ .

[2] د/ شفيع السيد . البحث البلاغي عند العرب . تأصيل وتقييم – ص٧٢ .

[3] د/ حفني شرف – ابن أبي الإصبع المصري بين علماء ، البلاغة ط١ – مكتبة نهضة مصر بالفجالة . ص٥٩ .

[4] د/ شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص٢٧٤-٢٧٥ .

ثلاث مقدمات مختلفة ، وركنين ، وخمس قواعد ، وخمسة عشر باباً ، وأربعة أقسام ، وواحداً وعشرين وجهاً ، ومائة وثلاثة وثلاثين فصلاً[1] .

ونستطيع أن نقول إن الرازي قد غالى كثيراً في الطريقة المنطقية والاتجاه الفلسفي الذي كان أقرب رشداً إلى روح الفن الأدبي عند قدامة .

ثالثاً : الاتجاه الكلامي وامتداده :

رأينا في المرحلة السابقة كيف قام المتكلمون بدور فعال في نشأة علوم البلاغة لنصرة مذهبهم الكلامي ويجدر بنا أن نميز هنا من بين أصحاب هذا الاتجاه الكلامي طائفة عنيت عناية كبيرة بالتحلي بسمات الاتجاه الأدبي في دراستهم للبيان العربي وكان الجاحظ على رأس هذه الطائفة .

فقد ألم في كتاباته بالصور البيانية المختلفة وبكثير من فنون البديع غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات[2] كما فعل قدامة أو ابن وهب - وإنما كان مشغولاً بإيراد النماذج البلاغية التي قلما يعنى بها أصحاب الاتجاه المنطقي ، كما نجد أن الجاحظ ومن حذا حذوه من المتكلمين يأخذون أنفسهم بثقافة عربية أصيلة بجوار ما استفادوه من الثقافة الأجنبية ، كما نلاحظ أن الجاحظ وهؤلاء المتكلمين ممن حذا هذا الحذو (حين طلبوا معرفة آراء الأمم الأجنبية في البيان والبلاغة لم يكونوا يقصدون إلى تمثلها واعتناقها ، إنما كانوا يريدون أن يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب في بلاغة الكلام ، محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية[3] .

---

(1) السابق ، ٢٨٦ ، ومقدمة نهاية الإيجاز ، المحقق ص٤١ .

(2) د/ شوقي ضيف ، السابق ص٥٦ .

(3) د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، مقدمة الإيضاح ص٤٩ .

ولذا فقد اضطر بعض الباحثين أن يجعله هو وبشر بن المعتمر وسهل بن هارون من زعماء المعتزلة من أصحاب الاتجاه الأدبي وإن رأى أن اتجاهه قد شابه بعض سمات الاتجاه العقلي الكلامي[1] .

فإذا ما قيس ذلك بما عليه الاتجاه المنطقي الذي يتزعمه قدامة وابن وهب ومن بعدهما من جفاف الأسلوب ، والمغالاة في التقعيد والتقنين والتقسيم والتنويع ، وضبط الحدود والتعريفات ، وإخراج المحترزات وغير ذلك وجدنا أن بين الفريقين كما بين المشرق والمغرب ، ولذا فقد وجب التفريق بين هذين الفريقين لاختلاف المنهج عند كل منهما .

ولذا فقد اضطرب كثير من الباحثين في الحكم على هذا الفريق من أصحاب هذا الاتجاه الكلامي والذي يعنى في كتابة ودراسة البلاغة بسمات الاتجاه الأدبي من أمثال الجاحظ وعبد القاهر وأصحاب الدراسات حول إعجاز القرآن وكذلك أصحاب الدراسات التطبيقية - للبلاغة من خلال القرآن كالزمخشري والطيبي وغيرهما ، فيتحيرون في الحكم بجعلهم من أصحاب الاتجاه المنطقي الكلامي أو من أصحاب الاتجاه المنطقي أو من أصحاب الاتجاه الأدبي .

ومن ثم فإني أرى أن عدم تمييز أمثال عبد القاهر الجرجاني والزمخشري - وكذا الطيبي من بعد كما سنرى - من بين أصحاب هذا الاتجاه المنطقي فيه إجحاف لهم ، إذ إني لا أنكر أنهم قد تأثروا بعلم الكلام أو المنطق تأثراً واضحاً في دراستهم البلاغية إلا أننا لا نستطيع رغم ذلك أن ننكر ظهور ملامح الاتجاه الأدبي واضحاً في دراساتهم النظرية أو التطبيقية على السواء ، كما أن ما احتج به البعض على تمثل عبد القاهر لطريقة المتكلمين من نحو إذا قلتم قلنا ، وما إلى ذلك ، قليل لا يطفيء بها الطريقة الأدبية ، ولا يذهب بها ، كما أنه مما تقتضيه طبيعة البحث في الكتاب .

---

[1] د/ حفني شرف . ابن أبي الإصبع العدواني بين علماء ، البلاغة ، ص٣٧١-٣٧٢ ، د / عبد الستار مبروك ، كتاب التبيان للطيبي تحقيق دراسة دكتوراه ، كلية اللغة العربية الأزهر ص٣٦-٣٧ .

ومن هنا أرى أن هذه الدراسات التي تمت في هذه المرحلة حول قضية الإعجاز وكذلك الدراسات التى تمت من قبل حول القرآن من تأويل مشكله والرد على الطاعنين عليه من الملحدين وغيرهم كانت امتداداً لذلك الاتجاه الكلامي الذي يعني بسمات الطريقة الأدبية في الدرس البلاغي مع شيء من التفاوت بين من صنفوا في ذلك في أسلوبهم ونقدهم وتنظيرهم البلاغي ونصيبهم في الأخذ بالثقافات الأجنبية بحيث نستطيع أن نميز هذه الطائفة من المتكلمين عن طائفة المتفلسفة الذين ظهرت لديهم صرامة المنطق ، وحدة الجدل العقيم في دراستهم البيانية .

وقد تنبه د/ شوقي ضيف إلى فصل هذه الطائفة من المتكلمين عن طائفة المتفلسفة في مواضع من كتابه[1] . وبالرغم من محاولة هؤلاء المتكلمين أن يخففوا من صرامة هذا الاتجاه العقلي في الدرس البلاغي ، فقد ظلت الدراسة المنطقية الصارمة هي السائدة والمسيطرة على دراسة البلاغة العربية وذلك حتىَ عصر استقرار مباحثها على يد السكاكي ومدرسته .

---

[1] د/ شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ص٦٥-٦٦ -١٠٢ .

ثانيا : قسم التحقيق

ويشتمل على نص كتاب

المصباح

في المعاني والبيان والبديع

تأليف

الإمام أبي عبد الله بدر الدين بن مالك الدمشقي

الشهير بابن الناظم

المتوفى سنة ٦٨٦هـ

حقق الكتاب وقدم له بدراسة في تاريخ البلاغة

الدكتور عبد الحميد هنداوي

مقـــدمة المؤلف

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[النور : ٣٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . قال الإمام العالم الفاضل المحقق العلامة بدر الملة والدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك- رحمه الله تعالى - :

أما بعد : حمداً لله سبحانه على ما أولاه من جميل النعم ، وحباه من جزيل المواهب والقسم ، وشرفنا به على جميع الأمم ، من الهداية لاتباع رسوله وحبيبه محمد المخصوص بجوامع الكلم ، المؤيد بقواطع الحجج ، وجواهر الحكم – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه –، أئمة الهدى ومصابيح الظلم .

فإن علم الأدب[1] ، وهو معرفة ما يحترز به على جميع وجوه الخطأ في العربية، أنواع تتفاوت كثرة شعب وقلة ، وصعوبة فنون وسهولة ، فمن نوع قريب المأخذ يكفى في تحصيله بعض قوة وأدنى تمييز ، وهو علم اللغة ، ويحترز به عن الخطأ في أوضاع المفردات العربية ، ومن نوع بعيد المرام نائي المطلب ، موقوف على مزيد ذكاء، وفضل قوة طبع ، وهو علم التصريف ويحترز به عن الخطأ في التفريع من أصول أوضاع المفردات .

ومن آخر كالملزوز[2] في قرنه ، وهو علم النحو ، ويحترز به عن الخطأ في التركيب ، لتأدية أصل معنى الكلام .

---

[1] علوم الأدب على ما ذكرها القدماء هى "اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والعروض والقوافي ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنساهم" . (انظر الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي : ٦) .

[2] وقعت في بعض النسخ (كالملزوم) ، ووردت في المفتاح للسكاكي كالمروز ، وهو خطأ بلا شك ، وقد تكلف محققه فقال : "المروز : القطعة ، الحباس الذي يحبس الماء ، فارسي مُعَربٌ ، والجمع : مرروز". قلت : "ولا =
=

ومن رابع لا يملك إلا بعدد جمة ، مع فضل إلهي في ضمن كثرة مراجعات ، وطول ممارسات ، وهو علم البلاغة والفصاحة ، ويحترز به عن الخطأ في تطبيق الكلام لمقتضى الحال ، من تأدية تمام المراد على وفق ما يقتضيها من وضوح الدلالة ، أو خفائها ، ومن تزيين العبارة بما يورث مزيد قبولها واستجلائها ، وهو أشرف أنواع الأدب قدرًا ، وأعلاها مكانة وخطرًا ؛ لأنه علم الاستخراج لأسرار البلاغة من معادها، والكشف عن محاسن النكت المودعة في مكانها الذي هو منتقد قوى البصائر ، ومسبار غور الفهم والخاطر ، ومضمار ما يقع به التفاضل ، وينعقد بين الأماثل في شأنه التسابق والتناضل ، والذي إذا حذقت فيه أطلعك على إعجاز نظم القرآن ، وعلى خباء انصبابه في تلك القواليب ، وروده على تلك المناهج والأساليب ، وأقدرك في نسج حبير الكلام ، على ما يشهد لك من البلاغة بالقدح المعلى ، وأن لك في إبداع وشيها اليد الطولى .

وقد قصرت تأليفي هذا على هذا النوع من علوم الأدب ، لأتوفر على استيفاء فنونه ، واستقصاء الغرر من نكته وعيونه ، فهو الطلبة وما سواه ذرائع إليه ، والمرام وما عداه أسباب التسلق عليه ، فجاء كتاباً له حظ من التحقيق ، وحسن التهذيب. في ضمير مزيد الإتقان وجودة الترتيب . على أني لم أبلغ بمقدار لفظه حجم أدنى المطولات. ولا بالتضييق على معانيه غموض أكثر المختصرات ، وسميته "كتاب المصباح" وجعلته ثلاثة أقسام ، فقلت وبالله التوفيق :

معنى له هنا ، ولا دخل له في هذا السياق" و(الملزوز في قرن) لفظ معروف مشهور ، قال في اللسان : "لزَّ الشيء بالشيء يلزُّه لزًا وألزَّه : ألزمه إياه .

ويقال للبعيرين – إذ قُرنا في قرَن (أي حبل) واحد – قد لزَّ .. قال جرير :

"وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البُزل القناعيس"

(تعريف البلاغة)

البلاغة[1] : هي البلوغ في صوغ الكلام لتأدية المعنى إلى حد له توفية بتمام المراد منه ، وسلوك جادة الصواب فيه ، ولها طرفان : أعلى وهو حد الإعجاز وما يقرب منه ، وأسفل وهو مبدأ البلاغة والقدر الذي إذ فات الكلام منه شيء التحق بأصوات الحيوانات ، وبين الطرفين مراتب تكاد تفوت الحصر .

وللبلاغة وجوه مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ : إما الخلل في كيفية التركيب لتأدية المعنى المراد ، وإما الخلل في دلالة المركب ، وهو ما كان ركناً للإسناد ، أو قيداً فيه ، والخلل في دلالته إما لمخالفة قيد فيها من نحو التعريف أو التنكير لمقتضى الحال ، أو لمخالفة وضوحها أو خفائها له ، وتتبع تلك الوجوه رعاية طرق الفصاحة وهي طرق الإفهام والتبيين وطرق تزيين الكلام بإيداع ما يورثه القبول من وجوه التحسين ؛ فلذلك جعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام :

فالأول : يعرف منه الاحتراز في الإفادة لتمام المراد من المعنى عن الخطأ في كيفية التركيب ، وفى دلالة المركب على قيد من قيودها وهو علم المعاني .

والثاني : يعرف منه الاحتراز عن الخطأ في التركيب مما دلالته غير وافية بتمام المراد من وضوح الدلالة أو خفائها ، وهو علم البيان .

والثالث : تعرف منه توابع البلاغة من طرق الفصاحة وهو علم البديع[2] .

---

[1] انظر في تعريف البلاغة بحثاً في رسالتي للماجستير عن الطيبي وجهوده البلاغية ، ودراستي للتبيان /٥٩ ، وانظر لطائف التبيان للطيبي بتحقيقي كلها ط نزار الباز–مكة. نهاية الإيجاز للرازي /٨٩ ، المطول على التلخيص /٣٠ .

[2] وهذا يدلك على أن هذا التقسيم للبلاغة إلى تلك العلوم الثلاثة هو تقسيم حادث ، أحدثه السكاكي وتابعه عليه البلاغيون من بعده ، ولسنا نرى لهذا التقسيم ضرورة ولا كبير فائدة ؛ وذلك لأن هذه العلوم المذكورة كلها من وادٍ واحد فهي متكاملة متداخلة ، ومن ثم فلا معنى لذلك التقسيم .

القسم الأول من الكتاب

في علم المعاني[1]

وهو تتبع خواص تراكيب الكلام وقيود دلالته ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما تقتضي الحال ذكره ، ومقتضى الحال يتفاوت : فتارة يقتضي ما لا يفتقر في تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية ، وألفاظ كيف كانت ، ونظم لها لمجرد التأليف ، وأخرى تقتضي ما يفتقر في تأديته إلى أزيد؛ فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر والتهنئة والمدح ، والترغيب والجد وابتداء الكلام يباين مقام الشكاية والتعزية والذم والترهيب والهزل ، وبناء الكلام على السؤال ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ، ولكل من ذلك مقتضى يخصه ، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام ، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام . وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك ، بحسب مصادفة المقام لما يليق به وعدمها ، وهو الذي سميناه مقتضى الحال ، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم ، وإن كان مقتضى الحال ترك المحكوم عليه أو تقديم المحكوم به ، أو غير ذلك ، فحسن الكلام تطبيقه لمقتضى الحال وووروده على الاعتبار المناسب ، ثم المقصد من هذا القسم منحصر في خمسة فصول ؛ لأن الكلام : إما خبر ، وإما طلب، والخبر : إما جملة واحدة ، وإما جمل ، والجملة لا بد فيها من مسند ومسند إليه وإسناد .

فالفصل الأول : في أحوال الإسناد الخبري .

والفصل الثاني : في أحوال المسند إليه .

---

[1] علم المعاني عرفه الإمام الطيبي فقال : "وهو تتبع خواص التراكيب في الإفادة ؛ تفاديًا عن الخطأ في التطبيق" . التبيان (١٤١/١) بتحقيقي . طبعة المكتبة التجارية بمكة .

وعرفه الخطيب القزويني بأنه : "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال" الإيضاح ١٤ بتحقيقي . طبعة مؤسسة المختار بالقاهرة .

والفصل الثالث : في أحوال المسند .

والفصل الرابع : في الفصل والوصل بين الجمل ، وفى الإيجاز والإطناب .

والفصل الخامس : في أحوال الطلب .

الفصل الأول

في أحوال الإسناد الخبري

من وروده مؤكداً تارة ، وغير مؤكد أخرى

من المعلوم أن حكم العقل حال النطق هو أن يكون قصد المتكلم بكلامه إفادة المخاطب بقدر الحاجة ، فإذا ألقى الجملة إلى خالي الذهن عنها ليحضر طرفيها عنده كفى فيه حكمه ، ويتمكن لمصادفته إياه خالياً ، وإذا ألقاها إلى طالب لها متردد في الإسناد استحسن تقويته بإدخال اللام أو إن ، فإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه استوجب حكمه ليترجح تأكيداً بحسب ما أشرب المخالف الإنكار ، فتقول: إني صادق لمن ينكر صدقك ، وإني لصادق ، لمن يبالغ في إنكار صدقك ، كما قال رسل -عيسى عليه السلام- إذ كذبوا في المرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾[يس : ١٤، ١٦] وفى الثانية ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ . وإخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة هو إخراج مقتضى الظاهر . وكثيراً ما يخرجون الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، فيحلون المحيط بفائدة الخبر محل الخالي الذهن عنها لتجهيله، ويقيمون من لا يسأل مقام من يسأل ، إذا كانوا قدموا إليه ما يلوح بالخبر ، فيستشرف له استشراف الطالب المتحير ، فيخرجون الجملة إليه مؤكدة كما فعل بشار في قوله [1]:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ ... إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

فإنه لما خاطب ببكرا محرضاً صاحبيه على التشمير في شأن السفر تصورهما حائمين حول : هل التبكير يثمر النجاح ؟ فتلقاهما بإن، ومثل بيته من التنزيل : ﴿وَلَا

---

[1] البيت من الخفيف وهو لبشار بن برد ، العقيلي بالولاء ، ولد بالبصرة ، ونشأ في بني عقيل ، اختلف إلى البوادي لاكتساب اللغة ، وكان أعمى – اشتهر بالتشبيب فوشى به بعضهم إلى الخليفة ، ولما لم يمتنع عن نظم الشعر في هذا الموضوع ، وزاد أن هجا الخليفة فأمر صاحب شرطته ، فضربه بالسوط حتى مات سنة ١٦٧ هـ ، وقد أوفى على السبعين من العمر ، انظر ترجمته في الأغاني ١٢٧/٣ ، وفيات الأعيان ١٢٥/١ ، الشعر والشعراء ٧٦١ ، والبيت في ديوانه ٢٠٣/٣ ، ودلائل الإعجاز ٢٧٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٣ ، الإشارات والتنبيهات للجرجاني ٣١ ، الأغاني ١٨٥/٣، التبيان للطيبي ١٤٣ "بتحقيقنا" ، المفتاح للسكاكي ٢٦٠ "بتحقيقنا" ، الإيضاح للقزويني ٢٣ "بتحقيقنا" .
والهجير : من الزوال إلى العصر أو شدة الحر ، والشاهد أن في الشطر الأول يلوح بالثاني ، ولهذا أتى به مؤكداً .

تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٧] ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج : ١] وهكذا ينزلون منزلة المنكر من ليس إياه إذا رأوا عليه شيئاً من ملابس الإنكار كقوله[1] :

جَاءَ شقيقٌ عارضاً رُمْحَهُ   إنَّ بني عمِّكَ فِيهمْ رِمَاحُ

ويقلبون ذلك مع المنكر إذا كان معه ما إذا تأمله ارتدع فيقولون لمنكر الإسلام "الإسلام حق" وإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر متى صادف موقعه استهش الأنفس وآنق الأسماع وهز القراع ونشط الأذهان ، ولذلك تجد فرسان البلاغة الرامين في حذق البيان يستكثرون منه ، ومن أتقن الكلام في اعتبارات الإثبات وقف على اعتبارات النفي .

---

[1] البيت من السريع وهو لحجل بن نضلة الباهلي ، وهو شاعر جاهلي ، والبيت في دلائل الإعجاز للجرجاني ٣٠٤، ٣١٢ ، المفتاح للسكاكي ٢٦٣ ، الإيضاح ٢٤ ، والبيت الذي بعده

هلْ أحدثَ الدّهرُ لنا ذِلّةً   أم هلْ رنتْ أم شَقيق سلاحُ

والشاهد في قوله (إن بنى عمك فيهم رماح) وهو من تتريل العالم مترلة المنكر .

الفصل الثاني
في أحوال المسند إليه[1]

كالحذف والإثبات والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والإطلاق والتقييد بشيء من التوابع أو بالقصر على المسند.

أما حذف المسند إليه: فلكونه معلوماً، وتركه راجع لاتباع الاستعمال أو لضيق المقام، أو للاحتراز عن العبث، أو عن إيهام حوالة تأدية مفهومه على اللفظ دون العقل، أو لصونه على لسانك، أو لأن المسند لا يصلح إلا له، أو لغير ذلك مما لا يهدى إليه إلا العقل السليم والطبع المستقيم، فراجعهما في مثل قوله[2]:

قالَ لي: كيفَ أنتَ؟ قُلْتُ عَليلُ   سَهَرٌ دائِمٌ، وحزْنٌ طَوِيلُ

وقوله تعالى: ﴿**سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا**﴾ [النور: ١]، وقوله: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣] و﴿**طاعة مَعْرُوفَةٌ**﴾ [النور: ٥٣] على أحد القولين فيهما.

وأما إثباته: فلكونه غير معلوم أو معلوماً، وأريد زيادة إيضاحه وتقريره، أو إظهار تعظيمه، أو إهانته، أو التبرك بذكره، أو الاستلذاذ له، أو الاحتياط في إحضاره لخفاء القرائن، أو غباوة السامع، أو بسط الكلام افتراضاً لإصغاء السامع، كما فعل موسى -عليه السلام- إذ قيل له: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ**﴾ [طه: ١٧، ١٨] وزاد ﴿**أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ**

---

(١) المسند اصطلاحاً: المتحدث به، أو المحمول أو الخبر.
والمسند إليه: هو موضوع الكلام أو المتحدث عنه، ويسمى أيضاً: المحكوم عليه.

(٢) لم أعثر على قائله، وهو من الخفيف بلا نسبة في التبيان للطيبي ١/١٤٦، دلائل الإعجاز ٢٣٨، معاهد التنصيص ١/١٠٠، الإشارات والتنبيهات ٣٤، المفتاح ٢٦٦، شرح المرشدي على عقود الجمان ١/٥٢، الإيضاح للقزويني ٣٨، ١٥٦.
والشاهد في قوله (عليل) لأن التقدير: أنا عليل، وفي قوله (سهر دائم) لأن التقدير: حالي سهر دائم، والحذف فيه للاختصار والاحتراز عن العبث مع ضيق المقام بسبب الضجر.

أُخْرَى﴾[1] [طه : ١٨] ومثله : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء : ٧١] بسطوا الكلام ابتهاجاً منهم بعبادة الأصنام ، وافتخارا بمواظبتها ، منحرفين عن الجواب المطابق المختصر .

وأما تعريفه : فلكون المقصود إفادة السامع فائدة يعتد لمثلها ؛ فإن احتمال تحقق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة في تعريفه أقوى ، ومتى كان أقرب كانت أضعف . وبعد تحقق الحكم بحسب تخصيص المسند إليه وزيادة بعده بحسب تخصيص المسند ثم تخصيص المسند إليه ، إما لأنه أحد أقسام المعارف ، أو لما زاد على ذلك من كونه مصحوباً بأحد التوابع أو بالفصل.

وأما مجيئه مضمراً : فلكون المقام مقام حكاية أو خطاب أو إشارة ، أو إشارة إلى مفهوم ، بذكر أو علم ، كما في قوله [2] :

أرى الصبرَ محمودا وعنْهُ مذاهبُ ... فكيف إذا ما لم يكُنْ عنهُ مذهبُ
هُوَ المهربُ المنْجِي لِمَنْ أحْدَقَتْ به ... مَكَارهُ دَهْرٍ لَيْسَ عَنْهُنَّ مَهْرَبُ

ومن حق الخطاب أن يكون مع معين وقد يترك إلى غيره كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة : ١٢] على العموم تفظيعاً لحال المجرمين وبياناً ، لأنها من الظهور بحيث لا تختص براء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب .

وأما مجيئه علماً : فلكون المقام مقام إحضار له بما يخصه من الاسم كقولهم[3]:

---

[1] وفي ذكر المسند إليه هنا نكتة أخرى ، وهي أنه لما كان السؤال عن العصا وهي شيء معلوم لا يرتاب فيه ولا يحتاج إلى السؤال عنه ، فكأن ذلك أوقع في نفس موسى تشكيك السائل – سبحانه – له في حقيقة المسئول عنه ؛ فلجأ موسى إلى التأكيد بذكر المسند إليه ، وهنا أمر آخر ينبغي الالتفات إليه ، وهو مراعاة حال المتكلم ، حيث يدل ذلك الإطناب من موسى – عليه السلام – ما كان عليه من أريحية وائتناس بمخاطبة الذات العلية ورغبته في إطالة المقام ، والله تعالى أعلى وأعلم .

[2] البيتان من الطويل وهما لابن الرومي في ديوانه ٣١٥ ، المفتاح ٢٧٢ .

[3] البيتان من المتقارب وهو لمالك بن عويمر المعروف بالمتنخل الهذلي من قصيدة له في رثاء أبيه ، وكان يكنى أبا مالك ، وهو المذكور في صدر البيت (أبو مالك) ، المفتاح ٢٧٢ ، ديوان الهذليين ٢٧٧/٣ ، الإيضاح ٤٢ ، الحماسة ٥٥٢ : ١٠٧٩ .

أَبو مَالِكٍ قاصرٌ فَقْرَهُ   على نفسِه ومُشِيعٌ غِناهْ

أو تعظيم أو إهانة أو كناية أو ما شاكل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد : ١] أي يدا جهنمي .

وأما مجيئه موصولا : فلصحة إحضاره في ذهن السامع بواسطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى معين واتصل بذلك أن ليس لك أو لسامعك منه أمر معلوم سواه، أو أن تستهجن التصريح بالاسم أو تقصد زيادة التقرير كما في قوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [1][يوسف : ٢٣] أو توجه ذهن السامع إلى ما سيرد ليأخذ منه .

كقوله [2] :

والذي حارتِ البريَّةُ فيهِ   حيوانٌ مُستَحْدثٌ مِنْ جَمَادِ

أو الإيماء إلى وجه بناء الخبر : كقولك : الذين آمنوا لهم جنات النعيم ، والذين كفروا لهم دركات الجحيم .

أو إلى تعظيم شأنه : كقوله [3] :

إنَّ الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لنَا   بيتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وأَطْوَلُ

أو إلى تحقيقه كقوله [4]:

---

[1] قال الآلوسي : "والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر ما أمكن أو للاستهجان بذكره ، وإيراد الموصول دون امرأة العزيز مع أنه أخصر وأظهر لتقرير المراودة ؛ فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ولإظهار كمال نزاهته –عليه السلام– ؛ فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يدها ينادى بكونه –عليه السلام– في أعلى مدارج العفة" روح المعاني ٢١١/١٢ .

[2] البيت من الخفيف وصاحبه أبو العلاء المعري فى داليته المشهورة بسقط الزند ١٠٠٤/٢ ، الإيضاح ٥٩ ، المفتاح ٢٧٥، معاهد التنصيص ١٢٥/١ ، عقود الجمان ٦٨/١ ، وأراد بالحيوان المستحدث من جماد آدم عليه السلام .

[3] البيت من الكامل للفرزدق يفتخر ببيته في تميم على جرير ؛ لأنه كان من ذوي الشرف فيهم ، وليس المراد بالبيت الكعبة كما ذكر الدسوقي في حاشيته على المختصر ، انظر البيت في ديوانه ١٥٥ ، المفتاح ٢٧٥ ، الإيضاح ٤٤ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ٥٩/١ ، التبيان للطيبي ١٥٦/١ ، الإشارات والتنبيهات ٣٨ ، لطائف التبيان ٥٠ ، وقوله : سمك بمعنى رفع ، ودعائم البيت عماده ، والواحد دعامة .

[4] البيت من البسيط ، وقائله عبدة بن الطيب "واسم أبيه يزيد بن عمرو" أورده الجرجاني في الإشارات والتنبيهات ٣٨ ، المفتاح ٢٧٥ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ٥٩/١ ، الإيضاح ٤٤ ، التبيان للطيبى ١٥٥/١ ، تاج –
=

إنَّ التي ضرَبَتْ بيتًا مهاجرةً　　　بكوفةِ الْجندِ غالتْ وُدَّها غولُ

أو إلى تعظيم بشأن مذكور في الصلة ، أو إلى إهانة أو إلى تنبيه المخاطب على خطأ كقوله [١].

إنَّ الذينَ ترونَهُمْ إخوانكُمْ　　　يَشْفي غَلِيلَ صُدُورِهمْ أَنْ تُصْرعوا

وأما مجيئه اسم إشارة : فلصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة إليه حساً ، واتصل بذلك أن ليس لك أو لسامعك طريق إليه سواها ، أو أن يقصد كمال تمييزه كقوله [٢] :

وإذا تأمَّل شخصَ ضيفٍ مقبل　　　متسربلٍ سرْبالَ ليلٍ أغبرِ

أوما إلى الكوماءِ : هذا طارقٌ　　　نحرتْنِيَ الأعداءُ إنْ لم تنحري

أو أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس ، كقوله [٣] :

العروس ٣٤١/٢٤ ، وكوفة الجند هى مدينة الكوفة ، وروى أبو زيد (بكوفة الخلد) على أنه موضع ، وقال الأصعي: إنما هو (بكوفة الجند) والأول تصحيف ، والغول حيوان خرافي، والشاهد في أن ضرب البيت بالكوفة والهجرة إليها فيه إيماء إلى أن طريق بناء الخبر أمر من جنس زوال المحبة ، وهو مع هذا يحقق زوال المودة ويقره حتى كأنه دليل عليه .

(١) البيت من الكامل وهو لعبدة بن الطبيب ، وهو شاعر مخضرم ، ديوانه ٤٨ ، التبيان ١٥٦/١ ، المفضليات ١٤٧، شرح عقود الجمان ٦٧ ، معاهد التنصيص ١٠٠/١ ، المفتاح ٢٧٥ ، الإيضاح ٤٤، لطائف التبيان ٥١ ،

ترونهم ، تظنوهم ، غليل الصدور : الحق ، تصرعوا : تلاقوا مصرعكم وهلاككم .

(٢) البيتان من الكامل وردا في أمالي أبي علي القالي ٤٣/١ ، وقيل إن البيتين لرجل يمدح حاتماً ، وقيل إنهما لحسان بن ثابت ، وقيل إنهما لابن المولى محمد بن عبد الله بن مسلم ، وفي مجموعة المعاني أنهما للعلوي صاحب الزنج ، والبيتان فى المدح بالكرم ، وقبلهما بيتان في المدح بالشجاعة ذكرهما القالي في الأمالي ، الإيضاح ٤٥ ، المفتاح ٢٧٦، بلا عزو ، وقوله (أوما) تخفيف أوما بمعنى أشار ، والكوماء : الناقة الضخمة ، والطارق : النازل ليلاً — انظر البيتين في شرح المرشدي على عقود الجمان ٦١/١ .

(٣) البيت من الطويل وهو للفرزدق في ديوانه ٤١٨/١١ ، أساس البلاغة (جمع) الإشارات والتنبيهات ١٨٤ ، التبيان للطيبي ١٥٧/١ ، والمفتاح ٢٧٧ ، والإيضاح ٤٦ الثلاثة بتحقيق د / عبد الحميد هنداوي ، شرح المرشدي على عقود الجمان ٦٠/١ ، والتعريض بالغباوة ناشيء عن استعمال اسم الإشارة في آبائه وهم غائبون لموهم ، والأمر في قوله : (فجئني) للتعجيز .

أُولئك آبائي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ   إذا جَمعتنا يا جَرِيرُ المجامِعُ

أو بيان حاله في القرب أو البعد أو التوسط ، أو بقربه تحقيره وعليه ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ [البقرة : ٢٦] ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ويبعده تعظيمه كقولها ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [1][يوسف: ٣٢] : ونحوه﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة : ٢] ذهاباً إلى بعده درجة و لم تقل "فهذا" ويوسف حاضر ؛ رفعاً لمنزلته في الحسن وإظهاراً للعذر في الافتتان به ومثله ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ [الزخرف : ٧٢] ، أو خلاف تعظيمه كما تقول ذلك اللعين .

وأما مجيئه معرفاً باللام : فلكون المراد به إما نفس الحقيقة كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء : ٣٠]، أو العموم والاستغراق كنحو ﴿إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر : ٢] أو معهوداً بتقديم ذكر أو علم كقوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل : ١٥ ، ١٦] .

وأما مجيئه معرفاً بالإضافة : فلكونه لا معرف له غيرها ، أو أخصر منها ، والمقام مقام اختصار كقوله [2] :

هَوايَ مَعَ الركْبِ اليمانِينَ مُصْعِدٌ   جنيبٌ وجُثْماني بمكَّة مُوثَقُ

أو لكون الإضافة مغنية عن تفصيل غير واف بالحصر أو ممل .

كقوله [3] :

---

[1] القائلة هى امرأة العزيز ، واسم الإشارة عائد على يوسف عليه السلام .

[2] البيت من الطويل ، وهو لجعفر بن علبة الحارثي (شاعر مقل من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية) ، وكان مسجوناً بمكة فى جناية ، فزارته محبوبته مع ركب من قومها ، فلما رحلت قال فيها ذلك . انظر البيت في معاهد التنصيص ١/١٢٠ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١/٦٤ ، التبيان للطيبي ١/١٦٣ ، الإيضاح ٥١ ، المفتاح ٢٨٠ ، بلا نسبة في تاج العروس ١٢/١٨٢ .

[3] البيت من الطويل ، وهو لأبي السمط مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة الشيباني ، وبنو مطر قومه بطن من شيبان ، والغيل : الشجر المتجمع ، وخفان : مأسدة قرب الكوفة ، والأشبل : أولاد الأسود ، والشاهد فى قوله (بنو مطر) لإغناء الإضافة فيه عن تفصيل متعذر . انظر ديوانه ٢٥٧ ، الإيضاح ٥١ ، المفتاح ٢٨٠ ، التبيان ١/١٤٨ ، وبعده :

بَنو مَطَر يومَ اللقاءِ كَأَنَّهمْ   أُسودٌ لها في غِيل خفّانَ أَشْبُلُ

أو متضمنة مجازاً لطيفاً كقول الآخر [(١)] :

إذا كَوْكَبُ الخَرْقاءِ لاحَ بِسَحْرة   سُهَيْلٌ أذاعتْ غزْلهاَ في القَرائِبِ

أو تعظيم شأن المضاف أو المضاف إليه أو غيرهما : كما إذا قلت حضر عبد الخليفة أو حضر عبدى أو عبد الخليفة عند فلان ، أو خلاف تعظيمه : كما إذا قلت ولد الحجام عنده .

وأما وصف المعرف : فلكون الوصف مخصصاً له نحو زيد التاجر عندنا ، أو كاشفاً عنه كقولك "المتقى الذى يؤمن ويصلى ويزكى على هدى من ربه" فإنك لما وصفته بأساس الحسنات وعقبته بأسمى العبادات ، وذكرت الناهى عن الفحشاء والمنكر، فكأنك قلت : المتقى الذى يفعل الواجبات بأسرها ويجتنب الفواحش والمنكرات عن آخرها ، وكشفته كشفاً كأنك حددته ، ونحو﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ [المعارج : ١٩-٢١] .

وقول الشاعر [(٢)] :

- هم المانعون الجار حتى كأنما   لجارهم فوق السماكين منزل

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا   أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزل

(١) البيت من الطويل وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر ١٩٣/٣ ، خزانة الأدب ١١٢/٣ ، ١٢٨/٩ ، شرح المفصل ٨/٣ ، المفتاح ٢٨١ ، لسان العرب (غرب) ، و يروى "الغرائب" بدل "القرائب" والقرائب : الجمع من النساء – اللسان : (قرب) .

(٢) البيت من المنسرح وهو لأوس بن حجر بن عتاب زوج أم زهير بن أبي سلمى ، كان من أوصف الشعراء للحمر الوحشية والسلاح لا سيما القوس ، قال أبو عمرو بن العلاء ، كان أوس فحل مضرحتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه، كان كثير الأسفار ، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة ، عمرَّ طويلاً، و لم يدرك الإسلام ، كان غزلاً مغرماً بالنساء ، توفى نحو (٢قبل الهجرة ، ٦٢٠م) . انظر ترجمته في الأعلام ٣١/٢ ، وانظر ديوانه ٥٣ ، المفتاح ٢٨٣ ، الإيضاح ٥٥ ، والألمعي : الذكي المتوقد ، والبيت من قصيدة له في رثاء فضالة بن كلدة الأسدي ، وقبله :

أَيّتهاُ النفسُ أجمِلي جزعاً   إنّ الذى تحذرينَ قَدْ وقَعا

إن الذي جمع الشجاعة والنجـ   ـدة والبرَّ والتقى جمعا

وبعده : أَوْدَى فلا تنفعُ الإشاحةُ مِنْ   أمر لمرء يحاولُ البدعا

والبيت في لسان العرب (حظرب) و(لمع) ، ديوان الأدب ٢٧٣/١ ، معاهد التنصيص ١٢٨/١ ، ولأوس أو لبشر بن أبي حازم في تاج العروس (لمع) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢١٢/٥ .

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظــ ـــن كَأنْ قد رأى وقد سَمِعَا

أو مادحاً أو ذاماً ، أو مؤكداً نحو أمس الدابر لا يعود .

وحق الوصف أن يكون ثابتاً فى نفسه ومتحققاً ، فلا يكون طلباً إلا بتــأويل، كقولهم [(١)] :

جاءوا بمَذْقٍ هَلْ رأيتَ الذّئب قَطّ

تقديره جاءوا بمذق مقول عند رؤيته هذا القول لإيراده في لون الذئب بورقته.

وقرأ ابن عباس –رضي الله عنهما– **﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِـنْ فِرْعَوْنَ﴾** [الدخان : ٣٠ ، ٣١] على معنى أتعرفون من هو في شدة عتوه وفرط تفرعنـــه فما ظنكم بعذاب يكون المعذب به مثله ، ثم عرف حاله فى ذلك قائلا **﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًـا مِنْ الْمُسْرِفِينَ﴾** [الدخان : ٣١] .

وأما توكيده : فلدفع توهم المجاز أو الغلط أو النسيان .

وأما بيانه وتفسيره : فلكون المراد زيادة إيضاحه بما يخصه من الاسم ، قال الله تعالى : **﴿لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾** [النحل : ٥١] . شفع إلهين بـــاثنين وإلها بواحد رفعاً لاحتمال الجنسية ونصاً على الشخصية .

ومنه : **﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَـالُكُمْ﴾** [الأنعام : ٣٨] قرن فى الأرض "بدابة" و"ويطير بجناحيه" بطائر ؛ لبيان أن القصد من لفظ "دابة" ولفظ "طائر" إنما هو إلى الجنسين وإلى تقديرهما [(٢)] .

---

(١) البيت من الرجز للعجاج في ملحق ديوانه ٣٠٤/٢ ، خزانة الأدب ١٠٩/٢ ، الدرر ١١٠/٦ ، التبيـــان للطيـــي ١٦٥/١ ، وهو يصف قوماً أضافوه وأطالوا عليه ثم أتوه بهذا المذق ، وقبله :

حتىَّ إذا جنَّ الظّلام واختلَط

المَذْقُ : المزج والخلط ، المَذَقَةُ : الشربة من اللبن الممذوق – اللسان (مذق)

(٢) وقال الزمخشري : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط في جميع الأرضين الســـبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه . [الإيضاح ٥٦] والتعميم مستفاد من وقوع النكـــرة في سياق النفي ، والزيادة لدفع احتمال إرادة دواب أرض واحدة أو طيور جو واحد ، وجعل الاســـتغراق حقيقيـــاً في جميع الدواب والطيور .

وأما الإبدال : فلكون المراد نية تكرير الحكم ، وذكر المسند إليه بعد توطئة ذكره، نحو : جاءني أخوك زيد، ولقيت القوم أكثرهم ، وسلب عمرو ثوبه.

وأما العطف عليه : فلكون المراد التفصيل مع اختصار ، كنحو جاء زيد وعمرو وخالد ، ولقيت القوم حتى زيداً ، أو رد السامع إلى الصواب ؛ نحو : زيد جاء لا عمرو ، أو الشك أو التشكيك أو نحو ذلك .

وأما تنكيره : فلكون المقام للإفراد شخصاً أو نوعاً نحو : ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾ [النور : ٤٥] أي من نوع مختص بتلك الدابة أو من ماء مخصوص وهو النطفة ، أو لأنك لا تعرف من المسند إليه إلا جنسه ، أو يتجاهل ؛ كما قالوا ﴿**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [سبأ : ٧] كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما . وباب التجاهل فى البلاغة وإلى سحرها وإن شئت فانظر إلى لفظ "كأن" فى قول الخارجية [(١)]:

أيَا شجرَ الخابورِ مالكَ مورِقًا   كأنَّكَ لم تجزَعْ على ابنِ طريفِ

أو لأن السامع لا يعرف منه إلا ذلك القدر ، أو لأن فى شأنه ارتفاعاً أو انحطاطاً إلى حد يوهم أنه لا يمكن أن يعرف ، قال أبو السمط [(٢)] :

---

(١) البيت من الطويل وهو لليلى بنت طريف في الأغاني ٨٥/١٢ ، ٨٦ ، الحماسة الشجرية ٣٢٨/١ ، الدرر ١٦٣/٢ ، ولليلى أو لمحمد بن بجرة في سمط اللآلي ٩١٣ ، وللخارجية في الأشباه والنظائر ٣١٠، ديوان الخوارج ٢٣٩ ، وبلا نسبة في لسان العرب (خبر) ، الإشارات ٢٨٦ ، المفتاح ٢٨٧ ، الإيضاح ٣٢٩ – وفى هذا البيت ترثي ليلى بنت طريف أخاها الوليد حين قتله يزيد بن معاوية ، والخابور : نهر بديار بكر من العراق .

(٢) البيت من الطويل وهو لأبي الطمحان القيني في ديوان المعاني ١٢٧/١ وهو ولي ابن أبي السمط ، وقبله :

فتىً لا يبالي المدلجونَ بنورهِ   إلى بابهِ ألا تُضيءُ الكواكِبُ

ولا بن أبي السمط (حفيد مروان بن أبي حفصة) فى معاهد التنصيص ١٢٧/١ ، وزهر الآداب ٥٥١/١، ولمروان بن أبي حفصة في شرح شواهد المغني ٩٠٩ ، وبلا نسبة في أمالي القالي ٢٣٨/١ ، التبيان ١٧١/١ ، الإيضاح ٥٢ ، المفتاح ٢٨٩ ، ومعنى البيت أن ممدوحه الأول التنكير فيه للتعظيم ، والحاجب الثاني التنكير فيه للتحقير على سبيل المبالغة في النفي ، وفي قوله : (وليس له عن طالب العرف حاجب) قلب ، والأصل : وليس لطالب العرف حاجب عنه – انظر في الإشارات والتنبيهات ٤١ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ٦٦/١ ، مغني اللبيب ٥٧٧ .

له حاجبٌ في كلِّ أمر يَشينه وليسَ له عن طالبِ العرُفِ حاجبُ

وكمال الارتفاع فى شأن حاجب الأول ، والانحطاط فى شأن حاجب الثاني غير خاف . وقال الله تعالى : ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة : ٧] بالتنكير للتهويل وكذا : ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة : ٢٧٩] ، وقال ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة : ١٧٩] أي حياة عظيمة لامتناعهم بالقصاص عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا ، أو نوع من الحياة ؛ وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل ، لمكان العلم بالقصاص ، وقال ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] بالتنكير على معنى : وقدر يسير من رضوانه خير من ذلك كله لأنه سبب كل سعادة وفلاح ، فأما قوله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم :٤٥] دون عذاب الرحمن، فلقصد التهويل ، أو خلافه : إنى أخاف أن يصيبك نفيان[1] من عذاب الرحمن

وأما تقديمه على المسند : فلكونه أهم : إما لأن أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه ، وإما لأن له صدر الكلام ، وإما لأنه ضمير الشأن ، وإما لأن فى تقديمه تشويقاً إلى الخبر ليتمكن ، كقولك : صديقك الفاعل الصانع رجل صدوق ، وإما للتفاؤل كقولك سعد بن سعيد فى دارك ، وسفاك بن الجراح فى دار فلان . وإما لأن المطلوب كونه متصفاً بالخبر لا نفس الخبر كما إذا قيل لك كيف الزاهد العابد ؟ فتقول الزاهد العابد يشرب ويطرب ، وإما لتوهم أنه لا يزول عن الخاطر أو لأنه يستلذ فهو إلى الذكر أقرب ، وإما لأن التقديم ينبئ عن التعظيم ، أو زيادة التخصيص كقوله[2]:

---

[1] يعنى القليل . انظر لسان العرب [نفى] .

[2] البيتان من الوافر ولا يعلم قائلهما ، وهما في المدح بالشجاعة والحكمة والكرم ، وبنوقطن هم القوم الممدوحون ، وهمزز : تهيجهم للحرب ، العواتق : جمع عاتق ، وهو من الكتف موضع حمالة السيف ، وينسبان إلى النابغة الذبياني في ديوان المعاني ٣٤ ، وبلا عزو في الإيضاح ٦٠ ، المفتاح ٢٩٢ ، التبيان للطيبي ١٧٢/١ .

متَى تَهزرْ بني قطنٍ تجدْهمُ ... سيوفًا في عواتِقهمْ سيوفُ
جلوسٌ في مجالسِهم رزانٌ ... وإن ضيْفٌ أَلَمَّ فهُمْ خفوفُ

أو دل على العموم كما تقول كل إنسان لم يقم ، فيقدم ليفيد نفى القيام عن كل واحد من الناس لأن الموجبة المعدولة المهملة في قوة السالبة الجزئية المستلزمة نفى الحكم عن جملة الأفراد دون كل واحد منها ، فإذا سورت بكل وجب أن يكون لإفادة العموم لا لتأكيد نفى الحكم عن جملة الأفراد لأن التأسيس خير من التأكيد ، ولو لم تقدم فقلت : لم يقم كل إنسان ، كان نفياً للقيام عن جملة الأفراد دون كل واحد منها؛ لأن السالبة المهملة فى قوة السالبة الكلية المقتضية سلب الحكم عن كل فرد لورود موضوعها فى سياق النفي فإذا سورت بكل وجب أن يكون لإفادة نفى الحكم عن جملة الأفراد ، لئلا يلزم ترجيح التأكيد عن التأسيس . وهذا لما قال ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ أجابه النبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله : "كل ذلك لم يكن"[(١)] على معنى لا شئ من ذلك بكائن، و لم يقل "لم يكن كل ذلك" لئلا يرجع دليل الخطاب على أن بعض ذلك كائن . ولما قال أبو النجم [(٢)] :

قد أصبحتْ أمُّ الخيارِ تَدَّعي ... عليَّ ذنْبًا كلُّهُ لمْ أصْنعِ

رفع "كله" بالابتداء و لم ينصبه بأصنع لأنه أنكر صنع كل واحد من الذنوب فرفع على معنى لم أصنع شيئاً من ذلك ولو نصبه لكان إنكاراً لصنع الجميع وإقراراً بصنع بعضه .

---

(١) هذا حديث متفق عليه — رواه الإمام البخاري ٤٦٩/١ في المساجد : باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره — وفى الجماعة : باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس ، وفي السهو : باب إذا سلم في ركعتين أوفي ثلاث ؛ فسجد سجدتين قبل سجود الصلاة أو أطول ، وباب من لم يتشهد في سجدتي السهو ، وباب من يكبر في سجدتي السهو ، وفي الأدب : باب ما يجوز من ذكر الناس ، وفي خبر الواحد : باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق— ورواه الإمام مسلم (٥٧٣) في المساجد : باب السهو في الصلاة ، والسجود له — عن عمرو الناقد ، وغيره ، عن ابن عيينة ، عن أيوب ، عن ابن سيرين .

(٢) البيت لأبي النجم الفضل بن قدامة العجلي ، أورده الجرجاني في الإشارات ٢٥ ، التبيان للطيبي ٣٢١/١ ، الإيضاح ٢٨ ، المفتاح ٥٠٤ .

وأما قصره على المسند : فلرد السامع عن الخطأ في المحكوم به إلى الصواب. وله سيوغ وتفاريع . فالأولى أن نفرد به باباً في آخر القسم الأول من الكتاب .

وكثيراً ما يخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر فيوضع اسم الإشارة موضع المضمر اعتناء بتمييزه : إما لاختصاصه بحكم بديع كقوله [1] :

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أعيتْ مذاهبهُ ... وَجَاهلٍ جَاهِلٍ تلقاه مَرزوقاَ

هذا الذي تَرَكَ الأوهام حَائرةً ... وصيَّر العالِمَ النَّحرير زِنْديقاَ

وإما لقصد التهكم بالسامع أو النداء على كمال بلادته أو فطانته ، وإما لادعاء أنه ظهر ظهور المحسوس كقوله [2]:

تعاللتِ كي أَشْجَى وما بك عِلَّةٌ ... تريدينَ قتلي قد ظفرْتِ بذَلِكِ

ويوضع المضمر موضع المظهر كقولهم : ربه رجلا ، ونعم رجلا زيد . وقولهم: هو زيد قائم ، وهى هند مليحة ليتمكن في ذهن السامع ما يعقب الضمير، فإنه متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظراً لعقبى الكلام كيف يكون فيتمكن المسموع

---

(1) البيتان من البسيط وهما لأحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي الزنديق ، كان متكلماً في مذهب المعتزلة ، وتوفي سنة ٢٥٠هـ – أوردهما السكاكي في المفتاح ٢٩٤ ، الإيضاح ٧٦ ، شرح عقود الجمان ١٠٤/١ ، معاهد التنصيص ١٤٧/١ ، وقد أوردهما الطيبي في التبيان ثم قال بعدهما :

-أذهب الله عمى قلبه – فهلا قال :

كم من أديب فَهِم قلبهُ ... مستكمل العقل مُقلٍ عديم

ومن جهول مكثر ماله ... "وذلك تقدير العزيز العليم"

والشطر الثاني مقتبس من سورة الأنعام : الآية ٩٦ .

وعاقل الثانية وصف الأول ، والنحرير : الفطن الحاذق المجرب ، والزنديق : الكافر .

والشاهد فى اسم الإشارة لأن يعود إلى الحكم السابق عليه ، وهم كون العاقل محروماً والجاهل مرزوقاً ، فالمقام للضمير لأن هذا الحكم غير محسوس ، واسم الإشارة موضع للمحسوس .

(2) البيت من الطويل ، وهو لابن الدمينة في ديوانه ١٦/ الإيضاح ٧٦ ، المفتاح ٢٩٤ ، نهاية الإيجاز ١١٠ ، التبيان للطيبي ١٥٨/١ ، معاهد التنصيص ١٥٩/١ ، والشاهد في وضع اسم الإشارة موضع الضمير ؛ لأن الاسم الظاهر أن يقال قد ظفرت به أي القتل ، والداعي إلى ذلك هو ادعاء كمال ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر .

بعده فضل تمكن ، ويوضع المظهر موضع المضمر لزيادة التقرير ، كقوله تعالى : ﴿اللَّـهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص : ٢] وقوله : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَـزَلَ﴾ [الإسـراء: ١٠٥] أو تربية المهابة كما يقول الخليفة أمير المؤمنين يرسم كذا . وتقوية داعية المأمور ، وعليه : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . والاستعطاف كقوله [1] :

إلهي عبدُكَ العاصي أتاكَا

---

(1) البيت من الوافر وهو لإبراهيم بن أدهم ، وعجزه : مقرًا بالذُّنوبِ وَقَدْ دَعَاكَا .

وبعده : فإن تغفر فأنت لذاك أهل   وأن تطرد فمن يرحم سواكا

انظر البيت في الإشارات والتنبيهات ٥٥ ، المفتاح ٢٩٥ ، معاهد التنصيص ١/١٧٠ ، شرح المرشدي على عقـود الجمان ١/١٠٥ ، الإيضاح ٧٧ .

[الالتفات][1]

وقد ينقل كل من الحكاية والخطاب والغيبة إلى موضع الآخر ويسمى ذلك التفاتاً . وله ستة أقسام والعرب يستكثرون منه لأنهم يرون الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن تطرية لنشاطه وإملاء باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك فإن قرى الأضياف سجيتهم ، ونحر العشار للضيف دأبهم ، وما كانوا ليحسنوا قرى الأشباح فيخالفوا فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا يحسنوا قرى الأرواح ، فلا يخالفوا فيه بين أسلوب وأسلوب ، وإيراد وإيراد.

---

[1] الالتفات عرفه الطِّيبي تعريفاً دقيقاً في كتابه التبيان فقال : "هو الانتقال من إحدى الصيغ الثلاثة ، أعني الحكاية والخطاب والغيبة ، إلى الأخرى لمفهوم واحد رعاية لنكتة " التبيان ٣٤٧/٢ بتحقيقي ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة

وقد أفاد الطيبي من تنبيه ابن الأثير في المثل السائر ١٦٩/٢ على أن الالتفات لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، فالتفت الطيبي إلى ذلك ، ونص في تعريفه للالتفات على أنه إنما يكون رعاية لنكتة ، ويتفرد الطيبي بنصه على ذلك دون عامة البلاغيين المعاصرين له أو السابقين . وانظر في تعريف الالتفات : الزمخشري : الكشاف ١٠/١ ، والقزويني : الإيضاح ص٧٧ بتحقيقي ، والرازي في نهاية الإيجاز ٢٨٧ ، والعلوي في الطراز ١٣٢/٢ .

القسم الأول : نقل الحكاية إلى الخطاب

كقوله تعالى : ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1][يس : ٢٢] .

الثاني :

نقل الغيبة إلى الحكاية :

كقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩] .

والثالث :

نقل الخطاب إلى الحكاية :

كقول ربيعة بن مقروم [2] :

تذكرتَ والذكرى هَيجُك زينبا ... وأصبحَ باقي وصلِها قَدْ تقضَّبا

وقول علقمة بن عبدة[3] :

طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ ... بعيدَ الشبابِ عصرَ حان مشيبُ

تكلفني ليلَى وقد شَطَّ وليُّها ... وعادتْ عوادٍ بيننا وخطُوبُ

---

(1) والسياق يقتضي "وإليه أرجع" وإن كان الخطاب هو ظاهر المقام ؛ لأن قوله : "وما لي لا أعبد" تعريض بالمخاطبين ، والمراد "وما لكم لا تعبدون" وقيل : إنه لا التفات في قوله : "إليه ترجعون" لأنه يجوز إرادة المخاطبين فلا يكون في معنى "وإليه أرجع" ، وقيل : إن في قوله "وما لي" التفاتاً ، والحق أنه من التعريض لا من الالتفات .

(2) البيت من الطويل ، وهو في الإيضاح ٧٨ ، المفتاح ٢٩٧ ، المفضليات ٣٧٥ ، وبعده :

وحلَّ بَفلْجٍ فالأباترِ أهلُنا ... وشطتْ فحلّت غمرةً فمثقّبا

وفلج الباتر ، وغمرة مثقب : مواضع ، شطت : بعدت ، زينبا : منادى بأداة نداء مضمرة ، ونصب للضرورة مراعاة للقافية وردا للأصل ، فالأصل في المنادي النصب لكونه مفعولاً به ، والشاهد في نقل الحديث من الخطلب في قوله (تهيجك) إلى الغيبة في قوله (وصلها) .

(3) هو علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس ، من بني تميم ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، كان معاصراً لامرئ القيس ، وله معه مساجلات ، توفي نحو (٢٠قبل الهجرة) . انظر ترجمته في الأعلام ٢٤٧/٤ ، والبيتان "من الطويل" لعلقمة بن عبدة في ديوانه ٣٣ ، المفتاح ٢٩٧ ، الإيضاح ٧٩ . شرح المرشدي على عقود الجمان ١١٨/١ ، معاهد التنصيص ١٧٣/١ ، طبقات فحول الشعراء ١٣٩/١ ، الشعر والشعراء ٢٢١ ، العمدة ٥٧/١، خزانة الأدب ٣٩٢/٤ ، ٢٨٩/١١ ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ٩٩ ، ويروى "يكلفني" بدل "تكلفني" .

والرابع : **نقل الغيبة إلى الخطاب** : كقول الحارث بن حلزة[1] :

طرقَ الخيالُ ، ولا كَلَيْلَةِ مُدْلــجِ سَدِكاً بأرحُلِنا ولم يَتعــــرَّجِ
أنىَّ اهتديتِ لنا ، وكنتِ رجيلةً والقومَ قد قطعوا مِتانَ السَّجْسَجِ

ومثله قول جرير[2] :

متى كان الخيامُ بذِى طلوحٍ سُقيتِ الغيثَ أيتُهـــا الخيــامُ

والخامس : **نقل الحكاية إلى الغيبة**: كقوله تعالى: **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فصلّ لربك﴾** [الكوثر : ١،٢] .

والسادس: **نقل الخطاب إلى الغيبة**: كقوله تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾** [يونس : ٢٢] . وقد تختص مواقع الالتفات بلطائف معان كالذي في قولـه **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة : ٥] . فإنه منبه على أن من حق العبد إذا مثل بـين يدي مولاه ، وأخذ في القراءة ، أن يكون على وجه يجد معها من نفسه شبه محـرك إلى الإقبال على من يحمد والوجه أن تكون قراءته عن قلب حاضر يعقل فيم هو، وعند من هو ، فإنه متى افتتح كذلك مجرياً على لسانه "**الحمد لله**" وجد محركاً إلى الإقبال علـى من يحمد من معبود عظيم الشأن ، مستحق للثناء والشكر ، فإذا انتقل إلى قولـه "**رب العالمين**" واصفاً له بكونه رباً مالكاً للخلق كلهم قوى ذلك المحرك ، فإذا قال "**الرحمـن الرحيم**" فوصفه بما ينبئ عن كونه منعماً على الخلق بأنواع النعم تضاعف قوة ذلـك المحرك ، ثم إذا ختم الصفات بقوله : "**مالك يوم الدين**" المنادى على كونه مالكاً للأمـر كله يوم الحشر للثواب والعقاب لم يجد بداً من المصير إلى الإقبال على مولى شأنه مـا

---

[1] الحارث بن حلزة أبو ظليم ، اشتهر بمعلقته ، عَمَّرَ طويلاً حتى زعم الأصمعي أنه كان له من العمر خمس وثلاثـون ومائة سنة – عند إنشاء المعلقة ، والبيتان من الكامل ، وهما في ديوانه ٤٢ ، وشرح اختيـارات المفضـل ١١٣٧ ، وشعراء النصرانية ٤١٩ ، التنبيه والإيضاح ٢٠٩/١ ، سمط اللآلي ٤٩٠ ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ٦٤٦ ، لسـان العرب (سجج) ويروى (طاف) بدل (طرق) ، (بأرحلنا) و "أني اهتديت وكنت غير رجيلة" ، المفتاح ٢٩٨ .

[2] البيت لجرير في ديوانه ٤١٦ ، الطراز ١٤٠ ، شرح عقود الجمان ١٠٨ ، خزانة الأدب لابن حجة ٦٠ ، البديـع في نقد الشعر ٢٠١ ، نهاية الأدب ١١٩/٧ ، الكافي ١٨٥ .

تصورت قائلا "**إياك نعبد**" يا من هذه صفاته "**وإياك نستعين**" لا غيرك ، وإلا لم ينطبق على المنـــزل على ما هو عليه ، كالذي في قول امرئ القيس[1] :

تطـاول ليــلكَ بالأَثْمُدِ ... ونــام الخـلىُّ ولم ترقــد
وبــاتَ وباتت لــه ليلــةٌ ... كليلةِ ذي العائــرِ الأرمــدِ
وذلك مـــن نبــأٍ جــاءني ... وخُبِّرتُهُ عــن أبي الأســودِ

فإنه نبه في التفاته الأول على أن نفسه لورود ذلك النبأ عليها ولهـــت ولَــهَ الثكلى، فأقامها مقام مصاب لا يتسلى إلا بتفجع الملوك ، وتحزنهم عليـــه فخاطبـها بتطاول ليلك تسلية لها ، أو على أن نفسه لفظاعة ذلك النبأ أبدت قلقاً ، وكان مـــن حقها أن تتثبت فعل الملوك عند طوارق النوائب ، فلما لم تفعل ســـلكته في جهلتـها فأقامها مقام مكروب يسليه ونبه في التفاته الثاني على أن صدق تحزنه لا يتفاوت حاله، خاطب أو لم يخاطب ، ونبه في التفاته الثالث على أنه يريد نفسه ، أو نبه في الأول على أن ذلك النبأ أطار لُبهّ فما فطن معه لمقتضى الحال فجرى على لسانه ما يألفه الملوك من الخطاب أمراً ونهياً ، وفي الثاني على أنه بعد الصدمة الأولى حين أفاق بعض الإفاقة مـا وجد النفس معه فبنى الكلام على الغيبة ، وفي الثالث على ما سبق ، أو نبـــه في الأول على أن نفسه لما لم تصبر غاظه ذلك فأقامها مقام مستحق للعتاب قائلاً على وجـــه التوبيخ : تطاول ليلك ، وفي الثاني على أن الحامل على الخطاب لما كان هو الغضـــب

---

[1] امرؤ القيس : بن حجر الكندي ، أبوه سليل ملوك كندة ، توفي حوالي سنة ٥٦٠م ، والأبيات مـــن المتقـارب وهي في ديوانه ١٨٥ ، والمستقصى ٥٠/٢ ، الإيضاح ٧٩ ، وسمط اللآلي ٥٣١ ، معـــاهد التنصيـص ١٧١/١ ، خزانة الأدب ٢٨٠/١ ، التبيان ٣٤٩/٢ ، الطراز ١٤٠/٢ ، نهاية الأرب ١١٧/٧ ، المفتاح ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، وبـــلا نسبة في جمهرة اللغة ٧٧٥ ، معجم البلدان (إثمد) ، تاج العروس (ثمد) .

الأثمد : موضع ، الخلى : الخالي من الهموم ، وقوله "وبات وباتت له ليلة" بات الأولى تامة ، والثانية يجوز أن تكـون ناقصة وأن تكون تامة ، ويجوز أنه أراد "وبات في ليلة" فنسب الفعل إلى الليلة مجازاً ، والعائر : الذي في عينه قـــذى أو وجع ، وأبوه الأسود : كنية أبيه حجر ملك بني أسد ، والخبر الذي خبره عنه خبر قتلهم له – والالتفـــات الأول في قوله "ليلك" من التكلم إلى الخطاب ، والالتفات الثاني في قوله "وبات" من الخطاب إلى الغيبة ، والالتفات الثـالث في قوله "جاءني" من الغيبة إلى التكلم .

فحين سكت عنه قليلا ولى عنها الوجه وهو يدمدم قائلاً : وبات وباتت له ليلــة ، وفى الثالث على ما تقدم .

الفصل الثالث

في أحوال المسند

من الحذف والإثبات والتقديم والتأخير ، وكون المسند مفرداً أو جملة ، وفي إفراده من كونه فعلاً أو اسماً معرفا أو منكراً ، مقيداً بشيء من المقيدات أو مطلقاً وفى كونه جملة من كونها اسمية أو فعلية ، حملية أو شرطية .

أما حذف المسند : فلكونه معلوماً وتعلق بتركه غرض كاتباع الاستعمال أو الاحتراز عن العبث كقوله[1] :

قالتْ وقد رأتِ اصفرارِى : مَنْ به؟ وتنهدَتْ فأجبتُها : المتنهدُ

أى المتنهد هو المطالب أو تخيل أن العقل عند الترك هو مُعرِّفه وأن اللفظ عند الذكر هو مُعرِّفه ، وكم بين التعريفين ، ولك أن تأخذ منه : ﴿**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ**﴾ [التوبة :٦٢] أو اختبار فهم السامع وتنبهه للقرائن أو طلب تكثير الفائدة (لحمل الكلام) عليه تارة وعلى غيره أخرى كقوله تعالى ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ [يوسف : ١٨] و﴿**طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ**﴾ [النور : ٥٣] .

وأما إثباته : فلكونه غير معلوم ، أو معلوما وتعلق بذكره غرض كزيادة التقرير ، أو التعريض بغباوة السامع ، أو استلذاذه بالخبر ، أو قصد تعظيم المسند إليه ، أو إهانته ، أو التعجب منه كما إذا قلت : زيد يقاوم الأسد . مع دلالة القرائن ، أو بسط الكلام ، أو تعيين كون الخبر اسماً .

وأما تقديمه : فلكونه متضمناً ما له صدر الكلام ، أو مختصا بالمسند إليه نحو ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون : ٦] وقولهم تميمى أنا ، أو أهم عند القائل كما فى

---

[1] البيت من الكامل وهو للمتني من قصيدة يمدح بها شجاع بن محمد الطائي المنحي ، مطلعها :

اليومَ عهدكمُ فأينَ الموعدُ هيهاتَ ليس ليومِ عهدكمُ غَدُ

انظر البيت في شرح التبيان للعكبري ٢٢٩/١ ، التبيان للطيبي ١٧٤/١ ، الإيضاح ٨٨ ، المفتاح ٣٠٦ ، الإشارات والتنبيهات ٦١ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١٠١/١ .

نحو : عليه من الرحمن ما يستحقه ، أو عند السامع كقولك : هلك خصمك ، لمن يتوقع ذلك ، أو تقديمه (مشوقاً) إلى المسند إليه كقوله[1] :

وكالنار الحياةُ فمنْ رمادٍ أواخِرُها وأولُها دخانُ

أو رافع توهم كونه نعتاً كقوله[2] :

له هممٌ لا منتهى لكِبارِها وهمتُه الصغرى أجلُّ منَ الدهرِ

(وقال الله تعالى) : ﴿**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ**﴾ [البقرة : ٣٦] .

وأما كونه مفرداً : فلكونه المطلوب من التركيب نفس الحكم لا تقويه

نحو: أبو زيد عالم "وكر البر بستين" .

وأما كونه فعلا : فلكون المراد التخصيص بأحد الأزمنة على أخصر ما يمكن مع إفادة التجدد قال الله تعالى : ﴿**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة : ٧٩] أي فويل لهم مما أسلفوا من كتبه ما لم يكن يحل لهم وويل لهم مما يكسبون على ذلك بعد من أخذ الرشا ، وقال ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ [البقرة : ٨٧] أي فريقاً كذبتموه على التمام وفرغتم من تكذيبه وفريقاً تقتلون أي : لم يتيسر لكم على قتله التمام ، وإنما تبذلون جهدكم أن تتمموه ، فتحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم ، فأنتم بعدُ على القتل .

وأما تقييد الفعل بنحو المفعول والشرط لتربية الفائدة فيأتي الكلام عليه .

وأما كونه اسما : فلكون المراد إفادة خلاف التجدد والاختصاص بأحد الأزمنة.

---

(1) البيت من الوافر لأبي العلاء المعري ، أورده الجرجاني في الإشارات ٧٨ ، القزويني في الإيضاح ١٠٨ ، المفتاح ٣٢٤ .

(2) البيت من الطويل ، أورده الجرجاني في الإشارات ٧٨ ، الإيضاح للقزويني ١٠٧ ، المفتاح ٣٢٢ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ٧٧/١ "بتحقيقنا" وهو لحسان بن ثابت في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم– أو لبكر بن النطاح في أبي دلف الجمحي وهو الصحيح ، وقيل إنه لبعض الأعراب في أمير الأمراء .

وأما كونه منكراً : فلكونه وصفاً غير معهود ولا مختص بالمسند إليه ، أو منبهاً على ارتفاع الشأن أو انحطاطه . قال الله تعالى : ﴿**هدًى لِلْمتَّقِينَ**﴾ [البقرة : ٢]، وقال ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج : ١] .

أو يكون المسند إليه نكرة فأما نحو[1] :

كأنَّ سَبيئةً من بيتِ رأس ۞ يكونُ مِزاجُها عسلٌ وماءُ

فمن المقلوب كقولهم عرضت الناقة على الحوض . وللقلب شرع فى التراكيب، وهو مما يورث الكلام ملاحة ومنه قول القطامي[2] :

"كما طَيَّنْتَ بالفدنِ السِّياعا"

وقول الشماخ[3] :

"كما عصَبَ العلباءَ بالعودِ".

---

(1) البيت من الوافر لحسان بن ثابت ، وبعده :

على أنيابِها أو طعمُ غضيّ ۞ مَنْ التفاح عصَّرَهُ اجتناءُ

انظر ديوانه ٧١ ، المفتاح ٣١١ ، خزانة الأدب ٢٨٨/٦ ، معاهد التنصيص ١٧٨/١ ، الإيضاح ٨٥ ، والسبيئة: الخمر المشتراة للشرب ، وبيت رأس : بلد بالشام بين رملة وغزة ، شبه ريق محبوبته بخمر مزجت بعسل ، والقلب في قوله "يكون مزاجها عسل" قلب لفظي ؛ لأنه لا قلب فى المعنى ، وإنما القلب في اللفظ لأنه أتى بالمبتدأ "عسل" نكرة ، وعرَّف الخبر "مزاجها" بالإضافة ، والأصل فيهما العكس .

(2) الشطر للقطامي وهو عمير بن شييم بن عمرو بن عباد ، أبو سعيد التغلبي الملقب بالقطامي ، شاعر غزل فحل ، كان من نصارى تغلب في العراق ، وأسلم ، وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين ونقل أن القطلمي أول من لقب "صريع الغواشي" انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢٧٧ . والبيتين في وصف ناقته وهما من الوافر يقول فيهما :

فلمَّا أنْ جرى سمنٌ عليها ۞ كما طينت بالفدن السياعا
أمرتُ بِها الرِّجال ليأخذوها ۞ ونحنُ نظنُّ أن لن تستطاعا

انظر البيتين في ديوانه ٤٦ ، الإيضاح ٨٥ ، المفتاح ٣١٢ ، النوادر ٥٢٦ ، معاهد التنصيص ١٧٩/١ ، الفدن : القصر ، السياعا : الطين المخلوط تبنا تدهن به الأبنية ، يعني أن ناقته صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع .

(3) الشطر للشماخ بن ضرار ، المفتاح ٣١٢ ، العلباء : عصب العنق ، يقال : تَشنج علباء الرجل : إذا أسنَّ .

وقول العجاج[1] :

ومَهْمَةٍ مغبرةٍ أرجاؤُه   كأنَّ لون أرضه سماؤُه

وفى التنـــزيل ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[2] [النمل : ٢٨] .

وأما كونه معرفا : فلكونه متشخصا عند السامع بأحد طرق التعريف ، فـإن قلت إذا كان المسند عند السامع متشخصا والمسند إليه كذلك ، فماذا يستفيد ؟ قلت يستفيد : إما لازم الحكم كما في قولك : الذي أثنى على بالغيب أنت ، لمن علم أن ثناءه نقل إليك ولا يعلم حكمك على المثني بأنه هو ، أو أنت الذي أثنى على بالغيب لمن أثني عليك هو وغيره وأنت لا تعتبر إلا ثناءه . وإما نفس الحكم كما في قولك: أخوك زيد لمن يعرف أن له أخا وهو طالب للحكم عليه بالتعيين ، وزيد أخوك لمن يعرف زيداً وهو طالب حكما له لمتشخص بأحد طرق التعريف ، وزيد المنطلق لمن يطلب أن يعرف حكما لزيد باعتبار تعريف العهد أو تعريف الحقيقة واستغراقها ، والمنطلق زيد للمتشخص عنده المنطلق بأحد الاعتبارين وهو طالب للحكم عليه بالتعيين . والاستغراق نوعان : عرفي نحو : جمع الأمير الصاغة ، وعقلي نحو : الله غفار الذنوب . واستغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ومن هذا يظهر لطف قوله تعالى : ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم : ٤] دون العظام حيث توصل باختصار اللفظ إلى الإطناب فى معناه .

وأما كونه جملة : فلكون المراد تقوى الحكم بنفس التركيب ، نحو أنت عرفت، وزيد عرف ، والبر الكر بستين ، وبكر إن تعطه يشكرك . ثم كون الجملة

---

[1] البيت من الرجز لرؤبة بن عبد الله بن العجاج بن رؤبة التميمي السعدي ، أبو الجحاف، أو أبو محمد : راجز من الفصحاء المشهورين ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان أكثر مكانة في البصرة وأخذ عن أعيان أهل اللغة ، ومات فى البادية سنة ١٥٤ هـ وقد أسن ، انظر ترجمته فى الأعلام ٣٤/٣ ، وانظر ديوانه ٣ ، الإيضاح٨٤، المفتاح ٣١٣ ، الإشارات ٥٩ ، تأويل مشكل القرآن ١٥١ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١١٣/١ ، والمهمة: الأرض القفر والمفازة .

[2] وعلى تقدير القلب فيه يكون أصله : فانظر ماذا يرجعون ثم تولَّ عنهم .

فعلية أو اسمية هو بحسب ما يراد من التجدد والثبوت . وهذا يطلعك على أنه لما قال المنافقون ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة : ٨] جائين بجملة فعلية على معنى أحدثنا الدخول في الإيمان وأعرضنا عن الكفر ، طبق المفصل في الرد عليهم بقوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٨] .جملة اسمية مؤكدة النفي بالباء وعلى أن تفاوت كلام المنافقين مع المؤمنين ومع شياطينهم فيما يحكيه -تعالى- عنهم : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة : ١٤] قد أصاب شاكلة الرمي ، وعلى أن إبراهيم عليه السلام حين أجاب الملائكة عن قولهم : ﴿سلاماً﴾بالنصب بقوله "سلام" بالرفع قد كان عاملاً بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء : ٨٦] .

واعلم أن للفعل ولما يتعلق به اعتبارات فى الإثبات والحذف والتقديم والتأخير وكذا في التقييد بالقيد الشرطي .

فأما إثبات الفعل : فقد سبق التنبيه على أمثاله .

وأما تركه : فلكونه معلوماً وتعلق بتركه غرض كاتباع الاستعمال أو قصد الاختصار كما إذا وقع جواباً لاستفهام ظاهر كقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان : ٢٥] أو مقدر كقولك : يكتب لى القرآن زيد بناء على أنك لما قلت يكتب لي القرآن قدرت أنه قيل لك: من يكتبه ؟ فقلت : زيد . وعليه قراءة من قرأ ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رجال﴾ [النور : ٣٦] وبيت الكتاب[1] :

---

[1] البيت من الطويل للحارث بن ضرار النهشلي في رثاء يزيد بن نهشل ، وعجزه : ومختبط ما تطيحُ الطوائحُ

وقبله : سقى جدثاً أمسى بدوحةَ ثاوياً   منِ الدلوِ والجوزاءِ غادٍ ورائحُ

والبيت يُنسب أيضاً إلى ضرار بن نهشل ، والحارث بن نهيك ، ولبيد بن ربيعة ، والمزرد بن ضرار – انظر البيت في الإيضاح ٩٢ ، الخصائص ٢/٤٢٤ ، خزانة الأدب ١/٣٠٣ ، شرح شواهد الإيضاح ٩٤ ، المفتاح ٣٣١ ، الكتاب لسيبويه ١/١٤٥ ، معاهد التنصيص ٢/٢٠٢ ، المفصل ، شواهد الهمع ، والشاهد في حذف فعل "ضارع" إذ التقدير : "يبكيه ضارع" .

لُيبكَ يزيدُ[1] **ضارعٌ لخصومه**

ومنه ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام : ١٠٠] . وفي هذا التقدير والبناء عليه مزايا من الحسن على قولنا : يكتب إليَّ القرآن زيد ، فإن الكلام متى نسج على ذلك المنوال كان أبلغ من وجوه ، وهو أنه يفيد إسناد الكتبة إلى الفاعل إجمالا أولا، وتفصيلا ثانياً ، ويغني عن الإخبار بكتابة القرآن والسؤال عن كاتبه وجواب السؤال، وكأن كل من لفظي القرآن وزيد عمدة غير مستغنى عنه و لم يكن أول الكلام مطمعاً في ذكر الفاعل ، فإذا ورد على السامع كانت حاله كمن تيسرت له غنيمة من حيث لا يحتسب .

وأما ترك مفعوله : فلكون المراد المبالغة بترك التقييد أو القصد إلى نفس الفعل وتنـزيل المتعدى منه منـزلة اللازم أو إلى الاختصار لنيابة القرائن ذاهباً فى نحو : فلان يعطى ويمنع ، إلى معنى يعطى كثيرا ، ويمنع كثيراً ، أو إلى معنى يفعل الإعطاء والمنع ويوجد حقيقتها . وفي نحو ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٢] إلى معنى وأنتم من أهل العلم . أو إلى معنى وأنتم تعلمون أنها لا تماثله ، ولا تفعل مثل فعله كما قال البحترى[2] :

شَجْوُ حسَّادِه وغيظُ عِداه ... أن يَرى مبصرٌ ويسمعَ واعي

المعنى أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع مآثره ، ولكنه حذف للإيماء إلى أن الممدوح فرد فى الفضائل ، فلا يقع بصر إلا عليها ، ولا يعي مستمع إلا إياها حتى كفى فى شجو حساده علمهم بأن هاهنا مبصراً أو سامعاً . وفى نحو ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل : ٩] ونحو ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص : ٢٣] إلى معنى ولو شاء هدايتكم ، ويسقون مواشيهم وتذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء مواشيهم .

---

[1] في الأصل (زيد) وهو خطأ .

[2] البيت من الخفيف وهو للبحتري ، انظر ديوانه ١٤٤ ، وأورده الجرجاني في الإشارات ٨١ ، الإيضاح ١١٠.

ومن النادر في ذلك قول البحتري[1] :

قدْ طَلبنا فلمْ نجِدْ لكَ في السؤْ ... دُدِ والمجْدِ والمكارِمِ مثلا

لما فيه من حسن الاستغناء بالتصريح بنفي وجود مثل للممدوح عن التصريح بطلب مثل له . وقد يترك المفعول رعاية للفاصلة كما في سورة الضحى . أو استهجانا لذكره كقول عائشة رضي الله عنها **"ما رأيت منه ولا رأى مني"** .

وأما اعتبار التقديم والتأخير : فعلى ثلاثة أنواع :

الأول : أن يقع بين الفعل وما هو فاعل معنى نحو : أنا عرفت ، وأنت عرفت، وهو عرف ، دون : زيد عرف ، ومقتضاه توكيد الحكم . أو الاختصاص ، كما تقول: أنا كفيت مهمك على معنى وحدى ، أو لا غيرى وفي قولهم : **"أتعلمني بضب أنا حرشته"**[2] شاهد صدق عند من له ذوق . وكذا قوله تعالى : **﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾** [هود : ٩١] أي العزيز علينا يا شعيب رهطك لا أنت ، لكونهم من أهل ديننا ، ولذلك أجابهم بـ **﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾** [هود : ٩٢] أي من نبي الله . ولو كان قولهم على معنى ما عززت علينا لما كان الجواب مطابقاً ، ولذلك نهوا أن يقال ما أنا سعيت في حاجتك ولا أحد سواى .

---

(١) البيت من الخفيف وهو للبحتري ، انظر ديوانه ١٦٥٣ وأورده القزويني في الإيضاح ١١٣ .

(٢) انظر جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، ومجمع الأمثال للميداني ٣١٣/١ ، ولسان العرب حرش" قال الأزهري : قال أبو عبيد : ومن أمثالهم في مخاطبة العالم بالشيء من يريد تعليمه :
أتعلمني بضبٍّ أنا حرشته ؟ قال ابن سيده : ومن أمثالهم : هذا أجل من الحرش ،

وأنشد الفارسي : ومُحترِش ضب العداوَة مِنهُمُ ... بحلْو الخلى حرش الضباب الخوادع

ويضرب مثلا لمعرفة الشيء من وجوهه ، وأصل الحرش : الأثر بالشيء ، وهو هنا بمعنى الإثارة ، وهو أن تثير الضب جحره ، فتستخرجه ؛ والمثل المعروف : "هو أجلُ من الحرش" .

وأصله في رموزهم أن الضبَّ كان ينعقُ الحرش لحسوله – "وهى أولاده" ، [الواحد حِسل] ويقول لهن : إذا أَحْسَسْتنَّ بالحرش فاصبرن ولا تخرجن من حجرتكنَّ ؛ فَصِيدَ الضبُ ذات يوم فوضع رأسه على حجر ، وشُدخ بحجر آخر ، فقلت له : أهذا الحرش ؟ فقال هذا أجلُّ من الحرش هذا الموت .

النوع الثاني : أن يقع بين الفعل والمفعول ونحوه : والمقتضى له التوكيد والتخصيص كما تقول : زيداً عرفته ، على دعوى ثبوت المعرفة له واختصاصها به ولذلك نهوا أن يقال : ما زيداً ضربت ولا أحداً من الناس . وما زيداً ضربت ولكن أكرمته ، لأن الخطأ لم يقع في الضرب فترده إلى الصواب فى الإكرام وإنما وقع في المضروب فرده إلى الصواب أن تقول : ولكن عمراً ، وتسمع المفسرين يقولون قوله تعالى : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ [الفاتحة : ٥] في معنى نخصك بالعبادة ولا نعبدك . وقوله ﴿**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [النحل : ١١٤] معناه إن كنتم تخصونه بالعبادة .وقوله ﴿**وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة : ٤] قدم فيه الظرف تعريضا بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب ليست بالآخرة ، وإيقافهم بمثلها ليس من الإيقان بالآخرة التي هي عند الله في شيء . وقوله : ﴿**وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً**﴾ [النساء : ٧٩] اللام فيه للاستغراق لا للعهد لئلا يفيد اختصاص الرسالة بالعرب ، ولا للجنس لئلا يفيد اختصاصها بالإنس . وقوله : ﴿**لاَ فِيهَا غَوْلٌ**﴾ [الصافات : ٤٧] قدم فيه الظرف تعريضا بخمور الدنيا ، والمعنى هي على الخصوص لا تغتال العقول اغتيال خمور الدنيا. وقوله:﴿ **لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ [البقرة :٢] لم يقدم فيه الظرف على الاسم لئلا يفيد اختصاص نفى الريب بالقرآن العظيم. ويرجع دليل الخطاب على أن ريباً في سائر كتب الله .

النوع الثالث : أن يقع بين ما يتصل بالفعل والمقتضى له أن تكون العناية بما تقدم أتم وإيراده في الذكر أهم : إما لأن أصله التقدم ولا مقتضى للعدول عنه كالفاعل في نحو: ضرب زيد عمراً ، وكالمفعول الأول في : أعطيت زيداً درهماً ، وإما لكونه نصب عينك والتفات خاطرك إليه في التزايد ، كما إذا قيل لك ما تتمنى ؟ فتقول وجه الحبيب أتمنى ، وإما لعروض ما صيره ، كما إذا توهمت من سامعك أنه منتظر له فتبرزه في معرض ما يتكرر في شأنه التقاضي فحيث تجد لذكره مجالا لم تلبث أن تورده أو كما إذا وعدت ما وقوعه (أوقع عندك) في الاستبعاد فإنك تجد من الإنكار له ما يستتبع زيادة في القصد والاعتناء بذكره . أو كما إذا كان في التأخير إخلال ببيان المعنى أو بالتناسب . وهذه أمثلة من القرآن الكريم تستضيء بها. قال الله –تعالى– في

يس : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس : ٢٠] فقدم المجرور على المرفوع لكون ما قبله اشتمل على سوء معاملة أهل القرية رسل عيسى عليه السلام، وأنهم أصروا على تكذيبهم وكان مظنة أن يلعن السامع تلك القرية على سوء منبتها مجيلا في فكره : أكانت بجملتها كذلك ، أم كان فيها قطر دان أو قاص منبت خير؟ منتظراً لمساق الحديث هل يلم به ، فصار لهذا العارض مهما ، فلما جاء موضع له صالح ذكر. وقال تعالى في النمل : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا﴾ [النمل : ٦٨] فقدم المنصوب على المرفوع لأنه إشارة إلى مضمون ما قبله من الإحياء للكفار ولآبائهم بعد كونهم تراباً ولا شبهة أنه أدخل في الاستبعاد واستلزام زيادة الاعتناء من الإحياء لهم بعد كونهم تراباً وعظاماً كما في المؤمنين فكان لهذا العارض أهم . وقال تعالى في المؤمنين ؛ أولا : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون : ٢٤] فذكر المجرور بعد صفة المرفوع وهو موضعه. وثانياً ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون : ٣٣] فقدم المجرور رفعاً لتوهم كونه من صلة الدنيا واشتباه أمر القائلين أهم من قومه أم لا ؟ وقال تعالى في طه : ﴿رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه : ٧٠] وفي الشعراء ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء : ٤٨] رعاية للفاصلة.

<u>أما تقييد الفعل بالشرط</u> : فله اعتبارات يكشف عنها الوقوف على ما بين أدواته من التفاصيل وهى : إن وإذا وإذ ما ومتى وأين وحيثما ومن ومهما وأي وأنى ولو .

<u>فأما إن</u> : فللخلو عن الجزم بوقوع الشرط وتستعمل في مقام الجزم تجاهلا أو لكون المخاطب غير جازم كقولك: إن صدقت فماذا تعمل؛ أو منزلا منزلة الجاهل كما تقول لابن لا يراعى حقك : إن لم أكن لك أبا فكيف تراعى حقي .

وأما إذا : فللقطع بوقوع الشرط تحقيقاً أو باعتبار ما ، ولذلك غلب لفظ الماضي معها على المستقبل لكونه أقرب إلى القطع بالنظر إلى لفظه . قال الله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾

[الأعراف : ١٣١] بلفظ إذا في جانب الحسنة حيث أريد الحسنة المطلقة المقطوع بها كثرة وقوع واتساعا ولذلك عرفت ؛ وبلفظ إن في جانب السيئة مع تنكيرها تقليلا لهـا إذ لا تقع إلا في الندرة ولا تقع إلا في شيء منها. فأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾[الروم:٣٣] فلفظ إذا فيه للنظر إلى لفظ المس وتنكير الضر المفيد في المقام التوبيخي القصد إلى اليسير من الضر ، وإلى الناس المستحقين أن يلحقهم كل ضر فأما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة : ٢٣] ، فلفظ إن فيه : إما للتنزيه عن الريبة لاشتمال المقام على ما يقلعها ، وتصور أنها من العاقل حقيقة بالانتفاء ، واجب أن لا تورد إلا على طريق الفرض كما تفرض المحالات إذا تعلق بفرضها أغراض كقوله ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر : ١٤] وإما لتغليب غير المرتابين ممن خوطبوا على مرتابيهم ، والتغليب باب واسع يجرى فى كل فن . قال الله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص :٧٣] وقال : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود : ١٢٣] وقال : ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى : ١١] خطاباً شاملاً للأنعام والعقلاء المخاطبين منهم والغائبين . ومنه قولهم : الأبوان والقمران والمشرقان والخافقان . وعند النحويين أن : إذ في **إذ ما** مسلوب الدلالة على معناه الأصلي منقول إلى الدلالة على الشرط في المستقبل .

ومتى : لتعميم الأوقات .

وأين : لتعميم الأمكنة .

وحيثما : مثلها .

ومن : لتعميم أولى العلم .

وما : لتعميم الأشياء .

ومهما : أعم منها .

وأي : لتعميم ما يضاف إليه .

وأنى : لتعميم الأحوال .

والمطلوب بهذه الكلمات ترك تفصيل إلى إجمال لكونه مملا أو غير واف

بالحصر ، ولكون الجزاء والشرط بغير "لو" تعلق أمر بحصول ما ليس بحاصل استلزم ذلك في جملتيه امتناع أن تكون إحداهما طلبية أو ماضية أو اسمية ، وإنه لا يصار إلى نحو : "إن تكرمني فأكرم زيداً وإن أكرمتني أكرمتك ، وإن تكرمني فأنت مكرم" إلا لتوخى نكتة كالتنبيه على قوة الأسباب المقتضية لترتيب الجزاء ، أو على أن ما هو للوقوع كالواقع نحو قولك : إن مت ، وكالتفاؤل أو إظهار الرغبة في وقوعه كقولك: إن ظفرت بحسن العاقبة فذاك ، أو إبراز المقدر في معرض الملفوظ به لانصباب الكلام إلى معناه كقولك : إن أكرمتني الآن فقد أكرمتك أمس ، أو التعريض نحو ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ﴾ [البقرة : ١٤٥] . ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ [الزمر : ٦٥] . ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٠٩] . ومثله من التعريض ﴿ومالِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢] ولذلك قال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون﴾ [يس : ٢٢] وكذا ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُون إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِين﴾ [يس : ٢٣،٢٤] ولذلك قال : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون﴾ [يس : ٢٥] وكذا ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] ﴿قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُون﴾ [سبأ : ٢٥] .

وهذا الأسلوب من الكلام يسمى المنصف .

وأما "لو" فلتعليق ما امتنع بامتناع غيره فيستلزم في كل من جملتها عدم الثبوت والمضى وإن المصير إلى المضارع في نحو "ولو ترى" للتنبيه على تنزيل المستقبل منزلة الماضي بالمقطوع به لصدوره عمن لا خلاف في إخباره ، على حد قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر :٢] في أحد القولين . وفي نحو : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات : ٧] لتصوير استمرار امتناع الطاعة فيما مضى وقتاً فوقتاً على حد قصد الاستمرار حالا فحالا بيستهزىء من قوله : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة : ١٥] بعد قوله : ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة ١٥] ولك أن ترد الغرض من لفظ ترى ويود ويطيعكم إلى استحضار صورة الظالمين قائلين لما يقولون ، وصورة ودادة الكفار لو أسلموا وصورة طاعته لهم . كما قال تعالى

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر : ٩] استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية .

وكما قال تأبط شرا [(١)] :

بأني قد لقيتُ الغولَ تهوِي ... بسهب كالصحيفةِ صَحصحانِ

فأضربُها بلا دَهَش فخرَّت ... صريعاً لليدين وللجرانِ

مصوراً لأهله الحالة التي تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يتطلب منهم مشاهدتها تعجيباً من جرأته وثباته . وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٥٩] دون كن فكان من هذا القبيل . وأمثال هذه اللطائف لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني .

---

(١) البيتان من الوافر لتأبط شراً ، أوردهما الجرجاني في الإشارات ٧١ ، الإيضاح ١٠٣ ، المفتاح ٣٥٥ ، وقد أورد القزويني ، الجرجاني تمام الأبيات :

ألا من مُبلغٍ فتيان فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عندَ رحا بطانِ

بأني قد لقيت الغول تهوي ... بسَهْبٍ كالصَّحيفةِ صَحْصَحَانِ

فقلت لها كلانا نضو أرض ... أخو سفر ، فخلي لي مكانِ

فشَدَّتْ شَدَّةً نحوي، فأهوَتْ ... لها كفيٌّ بمصْقول يَمَانِ

فأضربُها بلا دهش ، فخرت ... صريعا لليدينِ وللجرانِ

فهم : حي من العرب ، رحا بطان : موضع ، الغول : من أقوالهم فيها أنها : ساحرة الجن – شيطان يأكل الناس – دابة رأتها العرب وقتلها تأبط شراً – من يتلون من السحرة أو الجن ، تهوي : تسرع ، السهب والصحصحان: ما استوى من الأرض في سهولة ، النضو : الهزيل ، أهوت : أراد ارتفعت ثم سقطت عليها ، مصقول : سيف مجلو ، يماني : سيف يمني ، خرت : سقطت ، صريعاً : مصروعة ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث، الجران : مقدم العنق من المذبح إلى المنحر ، وتأبط شرا : لقب ثابت بن جابر ، الشاعر الصعلوك الجاهلي .

الفصـــل الرابع

في أحوال انتظام الجمل

وفيه بــابـــان :

البـــاب الأول

في الفصل والوصل

وهو ترك العطف بين الجمل التي لا موضع لها من الإعراب وذكره ، فالجملة متى نزلت مما قبلها منزلة العارية عنه ، لأنه أريد قطعها عنه أو إبدالها منه ، أو منزلة نفسه لكمال اتصالها به لكونها موضحة له أو مبينة أو مؤكدة له لم تكن موضعاً لدخول الواو ، وكذا إذا لم يكن بينها وبين الأولى جهة جامعة لكمال انقطاعها عنها ، وإنما يكون موضعاً لدخولها إذا توسطت بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع ، ولكل من ذلك مقام يقتضيه ، **فالمقتضى للقطع نوعان :**

الأول : أن يكون للكلام السابق حكم لا يشركه الثاني فيه فيقطع : إما احتياطاً حيث يكون الكلام السابق "ما" يصح العطف عليه كقوله[1] :

وتَظنُّ سلمَى أنني أبغِي بها بدلاً ، أراها في الضَّلالِ تَهيمُ

لم يعطف "أراها" على "تظن" لئلا يوهم أنه عطف على أبغي ، وإما وجوباً حيث المانع من العطف موجود كما في قوله تعالى : **﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾**[البقرة : ١٤، ١٥] قطع الله يستهزئ بهم لامتناع عطفه على إنا معكم لأنه ليس من قولهم ، وعلى خلوا ، وقالوا ، لعدم اختصاصه بالظرف المقدم ؛ فإن استهزاء الله بهم متصل في شأنهم ، خلوا إلى شياطينهم أو لم يخلوا ، قالوا تلك المقالة أو لم يقولوها . ومثله : **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾** [البقرة : ١١ ، ١٢] .

---

[1] البيت من الكامل ، وهو بلا نسبة في الإيضاح ١٥٥ ، المفتاح ٣٧٠ ، التبيان ٢١٨/١ .

النوع الثاني : من القطع أن يكون الكلام السابق بفحواه كالمورد للسؤال . فينزل ذلك الواقع ، فيستأنف الكلام الثاني جواباً لذلك السؤال فيقطع وينزل السؤال منزلة الواقع قلما يصار إليه إلا لتنبيه السامع على موقعه،أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء ، أو لنحو ذلك . ومن أمثلة الاستئناف(١) :

زعمَ العواذلُ أنني في غمْرةٍ ، صدقوا ، ولكنْ غمْرتي لا تَنْجلي

لم يعطف صدقوا على زعم العواذل ، لأنه حين أبدى الشكاية بقوله : "زعم العواذل أنني في غمرة" ، كان ذلك مما يحرك السامع عادة ليسأل هل صدقوا في ذلك أم كذبوا ، فصار هذا السؤال مقتضى الحال فبنى عليه تاركا للعطف على ما هى عليه إيراد الجواب عقيب السؤال . ومنها قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْت بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٣١] فإن الفصل فيه للسؤال الذي يستصحبه تصور مقام المقاولة من نحو فماذا قال موسى فماذا قال فرعون . وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات : ٢٤ –٢٨] ، قدر مع قوله : فقالوا سلاماً : ماذا قال إبراهيم وقت السلام ؟ ومع قوله فقربه إليهم : ماذا قال إبراهيم وقت التقريب؟ ومع قوله: فأوجس منهم خيفة : ماذا قالوا حين رأوا منه ذلك ، وسلوك هذا الأسلوب في القرآن كثير .

---

(١) البيت من الكامل ، وهو بلا نسبة في الإشارات ١٢٥ ، الإيضاح ١٥٧ ، المفتاح ٣٧٢ ، التبيان ١٤٢ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١٨٢ ، العلوي في الطراز ٤٧/٢ ، الغمرة : الشدة والحَيْرةُ .

ويقول الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز أنه لو قال : ("زعم العوازل أنني في غمرة وصدقوا" لكان يكون لم يضع في نفسه أنه مسئول ، وأن كلامه كلام مجيب) الدلائل ٢٣٦ .

وأما المقتضى للإبدال : فأن يكون الكلام السابق غير واف بتمام المراد والمقام مقام اعتناء بشأنه لكونه مطلوباً في نفسه أو فظيعاً أو غريباً أو عجيباً أو لطيفاً أو نحو ذلك فيعيده المتكلم بنظم أوفى منه على نية الاستئناف والقصد إلى المراد لتظهر من المجموع زيادة الاعتناء بالشأن ، مثاله[1] :

أقُولُ لَهُ : ارْحَلْ ، لا تُقِيمنَّ عِنْدَنَا

وإلا فَكُنْ في السرِّ والجهْرِ مُسْلِما

أبدل لا تقيمن عندنا من ارحل ؛ لأنه أوفى بتأدية إظهار الكراهية لإقامته من قوله ارحل ، لدلالة لا تقيمن عندنا على طلب تركها بالمطابقة مع التأكيد ، ودلالة ارحل عليه بالالتزام من غير توكيد ، ومنه : ﴿**بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ [المؤمنون :٨١، ٨٢] ،﴿**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الشعراء : ١٣٢-١٣٤] ، ﴿**قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [يس : ٢٠،٢١] .

وأما المقتضى للإيضاح : فأن يكون بالكلام السابق نوع خفاء والمقام مقام إزالة له كقوله تعالى : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [البقرة : ٨ ، ٩] لم يعطف يخادعون على يقول لكونه مبيناً ، لأنهم كانوا يوهمون بألسنتهم أنهم آمنوا وما كانوا مؤمنين ، قد كانوا في حكم المخادعين . وقال تعالى : ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى**﴾ [طه : ١٢٠] .

وأما المقتضى للتأكيد : فأن لا يظن السامع بالكلام السابق تجوزاً أو غلطاً أو نسياناً ، فتعقبه بما يرفع توهم ذلك كما في قوله تعالى :﴿ **آلم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ**

---

[1] البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في خزانة الأدب ٢٠٧/٥ ، ٤٦٣/٨ ، مجالس ثعلب ٩٦ ، معاهد التنصيص ٢٧٨/١ ، مغني اللبيب ٤٢٦/٢ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١٧٨/١ ، الإيضاح ١٥٤ ، المفتاح ٣٧٦ ، الإشارات ١٢٣ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ٨٧/١ .

﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢،١] فإنه لما بولغ في وصف الكتاب العزيز ببلوغه الدرجة العليا في الكمال فجعل المبتدأ لفظة ذلك وعرف الخبر باللام كان عند السامع قبل أن يتأمل مظنة ما يرمي به على سبيل الجزاف من غير إتقان . فأتبعه "لا ريب فيه" مسوقاً لوصف التتريل بكونه هادياً ، أتبعه هدى للمتقين تقريراً له . وكذا قوله : **﴿مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** [يوسف : ٣١] وقوله : **﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾** [لقمان : ٧] .

وأما المقتضى لكمال الانقطاع : ما بين الجملتين فنوعان :

الأول : أن يختلفا خبراً وطلباً والمقام عار عما يزيل الاختلاف : كقوله[1] :

فقال قائِلُهم أرسوا نُزَاوِلُها ... فكلُّ حتفِ امرئٍ يجري بمقدارِ

وكقولهم : مات فلان رحمه الله ، ولا تدن من الأسد يأكلك .

الثاني : أن يتفقا خبراً أو طلباً وليس بينهما جامع : مثل : أن تقول : كان معي فلان فقرأ . ثم خطر ببالك أن المخاطب جوهري ولك جوهرة لا تعرف قيمتها ، فتعقب كلامك بأن تقول لي : جوهرة لا أعرف قيمتها فهل أريكها ، فتفصل . أو بينهما جامع غير ملتفت إليه لبعده ، كقولك : كتاب سيبويه كتاب لا نظير له ولا غنى لامرئ في اقتناء العلوم الإسلامية عنه وأنه فيها أساس ، أي أساس ، أن الذين يرضون بالجهل لا يدرون ما العلوم ، وما أساس العلوم ، فتفصل أن الذين يرضون بالجهل عما قبله ؛ لكونه حديثا عن كتاب سيبويه ، ويكون ما بعده حديثاً عن الجهال وسوء ما أمرهم به جهلهم . وقوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**

[1] البيت من البسيط وهو للأخطل وهو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي النصراني شاعر أموي ، المفتاح ٣٧٩ ، بلفظ "رائدهم" وكذا القزويني في الإيضاح ١٥١ ، والطيبي في التبيان ١/٢٢٤ –نزاولها : نعالجها .
والمعنى : أي أقيموا نقاتل ؛ فإن موت كل نفس يجري بقدر الله تعالى ، لا الجبن ينجيه ، ولا الإقدام يرديه .

﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1][البقرة : ٦] ؛ بالقطع من هذا القبيل ، والبعد ملزوم للانقطاع ؛ لأن الواو للجمع فالعطف بها فيما نحن فيه كالجمع بين الضب والنون . ولهذا عيب على أبي تمام قوله[2] :

لا والذي هو عالمٌ أنَّ النَّوَى   صَبِرٌ وأنَّ أبا الحسينِ كريمُ

<u>وأما المقتضى للتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع</u> : فأن يكون بين الجملتين ما يجمعها في الذهن جمعاً من جهة الجهل أو الوهم أو الخيال ، والجامع العقلى أن يكون بينهما اتحاد في تصور أو تماثل فإن العقل بتجريده المثلين عن التشخص في الخارج يرفع التعدد عن البين ، أو تضايف كالذي بين العلة والمعلول والسفل والعلو والأقل والأكثر ، فالعقل يأبى أن لا يجتمعا ، والوهمى أن يكون بين تصوراتهما شبه تماثل كالبياض والصفرة فإن الوهم يبرزهما في معرض المثلين ، ولذلك حسن الجمع بين تلك الثلاثة في قوله[3]:

إذا لم يكنْ للمرءِ في الخلقِ مَطْمَعٌ
فذو التاجِ ، والسَّقَّاءُ ، والذَّرُّ واحدُ

أو تضاد كالجهر والهمس، والحلاوة والحموضة، والملاسة والخشونة ، فإن الوهم ينزل الضدين منزلة المتضايفين،ولذلك نجد الضد أقرب حضوراً في البال مع الضد.والخيالي أن يكون بين تصوراتهما تقارن في الخيال لأسباب مؤدية إليه ، والأسباب في ذلك متباينة : فمن أسباب تجمع بين صومعة وقنديل وقرآن . ومن أسباب تجمع بين دسكرة وإبريق وأفران على حسب ما تقتضيه العادة . ولصاحب علم المعاني فضل احتياج إلى

---

(1) جاء في الإيضاح : معنى قوله تعالى "لا يؤمنون" معنى ما قبله ، وكذا ما بعده تأكيد ثانٍ ؛ لأن عدم التفاوت بين الإنذار وعدمه ، لا يصح إلا في حق من ليس له قلب يخلص إليه حق ، وسمع تدرك به حجة ، وبصر تثبت به عبرة ، ويجوز أن يكون "لا يؤمنون" خبراً لأن ؛ فالجملة قبلها اعتراض" الإيضاح ص١٥١ بتحقيقي .

(2) البيت من الكامل لأبي تمام ، وهو في ديوانه ٢٩٠/٣ ، دلائل الإعجاز ١٧٣ ، الإشارات ١٢٢ ، والطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ٨٧/١ ، شرح الصولي للديوان ٤١٩/٢ ، معاهد التنصيص ، نهاية الإيجاز ٣٢٣ ، عقود الجمان ١٧٣ ، وأبو الحسين : محمد بن الهيثم ، والبيت كله جواب القسم من قصيدة يمدحه فيها .

(3) البيت غير منسوب أورده السكاكي في المفتاح ٣٦٢ بلا عزو . والذرُّ : صغار النمل .

التنبيه لأسباب هذا الجامع ، فإن من لم يتنبه لمثلها وهو من أهل الحضر أنى يستحلى كلام رب العزة تعالى مع أهل الوبر ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1] [الغاشية : ١٧-٢٠]لبعد البعير عن خياله في مقام النظر ثم بعده عن السماء وبعد خلقه عن رفعها ، وكذا البواقى .

لكن إذا تنبه لما عليه تقلبهم في حياتهم جاء الاستجلاء ، وذلك أن أهل الوبر مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي فعنايتهم مصروفة لا محالة إلى أعظمها نفعاً وهى الإبل ، ثم انتفاعهم بها لما لم يحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ولما كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

لنا جَبَلٌ يحتلُّه مَنْ نُجيرُه منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ[2]

كانت بمكان من التفات خاطرهم إليها . وإذا تعذر عليهم طول مكثهم في منزل، ومن لأصحاب المواشي بذلك ، كان عقد الهمة عندهم بالتنقل في الأرض من عزم الأمور، فلما تآخذت عندهم تلك الأمور حسن في الحديث بها معهم عطف بعضها على بعض .

هذا ، واعلم أن الجملتين إذا اتفقتا خبراً وطلباً فمن محسنات العطف أمران .

أحدهما : أن تشرك بينهما في جوامع ، فكلما كانت الشركة أظهر كان الوصل بالقبول أجدر كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار : ١٣، ١٤] .

---

[1] يقول الزمخشري : ومعنى الآية : أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به" الكشاف ١١٣/٧ .

[2] البيت أورده السكاكي في المفتاح ٣٦٦ بلا نسبة ، وهو للسموءل بن عادياء في ديوانه ، جبل : أراد حصنهم المسمى الأبلق ، الطرف : النظير ، منيع : بمعنى ممنوع من ، كليل : كلّ بصره يعنى ضعف و لم يحقق المنظور .

والثاني : أن تتناسبا في الاسمية أو الفعلية في المضي أو الاستقبال ، فلا يصار إلى خلاف ذلك في بليغ الكلام إلا لتوخي نكته كالتنبيه على الاختلاف في التجدد والثبوت كما في قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف : ١٩٣] وقوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٥٥].

وإن اختلفت الجملتان خبراً وطلباً فمن محسنات العطف بعد الاشتراك كون المقام مشتملا على ما يزيل الاختلاف : إما من تضمين الطلب معنى الخبر : كما في عطف ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل : ١٠] على ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل : ٨] ومثله : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً[1] لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة : ١٢٥] بتقدير وقلنا اتخذوا . وإما من تضمين الخبر معنى الطلب : كما في عطف : ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة : ٨٣]على ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَ اللَّهَ﴾ [البقرة : ٨٣] لكونه في معنى لا تعبدوا. وفي عطف ﴿وَامْتَازُوا[2] الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] على ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ[3]﴾ [يس : ٥٥] لاشتمال فحواه على معنى فليمتازوا اليوم عنكم يا أهل المحشر إلى الجنة ، وقيل في "بشر" أنه معطوف في قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة : ٢٥] أنه معطوف على ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة : ٢٤] وفي قوله : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابرين﴾ [البقرة : ١٥٥] على ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ [البقرة : ١٥٣]. وفي قوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف : ١٣] في الصف على "تؤمنون" لكونه في معنى آمنوا ، والأقضى لحق البلاغة أن يكون معطوفاً على "قل" مقدراً ، أولا ، قبل ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة : ١٥٣] وثانياً قبل : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وثالثاً قبل ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف : ١٠] .

---

(١) مثابة للناس : مباءة ومرجعاً للحجاج .

(٢) امتازوا : انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة .

(٣) فاكهون : متنعمون متلذذون .

ولنختم الباب بذكر الحال التي تكون جملة لمجيئها بالواو تارة وبدونها أخرى ، فنقول :

الحال المفردة نوعان : مقيدة ومؤكدة ، ولهما أصل في الكلام ونهج في الاستعمال ، فأصلهما أن تكون المقيدة وصفاً غير ثابت ، والمؤكدة وصفاً ثابتاً ، ونهجهما أن يكونا غير منفيين ، نحو : جاء زيد راكبا دون لا ماشياً . وهو الحق بيناً دون لا خفياً ، ولا يدخل النوعين الواو ، لأن إعرابهما بغير تبع ، وهذا حق الجملة الواقعة حالا ، لكن النظر إليها من حيث هي مستقلة بفائدة وغير متحدة بالأولى ، اتحادها إذا كانت مؤكدة مثلها في نحو : هو الحق لا شبهة فيه وغير منقطعة عنها لجهات جامعة ، كما في نحو : جاء زيد يعدو فرسه ، يبسط العذر في أن تدخلها واو للجمع بينها وبين الأولى ، والضابط فيه أن الجملة متى كانت واردة على أصل الحال ، بأن كانت فعلية فمتى كانت واردة على نهجها بأن كانت مضارعاً مثبتاً وجب ترك الواو ، ومتى كانت غير واردة على نهج الحال كما إذا كانت مضارعاً منفياً جاز ذكر الواو، وتركها أرجح ، قال[1] :

أَكسَبَتْه الوَرِق البيضُ أَباً ... ولقدْ كانَ ، ولا يُدْعَى لأبْ

وقال الآخر[2] :

لو أنَّ قوماً لارتفاعِ قبيلةٍ ... دخلوا السماء دخَلْتُها لا أُحجَبُ

وقال الآخر[3] :

---

(1) البيت من الرمل ، أورده القزويني في الإيضاح ١٦٦ وعزاه لمسكين الدارمي ، الجرجاني في الإشارات ١٣٩ ، شرح عقود الجمان ١٩١ ، دلائل الإعجاز ٢٠٧ ، الأغاني ٢١١/٢٠ ، المفتاح ٣٨٦ ، التبيان في علم البيان لابن الزملكاني ١٢٢ط . بغداد ، الورق : الدراهم . أي أن المال أكسبه نسباً بعد أن كان مجهول النسب .

(2) البيت من الكامل ، أورده الجرجاني في الإشارات ١٣٨ ، وعزاه لخالد بن يزيد بن معاوية ، القزويني في الإيضاح ١٦٦ ، التبيان لابن الزملكاني ١٢٢ ، دلائل الإعجاز ٢٠٩ ، قال الأستاذ محمود شاكر : غير منسوب في شرح شواهد العيني . قلت : البيت منسوب لخالد بن يزيد بن معاوية من أحفاد معاوية بن أبي سفيان وكان عالماً فيلسوفاً.

(3) البيت من الطويل ، أورده الجرجاني في الإشارات ١٣٥ ، القزويني في الإيضاح ١٦٦، المفتاح ٣٨٥ ، التبيان في علم البيان لابن الزملكاني ١٢٢ط . بغداد ، الدلائل ٢٠٨ ، قال الأستاذ محمود شاكر : هو لعكرشة العبسي أبي

مَضَوْا لا يريدون الرواحَ وغالَهم

من الدهرِ أسبابٌ جريْنَ على قَدرِ

والفعل الماضي لوروده لا على نهج الحال لكونه : إما منفياً ، أو مع قد ظاهرة أو مقدرة ، ليصلح للحال منتظم في سلك المضارع المنفي إلا ليس فيجوز معه ترك الواو كقوله[1] :

إذا جَرَى في كَفّه الرشاءُ جَرَى القليبُ ليس فيهِ ماءُ

وذكرها أرجح ، قال الله تعالى : ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

ومتى كانت الجملة غير واردة على أصل الحال بأن كانت اسمية : فالوجه ذكر الواو ، وقد تترك ، كقولهم : كلمته فوه إلى في ، ورجع عوده على بدئه ، وكقوله[2] :

ثُمَّ راحوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِم يلحفون الأرضَ هُدَّابَ الأُزرْ

وما أنشده أبو على في "الإغفال"[3] :

ولولا جنانُ الليلِ ما آبَ عامِرٌ إلى جعفرٍ سرباله لم يمزقِ

وهو كثير في نحو : جاءني عليه جبة صوف .

الشعب ، يرثي بنيه ، وهو في شرح الحماسة للتبريزى ٤٩/٣ ، ٥٠ ، مجالس ثعلب ٢٤٢ ، والشعر بتمامه في مقطعات مراثٍ لابن الأعرابي رقم ٤ ورواية البيت على الصواب كما أثبتُّه (ثووا) . قلت وقد نسبه محقق الإيضاح والإشارات خطأ لعكرمة بدل عكرشة .

[1] البيت بلا نسبة ، أورده السكاكي في المفتاح ٣٨٧ ، شرح عقود الجمان ٢٢٣/١ ، عمدة الحافظ ٣٤٥ ، ارتشاف الضرب ٣٦٧/٢ ، والشاهد في قوله : ليس فيه ماء بغير الواو .

[2] البيت من الرمل لطرفة بن العبد ، أورده القزويني في الإيضاح ١٦٩ "بتحقيقنا"، عبق المسك : رائحته . الهداب : الهدب ، طرة الإزار .

[3] البيت من الطويل لسلامة بن جندل وأبو علي : الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ، المعروف بأبي علي الفارسي ، أستاذ ابن جني ، والمتوفي سنة ٣٧٧هـ ، و "الإغفال" : كتاب جمع فيه مسائل تعقب فيها الزجاج ، والبيت أورده القزويني في الإيضاح ١٦٩ ، السكاكي في المفتاح ٣٨٥ ، الجرجاني في الإشارات ١٣٥ ، جنان الليل : شدة الظلمة، لم يمزق : أي لم تمزقه الرماح .

الباب الثاني
في الإيجاز والإطناب

ولكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بتقديم أصل وهو أنه لا يخلو كلام عن أحد أمور ثلاثة :

إما المساواة : وهى أن يكون لفظ الكلام بمقدار معناه لا ناقصاً عنه بحذف للاختصار ، ولا زائداً عليه بمثل الاعتراض والتتميم والتكرار ، كما قال الواصف لبعض البلغاء : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه .

وإما التضييق : وهو أن ينقص من الكلام ما يصير به لباس لفظه أضيق من قدِّ معناه .

وإما التوسيع : وهو أن يزاد في الكلام ما يصير به على الضد مما قد ذكرناه .

والمساواة نوعان : مساواة مع الاختصار ومساواة بدونه ، فالأول : أن يتحرى البليغ في تأدية معنى كلامه أخف مما يمكن ، فيحتال على الألفاظ القليلة الحروف والكثيرة المعاني ، التي يعز تحصيل مثلها على من دونه في البلاغة ، والثاني : أن يأتي بالمساواة كيفما اتفق من غير ما تحر ، ويسمى ذلك متعارف الأوساط ، وهو في باب البلاغة لا يحمد منهم ، ولا يذم . وإذا قد سمعت هذا فنقول :

الإيجاز[1] : هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارة متعارف الأوساط ، أو مما يليق به حال المتكلم من التوسيع والانبساط.

والإطناب[1] : هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف الأوساط. وسواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غيرها . ولكل منهما مراتب ، فما صادف منها الموقع حمد ، وإلا ذم ، وسمى الإيجاز إذ ذاك عياً وتقصيراً ، والإطناب إكثاراً وتطويلاً .

---

[1] هكذا عرف السكاكي الإيجاز ، والإطناب في المفتاح ص٣٣٨ .

أما الإيجاز فعلى ثلاثة أضرب :

الأول : سلوك طريق التضييق بحذف بعض الكلام ، تخفيفاً لقوة الدلالة على معناه ، ومن أمثلته ، قوله تعالى : ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة : ٢] أصله هدى للضالين الصائرين إلى التقوى بعد الضلال ، فاختصر توصيلا إلى وصف الشيء بما يؤول إليه وإلى تصدير أولى الزهراوين[1] بذكر أوليائه تعالى ، وقوله : ﴿**يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ**﴾ [آل عمران : ٤٤] أصله يلقون أقلامهم ينظرون ليعلموا أيهم يكفل مريم ، وقوله : ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ**﴾ [الأنفال : ١٧] بطي إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ، فعدوا عن الافتخار . وقوله : ﴿**فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**﴾ [الشورى : ٩] تقديره إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق لا ولى سواه ، وقوله : ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر : ٨] تتمته ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**﴾ [فاطر : ٨] أو كمن هداه الله مدلولا عليه بما بعد ، وقوله : ﴿**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ**﴾ [يونس : ١٨] أي بما لا ثبوت له ، ولا علم الله متعلق به نفياً للملزوم بانتفاء لازمه ، ومثله : ﴿**بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾ [آل عمران : ١٥١] أى شركاء لا ثبوت لها أصلا ولا أنزل الله بإشراكهم حجة ، على أسلوب قوله[2] :

على لاَحِبٍ لا يُهتَدَى بمنارِه

أى لا منار له ولا اهتداء به ، وقوله تعالى : ﴿**لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ [الفتح : ٢٥] تقديره لأجل الإدخال في الرحمة كان الكف ومنع التعذيب" وانظر إلى الفاء الفصيحة في قوله : ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾ بعد قوله : ﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ**﴾ [البقرة : ٥٤] كيف أفادت : فامتثلتم فتاب عليكم. وتأمل قوله تعالى : ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى**﴾ [البقرة : ٧٣] أليس يفيد : فضربوه فحيى فقلنا كذلك يحيى الله الموتى .

---

(١) هما سورتا البقرة وآل عمران .

(٢) البيت من الطويل ، أورده القزويني في الإيضاح ١٧٨ ، وعزاه لامرئ القيس ، وذكر بقية البيت [إذا سَاقه العودُ النباطِيُّ جرجرا] ، المفتاح ٣٩٢ ، اللاَّحِبُ : الطريق الواضح .

الضرب الثاني : سلوك طريق المساواة مع الاختصار وهو أن يكون للمعنى عبارتان متساويتان، واحدهما أطول لتفصيل أو غيره ، فتعدل عنها إلى الأخرى . والعلم في أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة : ١٧٩] وإصابته المحز بفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى وهو القتل أنفى للقتل من وجوه ، **أحدها** : كونه أوجز لأن عدة حروفه عشرة وعدة حروف المثل أربعة عشر ، **وثانيها** : سلامته من تكرار الحروف المتنافرة المخارج **وثالثها** : التصريح فيه بلفظ الحياة فإن النص على اسمها أحسن عند الإنسان لكونها مطلوبة فوق كل مطلوب من الكناية عنها بلفظ القتل . **ورابعها** : صحة معناه من قبل أن تنكير لفظ الحياة قد أفاد معنى في القصاص حياة عظيمة، أو نوع من الحياة ، وهو معنى على حسنه وغرابته وارد على نهج الصدق ، وخارج مخارج[1] الحق البحت ، بخلاف قولهم القتل أنفى للقتل ، فإن معناه غير صحيح ، وحقيقته غير مرادة لهم . ومن الأمثلة قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

لاشتماله مع الاختصار على ما تضمنه قوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل : ٩٠] وقوله : ﴿وَإِذَا

---

(١) قال في الإيضاح : وفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى – وهو قولهم "القتل أنفى للقتل" من وجوه:

أحدها : أن عدة حروف ما يناظره من – وهو "في القصاص حياة" – عشرة في التلفظ ، وعدة حروفه أربعة عشر .

وثانيها : ما فيه من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها ؛ فيكون أزجر عن القتل بغير حق لكونه أدعى إلى الاقتصاص .

وثالثها : ما يفيد تنكير "حياة" من التعظيم ، أو النوعية ، كما سبق .

ورابعها : اطراده ، بخلاف قولهم ، فإن القتل الذي ينفي القتل : هو ما كان على وجه القصاص ، لا غيره .

وخامسها : سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام ، بخلاف قولهم .

وسادسها : استغناؤه عن تقدير محذوف ، بخلاف قولهم ؛ فإن تقديره : القتل أنفى للقتل من تركه .

وسابعها : أن القصاص ضد الحياة ؛ فالجميع بينهما طباق .

وثامنها : جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة ، بإدخال "في" عليه ، على ما تقدم

انظر الإيضاح ١٧٨ للقزويني ، وانظر التبيان ٢٣٨/١ للطيبي .

رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام : ٦٨].

ومنها قول الشاعر(١) :

وفي قُربِ القلوبِ لكل صبٍّ　　　شفاءٌ ليس في قُربِ الديارِ

لإربائه مع الاختصار على حاصل قول الآخر(٢) :

على أنَّ قربَ الدارِ ليس بنافعٍ　　　إذا لم يكنْ بين القلوبِ قريبُ

وقول لبيد(٣) :

وبنو الديّانِ أعداءٌ لـ "لا"　　　وعلى ألسُنِهم ذَلّتْ نَعَمْ

زيَّنتْ أحسابَهم أنسابَهم　　　وكذاكَ الحلمُ زَيْنٌ للكَرَمْ

وأمرها ظاهر.

الضرب الثالث : أن يكون المعنى عندك خليقا بمزيد البسط فتتركه إلى بسط أخصر معه لتوخي نكته كالاحتراز عن الإملال أو عن غيره ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل : ٩٠] ، لأنه وإن تعدى درجته الأولى وهى مثل يأمر الله بالحسنات وينهى عن السيئات فلم يبلغ حد ما يقتضيه مقام أمر العباد بفعل السنن والواجبات وبترك جميع الفواحش والمنكرات من استفراغ القائل في تفصيله بذل المجهود واستغراقه في الإنباء عنه كل حد معهود ، فلذلك عد من الإيجاز . ومنها قول زكريا عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم : ٤] بتعدي أصل الكلام ومرتبته الأولى ، وهو يارب إني قد شخت ، لكونه في مقام المباثة وشكوى التلقي لتوابع انقراض الشباب ، فمن حقه أن يبالغ ويطنب كل إطناب . فتركت المرتبة الأولى إلى تفصيلها في ضعف بدني وشياب رأسي ، ثم ترك التصريح في ضعف بدني إلى

(١) البيت ينسب لكثير عزة .

(٢) البيت يُنسب لأحد الصوفية كما في تفسير القرطبي ٢٩٣/٤ – ط .دار الريان للتراث .

(٣) البيتان ينسبان للبيد بن ربيعة ، ديوانه ٢٢٩ ، عيار الشعر ٣٠ ، الأغاني ٩٥/١٤ .

الكناية في وهنت عظام بدني ، ثم بنيت الكناية على الاسم وأدخلت عليه "إن" فحصل إني وهنت عظام بدني ، ثم سلك بالكلام طريق الإجمال والتفصيل فحصل إني وهنت العظام من بدني ، ثم لطلب مزيد اختصاص العظام به ترك توسيط البدن ، ثم لطلب شمول الوهن للعظام فرداً فرداً ترك الجمع إلى الإفراد فحصل إني وهن العظم مني . وهكذا تركت الحقيقة في شاب رأسي ، إلى الاستعارة في اشتعل شيب رأسي ، ثم حول الإسناد إلى الرأس وفسر بشيبا لإفادة شمول الاشتعال للرأس ، فحصل اشتعل رأسي شيباً ثم سلك به طريقا الإجمال والتفصيل ، فحصل اشتعل الرأس مني شيبا ثم تركت لفظة مني لقرينة عطفه على وهن العظم مني توصلا إلى إيهام حوالة تأدية مفهومه على العقل دون اللفظ ، ثم اقتصر على ذلك بعد ما اختصرت مقدمة الكلام بحذف حرف النداء وياء الإضافة واستغنى بلفظ المنادى فحسب. ومتى اختصر البليغ المبدأ فقد آذن باختصار ما يورد ، كما فعل بما نحن فيه ، فإنه وإن جاء على نوع من المبالغة والبسط ، ولكن مقامه خليق بأبسط مما جاء عليه لكونه كلاماً في معنى انقراض أيام ما أصدق من يقول فيها[1] :

وقد تعوّضْتُ عن كلٍّ بُمشْبِهِهِ ... فما وجدتُ لأيامِ الصِّبا عوضَا

وفي إلمام المشيب المؤذن بالمغيب :

تعيبُ الغانياتُ عليَّ شَيْبِي ... ومَنْ لى أنْ أُمتَّعَ بالمَعِيبِ[2]

وأما الإطناب فهو أيضاً على ثلاثة أضرب :

الأول : سلوك طريق التوسيع بالتفصيل : ومن أمثلته قوله تعالى : **﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾** [البقرة : ٤٨] .

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري ، شروح سقط الزند ٦٥٥/٢ ، المفتاح ٣٩٩ .

(٢) البيت للبحتري في ديوانه ٢٩٩/١ ، المفتاح ٣٩٩ ، الدلائل ٥٠٤ ، المعيب : هو الشيب الذي يعيبونه عليه ، والاستفهام يفيد الالتماس ، وفي البيت مقابلة بين الشطرين ، حيث جعل ما يعيبه عليه الغانيات محبوباً ومطلوباً عنده.

ترك إيجازه وهو اتقوا يوماً لا خلاص فيه عن العقاب لمن أذنب لكونه كلاماً مع الأمة لنقش صورة ذلك اليوم في ضمائرهم ، وفيهم العالم والجاهل والمسترشد والمعاند والفهم والبليد ، فلم يوجز لئلا يختص المطلوب بفهم واحد دون واحد ، ويناسب قوة سامع دون سامع .

وقوله تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : ١٣٦] ترك إيجازه وهو آمنا بالله وبجميع كتبه ؛ لكونه بمسمع من أهل الكتاب ، وفيهم من لا يؤمن بالتوراة ولا بالقرآن الكريم ، وهم النصارى وفيهم من لا يؤمن بالإنجيل ولا بالقرآن الكريم وهم اليهود ، وكل يدعى الإيمان بما أنزل الله ، تقريعاً لأهل الكتاب ، وليبتهج المؤمنون بما أوتوا من كرامة الاهتداء . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

لم يؤثر إيجازه ، وهو إن في وجود الممكنات لآيات للعقلاء ، لكونه كلاماً ليس مع الإنس فقط ، بل مع الثقلين ، ولا مع قرن دون قرن ، بل مع القرون كلهم ، إلى انقراض الدنيا ، وأن فيهم من يعرف ويقدر أنه من مرتكبي التقصير في باب النظر ، فأي مقام للكلام أدعى لترك إيجازه إلى الإطناب من هذا المقام ! .

الضرب الثاني : سلوك طريق التوسيع بمثل التتميم :

كقول موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ ، ٢٦] بزيادة لى تأكيداً لطلب الانشراح لمزيد الاحتياج إليه لكونه وقت الإرسال المؤذن بتلقي المكاره ، وضروب الشدائد .

وكقول امرئ القيس[1] :

نظرت إليكَ بعينِ حاريةٍ   حوراءَ حانيــةٍ على طفــلِ

فإنه حين أراد المبالغة في وصف عين المرأة بالحسن ، لم يكتف بتشبيهها بعـين ظبية حوراء ، فتم بقوله حانية على طفل لأن لنظر الظبية إلى خشفها حال إشـفاقها وعطفها عليه من الملاحة وحسن الفتور ما ليس له في غير تلك الحال .

الضرب الثالث : التوسيع بمثل التذييل : كقوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [غافر: ٧] لو أريد اختصاره لما أجرى "**وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**" في الذكر ، إذ ليس أحد من مصدقي حملة العرش يرتاب في إيمانهم ، ووجه حسن ذكره إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه .

وقوله تعالى :﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [المنافقون : ١] لو أوثر اختصاره لما جيء بقوله "**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**" ، ولكن لما كان مساق الآية لتكذيب المنافقين في دعوى الإخلاص جيء به لرفع إيهام رد التكذيب إلى نفس الشهادة.

---

[1] البيت لامرىء القيس في ديوانه ١٦٨ ، الشعر والشعراء ١٣٢ ، والحارية : الأفعى التي كبرت ونقص جسمها من الكبر ولم يبق إلا رأسها ونفسها وسمها والذكر حار .
ويروى "بعين جازئة" والجازئة الظبية التي جزأت بأكل الرطب والماء .

الفصـــل الخامس

في أحوال الطلب

ولا يخرج عن أن يكون طلب حصول ما في الخارج في الذهن ، أو حصول ما في الذهن في الخارج من تصور أو تصـــديق مثبت أو منفي ، وهو نوعان ؛ لأنه : إمــا أن لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول فلا طماعية لك فيه ، وإما أن يستدعي فيــه ذلك.

النوع الأول : التمني : وكلمته الموضوعة له : ليت ، نحو ليت زيداً جـاءك ، وليت الشباب يعود . وأما هل في قوله : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ [الأعراف :٥٣] فدخيلـة عليها ، وكذا لو في : لو تأتيني فتحدثني ؛ لما فيه من تقدير غير الواقع واقعاً ، وكـــأن حروف التحضيض مأخوذة منهما مركبتين مع ما ولا المزيدتين . فإذا قلـــت : هـــلا فعلت فالمعنى ليتك فعلت متولداً منه معنى للتنديـــم ، وإذا قلت : هلا تفعـــل كـــان متولداً منه معنى السؤال والتحضيض .

وأما النوع الثاني : فأربعة أقسام : الاستفهام ، والأمر، والنهى ، والنداء :

القسم الأول : الاســـتفهام : وهو طلب ما في الخارج أن يحصل في الذهـــن من تصور أو تصديق موجب أو منفي ، وحروفه : الهمزة وهل وأم . فيستفهم بـالهمزة عن التصور والتصديق وبهل عن التصديق لا غير ولذا لم يجز هل زيد قائم أم عمـــرو ؟ وقبح: هل رجل قائم ؟ وهل زيداً ضربت ؟

ويستفهم بأم المتصلة عن التصور دون التصديق . ولاختصاص هـــل بطلـــب التصديق استلزمت مزيد اختصاص دون الهمزة بما لا ينفك عن التصديق وهو الفعـــل . ولذا كان قوله تعالى :﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء : ٨٠] أدخل في الإنباء عن طلـــب الشكر من قولنا : فهل أنتم تشكرون ، لأنه ينبئ عن التجدد ؛ ومـــن قولنـــا أفـــأنتم شاكرون لما علمت أن هل أدعى للفعل من الهمزة فترك الفعل معها أدخل في الإنباء عن استدعاء المقام عدم التجدد .

ويستفهم نيابة عن الهمزة :

(بما) عن الجنس مطلقاً أو الوصف .

(وبمن) عن الجنس من ذوى العلم .

(وبأي) عن الوصف المميز .

(وبكم) عن العدد .

(وبكيف) عن الحال .

(وبأين) عن المكان .

(وبمتى)عن الزمان .

(وبأنى) عن الحال والمكان والزمان .

(وبأيان) عن الزمان المستقبل .

ولكون الاستفهام : طلب ما في الخارج أن يحصل في الذهن استلزم أن لا يكون وارداً على الحقيقة ، إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام ، ومتى صدر من عالم بحال المستفهم عنه ، أو ممن لا يصدق بإمكان الإعلام به فهو ، وإلا بطريق المجاز . وكثيراً ما يعدى الاستفهام عن مورد الحقيقة إلى ما يناسب المقام من إفادة : **التمني** كما سبق . **أو العرض** كقولك : ألا تنزل عندنا فتصيب خيراً . **أو التحضيض** كقولك لمن بعثت إلى مهم فلم يذهب : أما ذهبت ؟ ، أو الزجر كقولك لمن يؤذي أباه أتفعل هذا ؟ **أو التوبيخ** كقولك لمن يهجو أباه أتهجو نفسك ؟ **أو التقريع** كقوله تعالى :﴿ **أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ [القصص : ٧٤] . **أو التهديد أو الوعيد** كقولك : "ألم أؤدب فلاناً ، وكم أحلم عنك ، **أو التهكم** كقوله تعالى حكاية عن قوم شعيب : ﴿**أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ**﴾ [هود : ٨٧] .

أو التعجب ، أو التعجيب كقوله تعالى : ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ**﴾ [البقرة : ٢٨] .

وقوله : ﴿**مَا لِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ**﴾ [النمل : ٢٠] وقوله ﴿**فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ**﴾ [القمر :٢٤] أو التنبيه على الضلال كقوله تعالى : ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾

[التكوير : ٢٦].

أو التقرير كقولك لمن جاءك : أجئتني ومثله : ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء : ٦٢].

أو المبالغة في المدح كقوله(١) :

بدا فَراعَ فؤادي حسنُ صورتِهِ فقلت : هل مَلَكٌ ذا الشخصُ أم مَلِكُ

أو في الذم كقول زهير(٢) :

أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

أو التدله في الحب كقول العرجي(٣) :

بالله يا ظبياتِ القاعِ قلنَ لنا ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ

أو في الجحد والإنكار : كقولك : متى قلت هذا ؟ وعليه قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة : ١٣٠] . وقوله : ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُور﴾ [سبأ : ١٧] وهذا النوع من الكلام ، أعني تعدى الاستفهام عن مورد الحقيقة ، يسمى الإعنات ، وسماه ابن المعتز تجاهل العارف . وإذا أردت بالاستفهام التقرير فأخذه على مثال الإثبات ، فقل في تقرير الفعل أضربت زيداً ، وفي تقرير الفاعل أأنت ضربت زيداً ؟ كما قال تعالى : ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء : ٦٢] .

وفي تقرير المفعول : أزيداً ضربت ؟ وإذا أردت به الإنكار فأخذه على مثال النفي. قال الله تعالى : ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات : ١٥٣] وقال:﴿ أَهُمْ

---

(١) البيت نُسب للبحتري وليس في ديوانه ، نهاية الأرب ١٢٣/٧ ، شرح عقود الجمان ١٨٩/١ .

(٢) البيت لزهير في ديوانه ٧٣ ، وصدره : وما أدْري – وسوفَ إخالُ أدْري-

ومطلعها : **عفا مِن آلِ فاطمةَ الجواءُ فيُمْن فالقوادمُ فالحساءُ**

وهو في العمدة ٦٦/٢ ، الإيضاح ٣٣٠ .

(٣) البيت من البسيط ، وهو للحسين بن عبد الله أو العرجي ، انظر الخزانة ٩٧/١ ، معاهد التنصيص ١٦٧/٣ ، الإيضاح ٣٣٠ ، العمدة ٦٦/٢ ، الإنصاف ٤٩٠ .

يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال:﴿ **ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الأُنْثَيَيْنِ﴾** [الأنعام : ١٤٤] ولعلمك أن الاستفهام طلب والطلب إنما يكون بما يهمك ويعنيك أمره فلا تعجب من لزوم كلمات الاستفهام صدر الكلام . ومقتضى الاستفهام جواب مطابق فلا تخل به إلا لتوخى نكتة كما في قوله تعالى :﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾** [البقرة : ١٨٩] .

قالوا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يستوي ، ثم ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا بما ترى تنزيلا للسؤال منزلة غيره للتنبيه بألطف وجه على تعدى السائل سؤالا هو أليق بحاله أو أهم . ومثله : ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالاَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** [البقرة : ٢١٥] سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف ، وإن هذا الأسلوب لربما صادف الموقع فحرك نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض المسحور .

القسم الثاني : الأمر : وهو اصطلاحا ما قرن باللام الجازم أو ضمن معناه ، ولغة: حصول الثبوت في الخارج بذلك على وجه الاستعلاء . والأظهر أن صيغ الأمر موضوعة لذلك لتبادر الفهم عند سماعها إلى الأمر وتوقف ما سواه على القرينة ، ولاتفاقهم على إضافة الصيغ إلى الأمر دون غيره ، ولا شبهة أن الطلب على وجه الاستعلاء يستدعى إيجاب المطلوب ، فإن كان الأمر من الأعلى استتبع إيجابه وجوب الفعل بحسب جهات مختلفة ، وإلا أفاد الطلب في ضمن الدعاء أو الالتماس أو الإباحة،

أو التهديد أو التحدي أو إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت الطلب إلى حد كان المرضى مطلوباً . قال كثير[1] :

أسِيئي بنا أوْ أحْسِنِي ، لا مَلومةً لدَينا ، ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

أو إظهار نفي تفاوت الجواب بتفاوت الداخل تحت الطلب ، كقوله تعالى : ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ [التوبة : ٨٠] و ﴿**قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا**﴾ [التوبة:٥٣].

القسم الثالث : النهى : وهو اصطلاحاً : ما قرن بلا الجازمة .

ولغة : طلب حصول الانتفاء في الخارج بذلك على وجه الاستعلاء ، فإن استعمل فيه بالشرط المذكور أفاد الحظر ، وإلا أفاد الطلب في ضمن الدعاء أو الالتماس أو لإباحة أو التهديد أو نحو ذلك ، والأمر والنهى حقهما الفور لأنه الظاهر من الطلب ولتبادر الفهم عند أمر المولى عبده بالقيام ، ثم أمره قبل أن يقوم بالاتكاء إلى تغيير الأمر دون إرادة الجمع ، ولاستحسان ذم العبد لترك المبادرة ، وليس شيء من الأمر والنهى بأصل في المرة ولا في الاستمرار بل الطلب بهما ، إن كان راجعاً إلى قطع الواقع فالأشبه المرة ، وإن كان إلى اتصال الواقع فالأشبه الاستمرار .

القسم الرابع : ما يتعلق بالنداء : من ذكر أدواته ، وتفصيل أحكامه في علم النحو : فلا نتعرض له بل لنوع صورته ، صورة النداء ليس به ، وهو قولهم : أنا أفعل كذا أيها الرجل ، ونحن نفعل كذا أيها القوم، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يراد بهذا النوع من الكلام الاختصاص على معني : أنا أفعل كذا متخصصاً من بين الرجال ونحن نفعل كذا متخصيص من بين الأقوام ، واللهم اغفر لنا مخصوصين من بين العصائب .

---

[1] البيت من الطويل ، وهو لكثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، من خزاعة ، كان رافضياً ، وعزة محبوبته ، كنى بها، جعله ابن سلام في الطبقة الأولى من الإسلاميين ، توفي ١٠٥هـ . معجم الشعراء ، طبقات الشعراء ، الشعر والشعراء، الأغاني، المؤتلف والمختلف ، اللآلئ، وفيات الأعيان ، معاهد التنصيص ، خزانة الأدب ، وغيرها .
والبيت في ديوانه ١٠١ ، التنبيه والإيضاح ٢١/١ ، الإيضاح ١٤٥ ، المفتاح ٤٣٤ ، الأغاني ٣٨/٩ ، أمالي القالي ١٠٩/٢ ، تاج العروس ٢٧٤/١ ، التبيان ٢٥٦/٢ . ويروى (ملولة) بدل (ملومة) .

وقوع الخبر موقع الإنشاء : وقد يقع الخبر موقع الطلب : **إما لقصد التفاؤل** كقولك أعاذك الله من الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، على عدهما من الأمور الحاصلة، وهو مستحسن ، أو ما ترى هارون كيف خلع على كاتبه حين سأله عن شئ فقال لا وأصلح الله أمير المؤمنين ، لما يسمع منه ما عليه الأغبياء من ترك الواو . وغير هارون حين خرج إلى ناحية فتراءت له شجرة ، فسأل عنها كاتبه ، فقال شجرة الوفاق ، فكساه ، وأما الحرص في وقوعه : فالطلب متى تناهى حرصه ربما انتقش في الخيال مطلوبه فيتوهم غير الحاصل حاصلاً ، حتى إذا حكم الحس بخلافه غلطه تارة واستخرج له محملا أخرى ، كما قال المعرى[1] :

ما سِرْتُ إلاّ وطيفٌ منكِ يصحبُني سُرىً أمامي وتأويباً على أثَرِي

أي لكثرة ما أناجيك انتقشت في خيالي ، فأعدك في الليل بين يدي مغلطاً للبصر لعلة الظلام ، وأعدك في النهار خلفي لما لم يتيسر لي تغليطه لوجود الضياء .

وإما لقصد الكناية أو الاحتراز عن صورة الأمر كما يقول العبد : ينظر المولى إلى ساعة .

وإما غير ذلك من لطائف الاعتبارات . والله أعلم .

---

(1) البيت من البسيط ، وهو لشيخ المعرة : أبو العلاء المعري : أحمد بن عبد الله بن سليمان ... التنوخي المعري . كنيته أبو العلاء ، ولد بالمعرة سنة ٣٦٣هـ ، قرأ اللغة العربية والنحو على أبيه بالمعرة ، وكان عالمًا باللغة والنحو والأدب ، وكانت وفاته سنة ٤٤٩ هـ .

والبيت في الإيضاح ١٠٠ ، المفتاح ٤٣٣ ، ديوان سقط الزند ١١٨/١ ، شرح عقود الجمان ٨٢٩ .

والطيف : الخيال الطائف بالبال يشغله ، وأصله أن يكون في النوم ، والسرى : سير الليل ، والتأويب : سير النهار كله والنزول في الليل .

باب القصر

ويجيء تارة لقصر الموصوف على الصفة وأخرى لقصر الصفة على الموصوف: إما قصر إفراد يفيد التخصيص لأمر ببعض ما يعتقد السامع ثبوته له . وإما قصر قلب يفيد التخصيص لأمر بغير ما يعتقد السامع ثبوته له ، ويقع بين طرفي الإسناد وغيره . وله أربعة طرق :

أحدها : العطف كقولك في قصر الموصوف على الصفة : زيد شاعر لا منجم، وما زيد منجم بل شاعر ، وفي قصر الصفة على الموصوف زيد شاعر لا عمرو، وما عمرو بشاعر بل زيد . والفرق بين القصرين أن الموصوف في الأول يمنع مشاركة صفته لغيرها فيه ، ولا يمتنع مشاركته لغيره فيها . والثاني بالعكس .

وثانيها : النفي والاستثناء : كما يقول في بعض القصرين : ما زيد إلا شاعر وما شاعر إلا زيد . ووجه القصر في الأول أنك متى قلت : "ما زيد" توجه النفي إلى وصف زيد دون ذاته وحين لا نزاع في طوله ولا قصره ولا ما أشبه ذلك بل في كونه شاعراً فحسب أو غير شاعر ، فيتناوله النفي فإذا قلت "إلا شاعر" جاء القصر . ووجهه في الثاني أنك متى قلت "ما شاعر" فأدخلت النفي على الوصف المسلم ثبوته صرف العقل النفي إلى ثبوت الوصف لمن يصح في حقه النزاع ، فإذا قلت : "إلا زيد" جاء القصر .

ومن أمثلة قصر الإفراد قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَ رَسُولٌ﴾ [آل عمران : ١٤٤] أي هو مقصور على الرسالة لا يتجاوز بها إلى البعد عن الهلاك .

وقوله : ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَ عَلَى رَبِّي﴾ [الشعراء : ١١٣] . أي حسابهم مقصور على الاتصاف بـ "على ربي" لا يتحاوزه أن يتصف بعلى .

وقوله : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَ تَكْذِبُونَ﴾ [يس : ١٥] . أي أنتم مقصورون على الكذب عندنا لا تتجاوزونه إلى احتمال حق ، ومن أمثلة قصر القلب قوله تعالى حكاية عن عيسى –عليه السلام– ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المائدة : ١١٧] لأنه جواب لما دل عليه : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة : ١١٦] على معنى أنك يا عيسى قلت للناس ما لم آمرك به .

وثالثها إنما : ووجه القصر فيه تضمنه معنى ما وإلا ، ولذلك نسمع المفسرين لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ [البقرة : ١٧٣] . بالنصب يقولون : معناه ما حرم عليكم إلا الميتة والدم ، وهو المطابق لقراءة الرفع المقتضية لانحصار التحريم على الميتة والدم فما بعده . وترى أئمة النحو يقولون "إنما" إثبات لما بعدها ونفي لما سواه ، ويعللون ذلك بأن كلمة إن لما كانت للتأكيد واتصلت بها "ما" الزائدة ضاعف تأكيدها فناسب أن يضمن معنى القصر ، فإن القصر تأكيد للحكم على تأكيد . ألا ترى قولك زيد جاء لا عمر وكيف أفاد إثبات المجيء في الأول صريحاً وفي الآخر ضمناً . ومما ينبه على تضمنه معنى ما وإلا قوله[1] :

[1] البيت من الطويل ، وهو للفرزدق في ديوانه ١٥٣/٢ ، معاهد التنصيص ٢٦٠/١ ، خزانة الأدب ٤٦٥/٤ ، لسان العرب ٢٠٠/١٥ (قلا) ، دلائل الإعجاز ٢٢٨ ، الإشارات ٩١ ، المفتاح ٤٠٣ ، الإيضاح ١٢٦ ، شرح عقود الجمان ٨٠/٢ ، نهاية الأرب ٨٥/٢ ، التبيان ٦٥ ، نتائج الفكر ١٧٥ ، ولأمية بن أبي الصلت في ديوانه ٤٨، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر ١١١/٢ ، لسان العرب (أنن) ، تاج العروس (ما) .

أنا الذَّائدُ الحامي الذِّمارَ وإنَّما يُدافعُ عن أحْسابِهم أنا أوْ مِثلي

ورابعها : التقديـم : كما في : تتميمي أنا ، وأنت عرفت ، وزيداً ضربت على ما سبق ، وإفادته القصر بطريق الفحوى وحكم الذوق .

والطريق الأول للنص على المثبت والمنفى ولا يجامع الثاني فيقال : ما قام إلا زيد لا عمرو ، لأن شرط العطف بلا أن لا يكون منفيها منفيا بغيرها .

والطريق الثاني للرد عن خطأ يصر عليه ، وما قال الكفار للرسل **﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾** [إبراهيم : ١٠] إلاَّ والرسول عندهم في معرض المنتفي عن البشرية بناء على أن الرسول عندهم يمتنع أن يكون بشراً . وأما قول الرسل :**﴿ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾** [إبراهيم : ١١] فمن باب مجاراة الخصم ليعثر حيث يراد تبكيته .

والطريق الثالث للرد عن خطأ لا يصر عليه أو يجب أن لا يصر عليه فالأول كقولك لمن ترفقه على أخيه : إنما هو أخوك ، والثاني كقوله تعالى حكاية عن اليهود : **﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** [البقرة : ١١] ادَّعوا أن كونهم مصلحين أمر ظاهر مكشوف ، ولذلك أكد الأمر سبحانه في رد دعواهم فقال : **﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾** [البقرة : ١٢].

وقول الشاعر[1] :

إنّما مُصْعَبٌ شِهابٌ من اللّـ ـهِ تجلّتْ عن وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

ادعى أن يكون مصعب شهاباً جريا على عادة الشعراء فيما يمدحون به كما قال[2] :

لا أدَّعي لأبي العلاء فضيلةً حتى يُسَلِّمَهَا إليه عِداهُ

واعلم أن القصر[1] كما يجرى بين المبتدأ والخبر فيما رأيت ، كذلك يقع بين الفاعل والمفعول ونحوهما .

---

(١) البيت من الخفيف لعبيد الله بن قيس الرقيات في دلائل الإعجاز ٣٣١ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١٤٤/١، الإشارات ٩٥ ، المفتاح ٤٠٧ ، الإيضاح ١٢٩ ، نهاية الإعجاز ٣٦١ ، خزانة الأدب ٢٨٧/٧ .

(٢) البيت من الكامل للبحتري في دلائل الإعجاز ٣٣١ ، شرح المرشدي على عقود الجمان ١٤٤/١ ، المفتاح ٤٠٨، الإيضاح ١٢٩ ، ديوانه ٢٤٠٣ ، التبيان ٦٦ .

فلنذكره بطريق النفي والاستثناء، وطريق إنما: تقول في قصر الفاعل على المفعول: ما ضرب زيد إلا عمراً، وفي قصر المفعول على الفاعل: ما ضرب عمواً إلا زيد، بتأخير المقصور عليه، وقد يقدم نحو: ما ضرب إلا زيد عمراً، ولكن قل دور مثله في الكلام لاستلزامه قصر الصفة قبل تمامها على الموصوف، وتقول في قصر المفعول على المجرور ما اخترت رفيقاً إلا منكم.

وفي قصر المجرور على المفعول ما اخترت منكم إلا رفيقاً.

وفي قصر ذي الحال عليها ما جاء زيد إلا راكباً.

وفي قصر الحال عليه ما جاء راكباً إلا زيد.

ووجه القصر في جميع ذلك أن التفريغ يستلزم تقدير مستثنى منه عام مناسب للمستثنى في جنسه ونسبته إلى العامل لعدم المخصص، واستلزام الإخراج ما يصح أن يخرج منه، ثم يسرى إلى ذلك المقدر ما قبله النفي، فإذا أوجب بعضه بـإلاّ جاء القصر.

وأمر إنما كأمر الاستثناء؛ إلا في جواز تأخير المقصور عن المقصور عليه، للإلباس ومن هذا يظهر الفرق بين ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وبين إنما يخشى العلماء من العباد الله، فإن الأول في انحصار خشية الله في العلماء "والثاني في انحصار خشية العلماء في كونها لله تعالى. والله أعلم بالصواب.

(1) ومثله قولهم: "إنما هو أسد"، و"إنما هو نارٌ"، و"إنما هو سيف صارم"، إذ أدخلوا "إنما" جعلوا ذلك في حُكم الظاهر المعلوم الذي لا يُنْكرُ ولا يدفع ولا يخفى.

القسم الثاني من الكتاب

في علم البيان

وهو معرفة إيراد المعنى الواحد[1] بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة[2] وبالنقصان ؛ ليحترز بذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه .

---

(1) قيده السعد بأن يكون مدلولاً عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال ، وإنما قيده بهذا ؛ لأن اعتبار علم البيان إنما يكون بعد اعتبار علم المعاني ، فلابد من مراعاة علم المعاني في علم البيان فإذا أنكر شخص كرم زيد مثلاً قلت له بطريق الكناية – إن زيداً كثير الرماد – فإذا لم تأت بالتأكيد لم يعتد بهذه الكناية ، وقيل المراد جنس المعنى من غير تقييد بشيء ؛ لأن وظيفة علم البيان غير وظيفة علم المعاني ، فوظيفة الأول ترجع إلى البلاغة ، ووظيفة الثاني ترجع إلى الفصاحة ، وقد سبق أنه لابد من اعتبار الفصاحة من البلاغة ، فإذا نظر إلى هذا كان الأمر في العلمية بعكس ما ذكره السعد فيهما ، والحق أن علم البيان لا ينظر في قول امرىء القيس مثلاً :

ألم تسأل الرَّبع القديم بعَسْعَسا   كأني أنادي إذْ أكَلم أخرسا

من جهة مطابقته لمقتضى الحال أو عدمها ، وإنما ينظر إليه من جهة فساد التشبيه ؛ لأنه لا يقال : كلمت حجراً فلم يجب فكأنه حجر وإنما الجيد في ذلك قول كثير :

فقلت لها يا عزُّ كلُّ مصيبةٍ   إذا وطِّنتْ يوما لها النفس ذلَّت

كأني أنادي صخرة حين أعرضت   من الصُّم لو تمشي بها الصمُ زلَّت

وهذا لا يمنع مراعاة الأحوال والظروف في أبواب علم البيان ، كما أتى القدماء بتشبيهات رغب المحدثون عنها استبشاعاً لها ، كقول امرىء القيس :

وتعطو برخص غير شَثن كأنه   أساريع ظبي أو مساويك إسْحل

فشبه البنان بالأسروعة وهى دودة تكون في الرمل ، وقال ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضةٍ   مُقوَّمة أثمارهن عقيق

وهذا أحب من تشبيه امرىء القيس وإن كان أشد إصابة ولكن يجب أن نقبل من هذا مالا يمنعه الذوق ، مثل قولهم– أعطى القوس باريها – كما يقال في الإنجليزية الآن لمن يبالغ في كلامه: يسترع في القوس الطويلة – وفي الفرنسية لمن يتوسل إلى غايته بكل وسيلة : يبري سهاماً من كل خشب .[بغية الإيضاح ٣/٢،٣].

(2) بأن يكون بعض الطرق واضح الدلالة عليه وبعضها أوضح ، وبهذا يكون الاختلاف بينهما في حدود وضوح الدلالة ؛ لأن علم البيان يقصد منه الاحتراز عن التعقيد المعنوي فلا يطلب فيه إلا وضوح الدلالة ، وقيل : إنه يريد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة وخفائها ، فحذف الثاني على سبيل الاكتفاء ، وقد رجح هذا بأن المطلوب في علم البيان هو خفاء الدلالة لا وضوحها ؛ لأنه كلما كان خفي الدلالة كانت منزلته أعلى ، ولا شك أن المراد بهذا الخفاء ما يكون بسبب دقة المعنى لا بسبب التعقيد ، واختلاف تلك الطرق في ذلك يكون باعتبار قرب المعنى المجازي وبعده من المعنى الحقيقي ، وباعتبار اختلاف القرينة المنسوبة في دلالتها على المراد . [المصدر السابق نفسه] .

وإيراد المعنى بهذه الطرق بالدلالات الوضعية غير ممكن ، وإنما يمكن بالدلالات العقلية مثل : أن يكون لشيء تعلق بآخر ، وثان وثالث ، فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به تفاوتت في وضوح الدلالة أو خفائها ، بحسب تفاوتها في وضوح التعلق وخفائه . **والدلالات العقلية ثلاث** : دلالة الشيء على جزئه ، ودلالة الملزوم على اللازم ودلالة اللازم المساوي على الملزوم ويعتبر في اللزوم أن يكون مما يثبته العقل ، أو اعتقاد المخاطب لعرف أو غيره ، وكذا في المساواة ، وإقامة اللازم المساوي مقام الملزوم على وجه لا ينافي الحقيقة كناية ، وإقامة ما سواه مقام متعلقه مجازاً . **وهو أقسام منها** :

الاستعارة : وهي متوقفة على **التشبيه** ، فلنبدأ به فنقول :

اعلم أن : التشبيه يستدعى طرفين ، واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر، وأنه لا يصار إليه إلا لغرض ، وأن حاله تتفاوت في القرب والبعد والتوسط والقبول والرد، فليكن الكلام فيه أربعة أنواع :

الأول : في طرفي التشبيه : ولا يخلو أن يكونا حسيين أو عقليين ، أو أحدهما حسيًّا ، والآخر عقلياً ، كما في تشبيه الخد بالورد ، والأطيط بصوت الفراريج ، والنكهة بالعنبر ، والريق بالخمر ، والجلد الناعم بالحرير وتشبيه العلم بالحياة ، والمنية بالسبع ، والعطر بخلق كريم ، ويلحق بالحسيات الخياليات ، وبالعقليات الوهميات والوجدانيات .

النوع الثاني : في وجه التشبيه : الطرفان إما متفقان بالحقيقة مفترقان بالوصف ، وإما بالعكس من ذلك . والوصف : إما حسي كالكيفيات الجسمانية كالألوان والأصوات والطعوم والحرارة والبرودة .

وإما عقلي وهمي كما إذا قدرنا مع المنية صورة ثم شبهناها بالناب .

أو إضافي ككون الشيء مطلوب الوجود أو العدم .

أو حقيقي كالكيفيات النفسانية كالعلم والقدرة والسخاء .

ثم وجه التشبيه : إما واحد أو غير واحد ، وهو إما في حكم الواحد لكونه

حقيقة ملتئمة أوصافاً مقصوداً من مجموعها إلى هيئة واحدة ، وإما غير ذلك ، فهذه ثلاثة أقسام :

الأول : إما حسي كما إذا شبهنا الخد بالورد في الحمرة . **وإما عقلي** كما إذا شبهنا الصحابة بالنجوم في الاهتداء المطلق ، والعلم بالحياة في كونه جهة إدراك . والنجوم بالسنن في عدم الخفاء ، والعدل بالقسطاس في تحصيل ما بين الزيادة والنقصان.

القسم الثاني : إما حسي : كما إذا شبهنا سقط الزند بعين الديك في الهيئة الحاصلة من الحمرة والشكل والمقدار والثريا بعنقود الكرم المنور في الهيئة الحاصلة من مقارنة الصور البيض المستديرة الصغار في المرأى على وضع مخصوص ، والشمس بالمرآة في كف الأشل[1] في الهيئة الحاصلة من الاستدارة والإشراق والحركة المتصلة وشبه تموج الإشراق.

وكما في قوله[2] :

كَأَنَّ مثارَ النقعِ فوقَ رؤوسِنَا　　　وأسيافُنا ليلٌ تهاوى كواكبُهْ

من تشبيه الهيئة الحاصلة من النقع الأسود والسيوف البيض متفرقات فيه بالهيئة الحاصلة من الليل المظلم والكواكب المشرقة في جوانب منه .

وقوله[3] :

وكأنَّ أجرامَ النجومِ لوامعاً　　　دُرَرٌ نثرنَ على بساط أزرقِ

من تشبيه الهيئة الحاصلة من النجوم المتلألئة في أديم السماء الصافي في الزرقة بالهيئة الحاصلة المستطرفة من درر منثورة على بساط أزرق . وأمثال ما ذكر من البيتين

---

(1) إشارة لشطر من أرجوزة لجبار بن ضرار ابن أخي الشماخ وعجزه :– لّما رأيتُها بدت فوق الجبل .

(2) البيت من الطويل ، ذكره الطيبي في التبيان ٢٧٨/١ "بتحقيقنا" ، وعزاه لبشار بن برد ، وأورده أيضاً على مشكاة المصابيح ١٠٦/١ "بتحقيقنا" ، القزويني في الإيضاح ٣٤٦ ، المفتاح للسكاكي ٤٤٤ ، ٤٦١ ، العلوي في الطراز ٢٩١/١ ،الجرجاني في دلائل الإعجاز ٩٦، الرازي في نهاية الإيجاز ١٥٥ ، ومثار النقع : الغبار من آثار الحرب .

(3) البيت من الكامل لأبي طالب الرقي ، من شعراء اليتيمة ، الإشارات والتنبيهات ١٥٧ ، أسرار البلاغة ٤٦/٢ ، المفتاح ٤٤٤ ، الإيضاح ٢١٤ ، الطيبي في التبيان ٢٨١ ، وفيه [نشرن] بدلاً من [نثرن] ، والطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١٠٧/١ ، العلوي في الطراز ٢٨١/١ ، نهاية الإيجاز ٢٠٦ ، كشاف مصطلحات الفنون ١٨٦/٤.

يسمى تشبيه المركب بالمركب " والمذكور قبلهما يسمى "تشبيه المفرد بالمفرد" ، ومنه[1] :

كَأَنَّ قلوبَ الطَّيرِ رطباً ويابساً لدى وَكرِهَا العنَّابُ والحشَفُ البالي

وإما عقلي كما إذا شبهنا أعمال الكفرة بالسراب في المنظر المطمع مع المخبر المؤيس ، والحسناء من منبت السوء بخضراء الدمن في حسن المنظر المنضم إلى سوء المخبر والتعرى عن إثمار الخير .

القسم الثالث : على ثلاثة أضرب : **الأول** : كما إذا شبهنا فاكهة بأخرى في لون وطعم ورائحة . **الثاني** : كما إذا شبهنا بعض الطيور بالغراب في حدة النظر وكمال الحذر ، وإخفاء السفاد . **الثالث** : كما إذا شبهنا إنساناً بالشمس في حسن الطلعة ونباهة الشأن وعلو المرتبة.

النوع الثالث : في الغرض من التشبيه : الغرض منه في الغالب **إما بيان حال المشبه** أو مقدار حاله ، أو إمكان وجوده ، كما إذا فضلت إنساناً على جنسه إلى حد توهم إخراجه إلى نوع أشرف فتراه كالممتنع فتقول هو كالمسك الذي هو دم الغزال ، ولا يعد في الدماء لما فيه من الفضيلة .

وإما تقريره في نفس السامع : كما إذا كنت مع من تقرر بأنه لا يحصل من سعيه على طائل فترقم على الماء قائلا : أما إنك في سعيك هذا كرقمي على الماء .

وإما تزيينه أو تشويهه كما إذا شبهت أسود بمقلة الظبي إفراغاً له في قالب الحسن، أو وجهاً مجدوراً بسلحة جامدة قد نقرتها الديكة ، إظهاراً له في صورة أشوه .

---

[1] البيت من الطويل لامرئ القيس ، ديوانه ١٢٢ ، البديع لابن المعتز ٦٩ ، الإيضاح ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، المفتاح ٤٤٥، الرازي في نهاية الإيجاز ٢٠٨ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١٠٧/١ ، العلوي في الطراز ٢٩١/١، والعناب: شجر حبه كحبة الزيتون ، أحمر حلو ، واحدته : عنابه ، وقال بشار بن برد : سمعت قول امرىء القيس ، فما زلت به حتى وقع لي تشبيهان في بيت واحد :

"كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه [سر الفصاحة ٢٣٩]

وإما الاستطراف لكون المشبه نادر الحضور في الذهن **إما في نفس الأمر** كما إذا شبهت الفحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه ذهب ، نقلا له عن صحة الوقوع إلى امتناعه عادة ليستطرف . **وإما مع حضور المشبه** كحضور النار والكبريت مع البنفسج في قوله[1] :

ولازَوَرْديَّةٍ تَزهو بزُرقَتِها بين الرياضِ على حُمْرِ اليواقيتِ
كأنها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائلُ النَّار في أطراف كِبريتِ

وقد يكون الغرض من التشبيه بيان الاهتمام بالمشبه به : كما إذا أشير لك إلى وجه كالبدر أن شبهه ، فقلت كأنه الرغيف ، إظهارا لاهتمامك بشأن الرغيف أو إيهام أن المشبه به أتم في وجه التشبيه من المشبه كما في قوله[2] :

وكأنَّ النجومَ بينَ دُجاها سننٌ لاح بينهنَّ ابْتِداعُ

فإنه لما رأى الصاغة للمعاني شبهوا الهدى والسنن وكل ما هو علم بالنجوم ، وشبهوا البدع وكل ما جهل بالظلمة ، قصد في تشبيهه هذا تفضيل السنن في الوضوح على النجوم وتنزيل البدع في الظلام فوق الدياجي وقوله[3] :

كأنَّ انْتضاءَ البدرِ مِنْ تحتِ غيمهِ نجاءٌ مِن البأساءِ بعدَ وقوعِ

فإنه حين رأى العادة جارية أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي ينحسر عنه الغمام ، قلب التشبيه ليرى أن صورة النجاء من البأساء لكونها مطلوبة فوق كل مطلوب أعرف عند الإنسان من صورة انتضاء البدر من تحت الغمام . ومن الأمثلة ما يحكيه تعالى من قول مستحلي الرِّباَ : ﴿**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**﴾ [البقرة : ٢٧٥] في مقام

---

(١) البيتان من البسيط لابن المعتز ، أوردهما الطيبي في التبيان ١/٢٧٣ "بتحقيقنا" ، العلوي في الطراز ١/٢٦٧ ، الإيضاح ٢٢٢ ، المفتاح ٤٤٩ ، الجرجاني في الإشارات ١٨٨ ، اللازوردية : البنفسجية ، نسبة إلى اللازورد ، وهو حجر نفيس.

(٢) البيت من الخفيف للقاضي التنوخي ، أسرار البلاغة ١٨٣ ، المفتاح ٤٥١ ، الإيضاح ٢٠٨ ، نهاية الإيجاز ١٩٠.

(٣) البيت من الطويل للعلوي الأصفهاني ، أورده الرازي في نهاية الإيجاز ١٩١ ، القزويني في الإيضاح ٢١٠ ، المفتاح ٤٥٢ ، العلوي في الطراز ١/٢٨٣ ، وفيه [انصياع بدلاً من انتضاء] – انتضاء البدر : انكشافه وخروجه من الغيم، نجاء : خلاص ، البأساء : الشدة والعنت .

إنما الربا مثل البيع في الحل ذهاباً منهم إلى جعل الربا في باب الحل أقوى حالا وأعرف من البيع ، وقد يستوي الطرفان في وجه التشبيه فيسمى تشاهاً ويصح فيه العكس فيقال: صبح كغرة الفرس وغرة كالصبح ، واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً وهميًا منتزعاً من أمور خص باسم التمثيل كالذي في قوله[1] :

اصْبرْ على مضضِ الحسو د فإنَّ صبركَ قاتِلهُ

فالنارُ تأكل نفسَها إنْ لم تجدْ ما تأكلهُ

فإن تشبيه الحسود المتارك بالنار التي لا تمد بالحطب ليس إلا فيما يتوهم إذا لم يؤخذ معه في المقاولة من منعه ما يمد حياته . وقوله[2] :

وإنَّ مَنْ أدَّبتهُ في الصِّبا كالعودِ يُسقى الماءَ في غرسهِ

حتى تراه مورقاً ناضراً من بعدِ ما أبصرتَ مِنْ يُبسهِ

فتشبيه المؤدب في صباه بالعود المسقي أوان الغرس إنما هو في المتوهم بما يلازم تأديبه في وقته من كمال حاله وتمام الميل إليها . وقوله تعالى : ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة : ٥] .

فوجه تشبيه الأحبار الذين لم يعملوا بما كلفوا العمل به بالحمار الحامل للأسفار إنما هو المتوهم من حرمانهم الانتفاع بما هو أبلغ نافع من التعب في استصحابه. ومتى فشا استعمال التمثيل على سبيل الاستعارة سمى مثلاً ، كقولهم : "الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ"[3]

---

[1] البيتان من الكامل ، أوردهما الطيبي في التبيان ٢٦٧/١ ، "بتحقيقنا" وعزاهما لابن المعتز ، الجرجاني في الإشارات ١٩٣ ، السكاكي في المفتاح ٤٥٥ ، القزويني في الإيضاح ٢٢٩ – المضض : الألم والوجع .

[2] البيت من السريع لصالح بن عبد القدوس : شاعر عباسي مكثر من الحكم والأمثال في شعره . والبيتان أوردهما القزويني في الإيضاح ٢٣٠ ، السكاكي في المفتاح ٤٥٥ ، الطيبي في التبيان ٢٦٨/١ وفيه [مونقاً بدلا من مورقاً] .

[3] يضرب هذا المثل للرجل يضيع الأمر ؛ ثم يريد استدراكه ، وأصله أن عمرو بن عمرو بن عدس تزوج بنت عمه دختنوس بنت لقيط بن زرارة بعدما أسن ، وكان أكثر قومه مالاً ، ففركته فطلقها ، فتزوجها فتى ذو شباب وجمال من آل زرارة ، ثم غزتهم بكر بن وائل ، فنبهت زوجها ، وقالت : الغارة ، فجعل يقول : الغارة ، ويضرط حتى مات، وأغاروا فأخذوها سبيَّةً، فأدركهم الحيُّ وعمرو بن عمرو في السَّرعان، فقتل منهم ثلاثة، واستنقذها، وقال :

ومنه قول ابن ميادة[1] :

أَلم أكُ في يُمنَى يديـكَ جعلْتَنـي فلا تجعَلنِّي بعدها في شِمالِكـا

أى قد كنت عندك مكرما فلا تجعلني مهانا . وقول بشار[2] :

إذا كنتَ في كل الأمور معـاتبـاً صديقَكَ لم تلق الذي لا تعاتبـه

فعشْ واحداً أو صل أخاكَ فإنـّـه مقارفُ ذنـبٍ مـرةً ومجانبـُه

إذا أنتَ لم تشرَبْ مِراراً على القَذَى ظِمئْتَ، وأىُّ الناسِ تصفو مشاربُه

وقول أبي تمام[3] :

وإذا أراد الله نشـرَ فـضيلـةٍ طُويتْ أتاحَ لها لسـانَ حسُودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جـاورَتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وقول أبي العلاء[4] :

لو اختصرتُمْ منَ الإحسانِ زرتُكُم والعذْبُ يُهْجَرُ للإفراطِ في الخصَرِ

ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تغير . وقد يسمى مثلاً ما كان كالمثل في الحسن والاختصار والغرابة ، كقول النابغة[5] :

= أىَّ حَلِيلَيْكِ وَجَدْتِ خَيْرَا أَألعظيمَ فَيْشَةً وَأَيْـرَا

أم الشَّديدَ للعُدَاةِ خَيْـرَا أم الذِي يَأتِي العَدُوُّ سَيْـرَا

فتزوجت منهم شاباً مُمْلِقاً ؛ فمرت بها بإبل عمرو وكأنها الليل ، فقالت لخادمتها : قولي له ليسقنا من اللبن ، فأتته فقال : قولي لها : "الصَّيْفَ ضَيَّعتِ اللَّبَنَ" جمهرة الأمثال (٤٧٣/١) .

(١) البيت من الطويل لابن ميادة ، ديوانه ١٨٢ ، الإيضاح ٢٧٤ ، التاريخ الكبير ٣٢٩/٥ ، الصناعتين ٣٦٧ ، نقد الشعر ١٦٠ ، تحرير التحبير٢١٥ .

(٢) الأبيات لبشار بن برد في ديوانه ٣٠٦/١ ، نهاية الأرب ٧٩/٣ ، مقارف : مخالط ، مجانب : مباعد ، القذى : ما يقع من الأذى في العين .

(٣) البيتان لأبي تمام في ديوانه ٧٧ ، أسرار البلاغة ٢٢٩/١ ، الإشارات والتنبيهات ١٧٢ ، العمدة ١٦٧/٢ ، الإيضاح ٢٠٤ ، معاهد التنصيص ١٤٢/١ ، أخبار أبي تمام للصولى ٧٢ ، نهاية الأرب ٩٦/٣ .

(٤) البيت لأبي العلاء المعري ، سقط الزند ١٢٠/١ ، خزانة الحموي ٤١٠ ، الإيضاح ٣٤٠ .

(٥) البيت للنابغة ، ديوانه ٧٤ ، البديع لابن منقذ ١٢٥ ، خزانة الحموي ١١٠ ، طبقات الشعراء ٥٦/١ ، تحرير التحبير ٢١٨ ، معاهد التنصيص ٣٥٨/١ ، دلائل الإعجاز ٥٩٣٠ ، الشعر والشعراء ١٧٢ .

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّـــهُ ... على شَعَثٍ أَىُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقول أبي تمام[1] :

وَلَو صَوَّرْتَ نفسكَ لم تَزِدْهَا ... عَلى مَا فيكَ من كَرمِ الطِّبَّــاعِ

وقول المتنبي[2] :

وإذا كانت النفوسُ كبــاراً ... تعبتْ في مُرادهِــا الأجســامُ

وقوله[3] :

ولو لم يعلُ إلا ذو مَحَــلٍّ ... تعالى الجيش وانحــط القتــامُ

النوع الرابع : في حال التشبيه من كونه قريبا أو بعيداً مقبولاً أو مردوداً :

من أسباب قرب التشبيه ونزول درجته أن يكون وجهه أمراً واحداً كمـــا في قولك : هندى كالفحم ، وشهد كالثلج ، أو المشبه به مناسباً للمشبه كما إذا شـبهت الجرة الصغيرة بالكوز ، أو العنبة الكبيرة بالإجاصة. أو يكون غالب الحضور في الذهـن كما إذا شبهت الشعر الأسود بالليل والوجه الجميل بالبدر ، والمحبوب بالروح . ومـن أسباب بعده وغرابته أن يكون وجهه أموراً كثيرة ، أو المشبه به بعيد النسبة عن المشـبه كالخنفساء عن الإنسان عند تشبيهه بها في اللجاج ، أو نادر الحضور في الذهن لكونـه أمراً وهميًا كما في قوله[4] :

---

(1) البيت لأبي تمام ، ديوانه ١٧٢ ، والدلائل ٥١٠ ويروى "فلو".

(2) البيت للمتنبي في ديوانه ٣/٣٤٥ .

(3) البيت للمتنبي في ديوانه ٣/٧٢ ، القتام : العجاج ، وهنا مقابلة بين العلو والانحطاط .

(4) شطر بيت من الطويل لامرئ القيس ديوانه ١٥٠ ، صدره :

أَيَقْتُلُني والمَشْرَفيُّ مضَاجعي

وأورده القزويني في الإيضاح ١٦٩ ، ٢٠٨ ، السكاكي في المفتاح ٤٦١ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصـــابيح ١/١١٠ كلها تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي .

"ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوالِ"

أو مركباً خياليًا كما في قوله[1] :

وكــأن مُحْمَــرَّ الشَّقِيــ ـــقِ إذا تَصوَّبَ أو تَصَعَّدْ

أعلامُ ياقــوتٍ نُشــرْ نَ على رماح من زَبَرْجَــدْ

أو مركباً عقلياً كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِن السَّمَاءِ﴾ [يونس : ٢٤] . ومن أسباب قبول التشبيه أن يكون صحيحاً ، لا كما في قول ديك الجن[2] :

وعاذلةٍ غدت كالسيفِ تكوى ضلوعي باللَّحا واللومِ كيًّا

وأن لا يخلو عن أحد أمرين :

الأول : أن يكون غير مبتذل وافياً بما علق به من الغرض ، مثـل أن يكـون المشبه به إما أعرف شئ بأمر حسي ، والغرض بيان حال المشبه أو مقـدار حالـه ، فالنفس إلى الأعرف عندها أميل ؛ لا سيما فيما إلفها به أكمل . لكن يجب في الثـاني استواء الطرفين في وجه التشبيه ، وإما أتم محسوس في أمر حسي هو وجـه التشبيه، والغرض تقرير المشبه في نفس السامع أو تنـزيل الناقص منـزلة الكامل ، كمـا إذا شبهت القمر بوجه حسن ، وإما مسلم الحكم معروفه فيما يقصد من وجه التشـبيه ، والغرض بيان إمكان الوجود أو محاولة التزيين أو التشويه . وإما نادر الحضور في نفسه أو مع المشبه والغرض الاستطراف ، والنفس تسارع إلى نادر تتطلع إليه .

---

(١) البيتان من الكامل للصنوبرى ، أسرار البلاغة ١٥٨ ، العلوي في الطراز ٢٥٧/١ ، المفتـاح للسـكاكي ٤٦١ ، الإيضاح للقزويني ٢٠٧ ، شرح عقود الجمان بلا نسبة ١٥/٢ ، الإشارات والتنبيهات ١٧٥ ، بلا نسبة كذلـك ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١١٠/١ بتحقيقنا ، الشقيق : نبات أحمر ، تصـوب : مـال إلى أسـفل ، تصعد: استقام إلى أعلى .

(٢) البيت لديك الجن ، وليس في ديوانه ، [وديك الجن هو : عبد السلام بن رغبان الشاعر الوصاف الشعوبي] .
وأصل العذل : الإحراق فكأن اللائم يحرق بعذله قلب المعذول ، كذا في اللسان عن ابن الأعرابي ، واللحا يقصد بـه الملاحاة في الكلام وهى الملاومة والمباغضة ، ثم كثر ذلك حتى جعلت كل ممانعة ومدافعة ملاهاة . كذا حكـاه في اللسان عن الأصمعي .

الثاني : أن يشتمل إما على تشبيه شئ بشيئين كقول امرئ القيس[1] :

وتعطو برخصٍ غير شثن كأنــه أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسحلِ

أو بثلاثة كقول البحتري[2] :

كأنما يبســمُ عــن لــؤلــؤٍ مُنضَّــدٍ أو بــردٍ أو أقــاحِ

أو بأربعة كقول امرئ القيس[3] :

كأن المدامَ وصوبَ الغمــامِ وريحَ الخزامى ونشرَ القطــرْ

يُعلُّ بــه بــردَ أنيابهــا إذا غرّد الطائرُ المستــحِــرْ

أو بخمسة كقول الحريري[4] :

يفترُّ عن لؤلؤٍ رطبٍ وعن بَرَدٍ وعن أقاحٍ وعن طلعٍ وعن حَبَبِ

وإما على تشبيه شيئين بشيئين كقوله[5] :

كأَن قلوبَ الطيرِ رطبًا ويابسًا لدى وكرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

أو ثلاثة بثلاثة كقول الآخر[1] :

---

(1) البيت من الطويل لامرئ القيس ١٥٠ ، شرح عقود الجمان ٣٧/٢ ، نقد الشعر ١٢٧ ، الإيضاح ٢٤٠ ، نهاية الأرب ٤٥/٧ ، العمدة ٢٩٩/١ ، الطراز ٢٨٩/١ . ويروى شعن "بدل "شثن"

(2) البيتان من السريع للبحتري ، في ديوانه ٤٣٥/١ ، الإيضاح ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، الإشارات ١٨٣ ، شرح عقود الجمان ٣٠/٢ ، العمدة ٢٩١/١ ، معاهد التنصيص ٨٨/٢ ، نهاية الأرب ٤٥/٧ ، وفي ديوانه : (كأنما يضحك) بدلاً من (كأنما يبسم) ، والبيت من قصيدة يمدح فيها عيسى بن إبراهيم .

(3) البيتان من المتقارب لامرئ القيس في ديوانه ٩٦ ، الإيضاح ٢٢٩ ، العمدة ٥٥/٢ ، خزانة الأدب ٢٣١/٩ ، الشعر والشعراء ١١٣ ، ويروى "إذا طرب الطائر المستحر" كما في الإيضاح للقزويني .

(4) البيت للحريري ، مقاماته ، الطراز ١٧٣/١ ، تحرير التحبير ١٦٣ ، كشاف مصطلحات الفنون ١٨٧/٤، شواهد الكشاف ٤٣٥ .

(5) البيت من الطويل ، أورده فخر الدين الرازي في نهاية الإيجاز ٢٠٨ ، وعزاه لامرئ القيس ، القزويني في الإيضاح ٣٦٧ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١٠٧/١ ، العلوي على الطراز ٢٩١/١ ، المفتاح ٤٤٥ ، الإشارات ١٨٢ ، وديوان امرئ القيس ٣٨ ، العمدة ٢٩٠/١ ، سر الفصاحة ٢٢٩ ، طبقات فحول الشعراء ٨١/١ ، الشعر والشعراء ١٠٧ ، البديع ٢٦٢ ، نهاية الإعجاز ١٥٥ ، ٢٠٨ ، أخبار أبي تمام للصولي ١٧ ، الإيضاح ٢٢٧ ، شواهد الكشاف ٤٧٤ .

ليلٌ وبدرٌ وغصنٌ شعرٌ ووجهٌ وقدٌّ
خمرٌ ودرٌّ وورد ريقٌ وثغرٌ وخدٌّ

أو أربعة بأربعة كقوله[2] :

لَهُ أَيْطَلاَ ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفُلِ

وكقول أبي نواس وهو مما يلحق به[3] :

يبكي فيذرى الدُّرَّ من نرجسٍ ويمسحُ الوردَ بِعُنَّابِ

أو خمسة بخمسة كقول الوأواء الدمشقي[4] :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجِسٍ وسَقَتْ ورداً وعَضَّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ

ومتى تفطنت لأسباب قبول التشبيه تفطنت لأسباب رده . واعلم أنه ليس بواجب التصريح في التشبيه بكلمته ولا بلفظ المشبه ، بل الواجب إذا ترك أن لا يكون مضروباً عنه صفحاً مثله إذا قلت : عندي أسد فإنه استعارة ، بخلاف رأيت بفلاة أسداً وما هو إنسان بل أسد ، وإذا أردت أسداً فعليك به ، فإنها تشبيهات لا فرق بينها إلا في شأن المبالغة . والخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى : ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ [البقرة : ١٨٧] . من التشبيه لا من الاستعارة ، لبيانهما بقوله: من الفجر .

---

(1) البيتان ينسبان لابن المعتز في العمدة ٢٩٢/١ ، وينسبان لابن المعلى في تحرير التحبير ١٦٣ ، وبدون نسبة كما في الطراز للعلوي ٢٩١/١ ، شرح عقود الجمان ٢٨/٢ ، ٣٠ ، نهاية الأرب ٤٦/٧ .وهو هنا يشبه الشعر بالليل والوجه بالبدر والقد بالغصن والريق بالخمر وهكذا كل كلمة في الشطر الأول مشبه به وفي الشطر الثاني مشبه وهكذا في البيت الثاني ، وهذا فن من فنون البديع معروف هو فن اللف والنشر.

(2) البيت لامرئ القيس في ديوانه ١٥٥ .

(3) البيت لأبي نواس في ديوانه ٢٨٠ ، دلائل الإعجاز ٤٥٠ ، خزانة الحموي ٤١١ ، الطراز ٢٩١/١ ، العمدة ٢٩٣/١ ، التبيان ١٦٠ . ويروى "تبكي فتذرى "بدل "يبكي فيذرى" ويروى "تلطم" بدل "يمسح" .

(4) البيت للوأواء الدمشقي ٧٤ ، التبيان ١٦٠ ، نهاية الأرب ٤٣/٧ ، دلائل الإعجاز ٤٤٦ ، سر الفصاحة ٢٤٤ ، العمدة ٢٩٤/١ ، نهاية الإيجاز ٢٤٨ ، شرح عقود الجمان ٣٩/٢ ، المثل السائر ٧٦/٣ . ويروى "فأسبلت" بدل "فأمطرت" .

وأعلى مراتب التشبيه : ترك وجهه وأدواته ، ثم ترك أحدهما ، ثم ذكرهمـــا ، وقد ينتزع الشبه من نفس التضاد لاشتراك الضدين فيه ، ثم ينـــزل منـــزلة التمـــاثل بواسطة التلميح أو التهكم فيقال للجبان ما أشبهه بالأسد وللبخيل هو حاتم ثان .

القول في المجاز

ويتوقف للتعرض على الحقيقة ، فنقول :

الحقيقة : هي الكلمة المستعملة من غير تأويل فيما يدل عليه بالوضع ، وقولي من غير تأويل احتراز من الاستعارة فإنها مستعملة فيما وضعت له على الأصح لبناء دعوى المستعار موضوعاً للمستعار له على ضرب من التأويل ، والمراد بالوضع تعيين الكلمة بإزاء معنى . وتنقسم الحقيقة إلى لغوية وعرفية وشرعية ، وهى فعيل بمعنى فاعل من حق الشيء وجب أو بمعنى مفعول من حققت الشيء أي أثبته ، والتاء على هذا لغلبة الاسمية .

وأما المجاز : فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له -بالتحقيق- الوضع المصطلح عليه ، مع قرينة مانعة من إرادة معناها فيه . فاحترزت بقولي بالتحقيق من خروج الاستعارة ،وبقولي : الوضع المصطلح عليه من خروج ما هو حقيقة في وضع آخر، كما إذا استعمل صاحب اللغة الغائط فيما يفضل من من هضم الغذاء ، أو صاحب العرب الدابة لغير الحمار ، أو صاحب الحقيقة الشرعية الصلاة للدعاء . واحترزت بقولي : مع قرينة مانعة من إرادة معناها فيه من الكناية فإنه يراد بها المكنى عنه ، فهي مستعملة في غير ما وضعت له وليست مجازاً لعرائها عن هذا القيد والمجاز مفعل من جزت المكان أي تعديته، وهو عند علماء هذا الفن نوعان :

الضرب الأول : المجاز الراجع إلى معنى الكلمة الخالي عن الفائدة ، وهو ما عدى عن الدلالة على حقيقة ، بقيد إلى الدلالة عليها بدونه لقرينة ، كقول العجاج[1]:

"وفاحماً ومرسناً مُسَرَّجاً"

وقول الآخر[2] :

---

(1) البيت من الرجز ، أورده القزويني في الإيضاح ٤ ، ٢٥٢ ، وعزاه للعجاج ، أسرار البلاغة ١٢٤/١ ، لسان العرب (سرج) ، (رسن) ، المخصص ٩٢/١ ، ١٥٥/٢ ، المفتاح ٤٧٢ ، انظر ديوانه ٣٤/٢ ، وقبله : "ومقلةً وحاجباً مُزججًا" .

(2) البيت من الطويل للفرزدق ، وصدره : "فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي"

"ولكن زنجيٌّ عظيم المشافرِ"

الضرب الثاني : المجاز الراجع إلى معنى الكلمة المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه، وهو ما عدي بالقرينة عن مفهومه الأصلي إلى غيره لملاحظة بينهما ونوع تعلق كاليد إذا أريد بها النعمة والقدرة ، لتعلقها بما وضعت له من حيث كانت النعمة تصدر من اليد والقدرة أكثر ما تظهر فيها ، وكالغيث إذا أريد به النبات لكون الغيث سبباً لرعيه ، وكالنبات إذا أريد به الغيث لكونه سبباً فيه ، أو السنام كقول من قال : (أسنمة الآبال في سحابه). من هذا يعرف وجه من فسر ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[الزمر: ٦] بإنزال المطر . ومن الأمثلة : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة : ٢٤] أي العناد المستلزم للنار . ومنها ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل : ٩٨] المعنى فإذا أردت القراءة ، ثم أقيم المسبب مقام سببه لقرينة الفاء في "فاستعذ بالله" ، والسنة مستفيضة بتقديم الاستعاذة . ومنها ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأنبياء : ٩٥] أي أردنا إهلاكها لقرينة أنهم لا يرجعون ، أي عن معاصيهم للخذلان . ومنها : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾ [مريم : ٧٣] أي أي الفريقين أبلغ في خير مقامه من الآخر في شره، ثم أقيم المتعلق مقام متعلقه لاستلزامه إياه ، على حد قولهم : "العسل أحلى من الخل" . ومنه قوله[1] :

"يأكُلنَ كل ليلةٍ إكافاً "

أي علفاً بثمن إكاف فأقامه مقام العلف لما بينهما من التعلق .

- في الإيضاح ٢٥٣ بلفظ : ولكن زنجيٌّ غليظُ المشافرِ ، والمخاطب أيوب بن عيسى الضبي ، وكان قد حبس الفرزدق فهجاه ، يشكك في نسبه وينفيه ، بل يدعي أنه غير عربي ، وإنما هو زنجي ، بدليل غلظ شفته التي تشبه مشفر الجمل، انظر خزانة الأدب ٤٤٤/١٠ ، شواهد الكشاف ٤٩٤ ، مجالس ثعلب ١٢٧ ، شرح المفصل ٨٢/٨.

(١) البيت من الرجز لأبي حزابة الوليد بن حنيفة ، أورده القزويني في الإيضاح بلا عزو ٢٤٨ ، السكاكي في المفتاح ٤٧٤ ، شواهد الكشاف ٤٥٥ ، شرح عقود الجمان ٤٥/٢ ، اللسان (أكف) ، الإكاف : من المراكب ، شبه الرحال والأقتاب والجمع أُكُفٌ ، الإكاف : البرذعة ، والضمير التي يصفها أبو حزابة ، الوليد بن حنيفة في قوله قبله: "إنّ لنا أحمرة عجافاً" .

ومنها قولهم "لربيئة القوم عين" حيث كانت هي المقصودة منه وكأنها الشخص كله . ومنها أمثلة الاستثناء لأنه إن كان متصلا فالمستثنى منه مستعمل في بعض ما وضع له لقرينة الاستثناء ، وإن كان منقطعاً فالمسوغ له : إما دعوى دخوله في حقيقة المستثنى منه بضرب من التأويل . وإما نقل أداة الاستثناء إلى معنى الاستدراك ، قال تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ [الحجر : ٣٠،٣١] على التغليب . ومثله : ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء : ١٥٧] وقال ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٨، ٨٩] ، على تقدير إلا سلامة من أتى الله بقلب سليم . وتنزيل السلامة منزلة المال والبنين على حد قوله[1] :

وخيل قد دلفت لها بخيلٍ ... تحيَّة بينهم ضربٌ وجيعُ

هذا إن لم يحمل الاستثناء على التفريع . وقال الراجز[2] :

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

أي إن كان العيس أنيساً ، ليس أنيسها إلا إياها .

وقال النابغة[3] :

عيت جواباً وما بالربع من أحدٍ ... إلا أواري لأياً ما أبينها

على معنى إن كان الأواري أحداً ، فلا أحدٌ بها إلا هو .

---

(1) البيت لعمرو بن معد يكرب ، وهو من الوافر ، ديوانه ١٣٠ ، الإيضاح ٢٦٠ ، المفتاح ٤٨١ ، التبيان للطيبي ٢٩٩/١ ، النوادر ٤٢٨ ، الخزانة ٢٦/٩ ، شرح شواهد الكشاف ٤٢٦ ، شرح الحماسة للمرزوقي ٢٤٦ ، دلفت: زحفت .

(2) الرجز لجران العود النميري عامر بن الحارث الشاعر الجاهلي ، ديوانه ٩٧ ، القزويني في الإيضاح ٢٦٠ ، السكاكي في المفتاح ٤٨١ ، شواهد الكشاف ٩٧ ، الإنصاف ١٦٠ . اليعافير : جمع يعفور ، وهو الغزال ، والعيس : الإبل يخالط بياضها صفرة ، والواحد أعيس وهي عيساء .

(3) البيت للنابغة ، ديوانه ١٤ ، ١٥ ، وصحة البيت كالآتي :

وقفت فيها أصيلانا أسائلها ... عيت جواباً وما بالربع من أحد

إلا الأوارى لأياً ما أبينها ... والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

انظر أسرار البلاغة ٢٦٠ ، المقتضب ٤١٤/٤ ، الاستغناء في أحكام الاستثناء ٥١٣ .

الضرب الثالث : المجاز الراجع إلى معنى الكلمة المفيد المبالغة في التشبيه :

ويسمى الاستعارة : وهى أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد الآخر مدعيًّا دخول المشبه في جنس المشبه به مع سد طريق التشبيه ونصب القرينة ، ولهذا سميت استعارة ، فإن الشجاع حال دعوى كونه فرداً من أفراد حقيقة الأسد يكتسى اسمها اكتساء الهيكل المخصوص إياه ، وهكذا العارية ، فإن المستعير فيها كالمعير لا يتفاوتان إلا بأن أحدهما مالك والآخر ليس كذلك . والاستعارة من المجاز اللغوي لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له ، فإن ادعاء كون الشجاع أسداً لا يتجاوز حديث كمال الشجاعة ، وليس الأسد موضوعاً لها، إذ لو كان موضوعاً لها لكان صفةً لا اسماً ، ولكان استعماله فيمن هو على غاية من البطش والجراءة ليس من باب التشبيه ، فيضرب بعرق في المجاز، وقيل هي من المجاز العقلي ، لأن كونها من المجاز اللغوي يستدعى استعمال اللفظ في غير موضوعه الأول ، وذلك يقدح في الدعوى والإصرار على أن الشجاع من أفراد الأسود ، وأن الكامل الصباحة شمس أو قمر وأن يكون موضع تعجب قوله[1] :

قامتْ تظللني من الشَّمْسِ نفسٌ أعزّ عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجبٍ شمسٌ تظللني من الشمسِ

أو موضع نهى عن التعجب كقوله[2] :

لا تعجبوا من بِلى غلائِلِهِ قد زرَّ أزرارَه على القمرِ

---

[1] البيتان من الكامل ، أوردهما القزويني في الإيضاح ٢٥٩ وعزاهما لابن العميد [الفضل محمد بن الحسين العميد] إمام الكتاب في القرن الرابع الهجري ، وإليه تنسب الطريقة الكتابية التى راجت عند كتاب عصره ، وزر لركن الدولة البويهي إلى أن مات سنة ٣٦٠هـ ، وانظر البيتين في نهاية الإيجاز ٢٥٢ ، الطراز ٢٠٣/١ ، المفتاح ٤٧٩ ، الإشارات ٢١٠ ، أسرار البلاغة ٢٤٤ ، التبيان للطيبي ٢٩٨/١ "بتحقيقنا" .

[2] البيت من المنسرح لابن طباطبا العلوي [أبو الحسن محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٢٢هـ] ، وانظر البيت في الطراز ٢٠٣/٢ ، نهاية الإيجاز ٢٥٣ ، الإيضاح ٢٥٩ ، المفتاح ٤٧٩ ، أسرار البلاغة ٢٤٦ ، الإشارات ٢١٠ ، شرح عقود الجمان ٥٨/١ .

وقوله [1]:

تَرى الثيابَ من الكتّانِ يلمحُها نورٌ من البدر أحياناً فيبليهَا
فكيف تنكرُ أن تبلى معاجِرُها والبدر في كلّ وقتٍ طالعٌ فيها

واعلم : أن الاستعارة من حيث هي : مصرح بها أو مكنى عنها، تحقيقية أو تخييلية، أصلية أو تبعية ، مجردة أو مرشحة ، على سبعة أقسام :

الأول : الاستعارة المصرح بها التحقيقية : وهى أن تذكر مشبهاً به في موضع مشبه محقق بالقيد المذكور كما إذا أردت أن تلحق شجاعاً بالأسود في شدة البطش وكمال الإقدام فقلت : رأيت أسداً يتكلم ، أو عالماً لكثرة فوائده بالبحر في كثرة فرائده فقلت : كلمت بحراً على سرير ، أو عدل عادل بالميزان فى إباء التفاوت فقلت : ميزان أميرنا لا يقبل التفاوت ، أو تردد من استفتى فيهم بالجواب تارة ويمسك أخرى بتردد من قام لأمر فيريد الذهاب تارة فيقدم رجلا ولا يريده تارة فيؤخر أخرى فقلت: أراك أيها المفتى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، ومن الأمثلة استعارة اسم أحد الضدين للآخر بواسطة تنزيل التضاد منزلة التناسب كما إذا قلت تواترت على فلان البشارات بعزله ونهب أمواله وقتل أولاده. وقد يكون قرينة الاستعارة معنى واحداً كما رأيت .

وقد تكون قرينة الاستعارة معاني متآخذة كالتي فى قوله [2] :

وصاعقةٍ من نصله ينكفي بها على أرؤسِ الأقرانِ خمسُ سحائبِ

---

[1] البيتان من البسيط ، لأبي المطاع ناصر الدولة الحمداني ، انظر الإشارات ٢١٠ ، الإيضاح ٢٥٩ ، العلوي في الطراز ٢٣١/١ ، المفتاح للسكاكي ٤٨٠ .

المعاجر : مفرده المعجر ، والعجار : ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها .

[2] البيت من الطويل للبحتري ، انظر ديوانه ١٧٩/١ ، الطراز ٢٣١/١ ، الإيضاح ٢٦١ ، المفتاح ٤٨٤ ، التبيان للطيبي ٣٠٠/١ ، وشرحه على المشكاة ١١٧/١ "بتحقيقنا" ، معاهد التنصيص ١٣١/٢ ، عقود الجمان ٤٦/٢ ، المثل السائر ١٠٤/٢ ، وفى رواية الديوان

وصاعقة من كفه ينكفي بها على أرؤس الأعداء خمس سحائب

ومعنى : "من نصله" : أي من نصل السيف للممدوح، وقوله : "تنكفي بها" : من انكفأ أى انقلب ، والباء للتعدية .

فإنه لما استعار السحائب لأنامل الممدوح ذكر أن هناك صاعقة من نصل سيفه، ثم قال على أرؤس الأقران ، ثم قال خمس سحائب فذكر أنامل اليد ، وجعل ذلك كله قرينة على ما أراد .

القسم الثاني : الاستعارة المصرح بها التخييلية : وهى أن تذكر مشبهاً به في موضع مشبه وهمي ، مقدراً مشابهته للمذكور ، كما إذا شبهت المنية بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا بقيا على ذي فضيلة ولا مرحوم، فيأخذ الوهم في تصويرها بصورة السبع ويخترع لها ما له من جوارح ، ثم تطلق عليه اسمها قائلاً : أنياب المنية أو مخالب المنية الشبيهة بالسبع قد نشبت بفلان . أو كما إذا شبهت الحال الدالة على أمر بالمتكلم ، فيخترع الوهم للحال ما قوام الكلام به ، ثم تطلق اسمه عليه قائلاً لسان الحال الشبيهة بالمتكلم ناطق بكذا . أو كما إذا شبهت حكما دائراً مع تشبيه امرئ بالناقة المنقادة لمستتبعها ، فيثبت له الوهم ما قوام الانقياد به ، ثم تطلق اسمه عليه قائلا : زمام الحكم الشبيه بالناقة فى يد فلان .

وقد تكون الاستعارة المصرح بها محتملة للتحقيق والتخييل كما في قول زهير[1]:

صَحَا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلهُ وعرِّى أفراسُ الصِّبا ورواحِله

فإنه لما عرف أنه أمسك عما كان عليه[2] أو أن الصبا من سلوك سبيل الغي وركوب مركب الجهل ، قال "عرى أفراس الصبا ورواحله" على التخييل[3] ، بطريق

[1] البيت من الطويل لزهير فى ديوانه ١٢٤ ، الطراز ٢٣٣/١ ، الإيضاح ٢٧٨ ، المفتاح للسكاكي ٤٨٦ ، لسان العرب (أجل) ، (رحل) ، وبلا نسبة في كتاب العين ٢٦٨/٣ ، تاج العروس (صحا) ، ولزهير في التبيان للطيبي ٣٠٢/١، وشرحه على مشكاة المصابيح ١١٨/١ "بتحقيقنا" أسرار البلاغة ١٤١/١ ، الصناعتين ٢٩١.

[2] انظر المفتاح ٤٨٦ .

[3] قال في الإيضاح : ويحتمل أن يكون استعارة تخييلية ، وأن يكون استعارة تحقيقية .

أما التخييل فأن يكون أراد أن يبين أنه ترك ما كان يرتكبه أوان المحبة من الجهل والغي وأعرض عن معاودته ؛ فتعطلت آلاته كأي أمر وطنت النفس على تركه ؛ فإنه تهمل آلاته : فتتعطل ؛ فشبه الصبا بجهة من جهات المسير —

تشبيه الصبا في قوة الداعية معه إلى اتباع الهوى بالإنسان القادر على تصريفك فيما يريد ، ثم أخذ الوهم فى تصويره بصورة ذلك الإنسان واختراع ما له من الأدوات ، وأطلق اسمها عليه . ويحتمل أن يكون على التحقيق بطريق جعل الأفراس والرواحل عبارة عن دواعي النفوس والقوى والأسباب التي قلما تأخذ فى اتباع الغي إلا أوان الصبا . وهكذا قوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[الإسراء : ٢٤] . المعنى ألن لهما جانبك وتواضع لهما . ولفظ الجناح استعارة على التخييل بطريق المبالغة في قلب أن يكون الولد لأبويه كالطائر لفرخه فى فرط حنوه عليه ، فجعل طائراً على التشبيه ، ثم أخذ الوهم يصور له ما للمشبه به من الآلات والجوارح ، وأضاف اسمه إلى الذل على الوصف بالمصدر أو غيره رعاية لمزيد البيان ، ويجوز أن يكون على التحقيق بطريق المبالغة في طلب أن يكون جانب المرء لأبويه كالجناح فى تواضعه وتبذله وسهولة التصاقه بالتراب ، فعبر به عنه .

وقوله تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[1][النحل : ١١٢] .

فالظاهر من اللباس الحمل على التخييل ويحتمل الحمل على التحقيق بأن يستعار لما يكتسبه الإنسان عند جوعه وخوفه من امتقاع اللون ورثاثة الهيئة[1] .

= كالحج والتجارة – قضى منها الوطر ؛ فأهملت آلاتها ؛ فتعطلت ؛ فأثبت له الأفراس والرواحل ؛ فالصبا على هذا من الصبوة بمعنى الميل إلى الجهل والفتوة لا بمعنى الفتاء .

وأما التحقيق فأن يكون أراد دواعي النفوس ، وشهواتها ، والقوى الحاصلة لها في استيفاء اللذات ، أو الأسباب التي قلما تتأخذ في اتباع الغي إلا أوان الصبا [الإيضاح ص٢٧٨] .

[1] قال الزمخشري : "الإذاقة جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلاء والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب –شبه ما يدرك من أثر الضر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع ؛ فإن قيل: الترشيح أبلغ من التجريد ، فهلاّ قيل – فكساها الله لباس الجوع والخوف – قلنا : الإذاقة أبلغ ؛ لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ، فكان في الإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة ، فإن قيل – لِمَ لَمْ يقل – فأذاقها الله طعم الجوع والخوف ؟ قلنا : لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت لما يفيده لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عمَّ أثرهما جميع البدن عموم الملابس وسيأتي نقل المصنف هذا الكلام دون عزوه للزمخشري ص١٨٠.

القسم الثالث : الاستعارة بالكناية : وهى أن تذكر المشبه وتريد المشبه بـه ، وتدل بمثل شئ من لوازمه إلى المشبه ، مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر مضيفاً إليها الأنياب أو المخالب قائلا أنياب المنية قد تشبثت بفلان ، ونحوه لسان الحال ناطق بكذا ؛ وزمام الحكم بيد فلان . وقول لبيد [٢] :

"إذ أصبحت بيد الشمال زمامها"

القسم الرابع : الاستعارة الأصلية : وهى أن يكون المستعار اسم جنس فيكون المستعار له كذلك ، ووجه كونها أصلية أن الاستعارة مبناها على التشبيه ، وهو وصف المشبه لمشاركته المشبه به في أمر ، والأصل فيما يوصف الحقائق نحو :جسم أبيض وبياض صاف ، وكذا فيما يشبه به لكونه مضافاً إليه .

القسم الخامس : الاستعارة التبعية : وهى ما يقع في الأفعال والصفات والحروف فإنها لا توصف فلا تحتمل الاستعارة بأنفسها ، وإنما المحتمل لها في الأفعال والصفات مصادرها ، وفى الحروف متعلقات معانيها ، فتقع الاستعارة هناك ، ثم تسرى في هذه الأشياء ، فلا تقول نطقت الحال وهى ناطقة بكذا ، إلا بعد تقرير استعارة النطق لدلالة الحال ، ولا : سال به الوادي ، وطارت به العنقاء ، إلا بعد تقرير استعارة سيلان الوادي به لهلاكه . وطيران العنقاء به لطول غيبته . وقوله تعالى: **﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** [التوبة : ٣٤] ، (بدل أنذرهم) من الاستعارة التهكمية على هذا الأسلوب ومثله: **﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾** [هود : ٨٧] بدل السفيه القوى . وهكذا الحروف

---

(١) راجع المفتاح ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٢) البيت من الكامل للبيد بن ربيعة من معلقته ، ويوجد أيضاً في كتاب شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري بشرح إبراهيم جزيني ٢٣٠ ، انظر ديوانه ٣١٥ ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني بتحقيق محمود شاكر ٦٧ ، أساس البلاغة (يرى) ، الإيضاح للقزويني ٢٧٧ ، الطراز ٢٠٤/١ ، الإشارات ٢٢٨ ، نهاية الإيجاز ٢٥٦ ، شرح شواهد الكشاف ٥٢١ ، نهاية الأرب ٥٧/٧ ، وصدر البيت : "وغداة ريحٍ قد كَشَفْتُ وقرة"
ومعنى القرة والقر : البرد .

فما جاءت لعل في مثل : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١٨٩] إلا بعد ما استعير الترجي لإرادة الطاعة الخفي عنا سببها دون المعصية من العبد الممكن منهما ، ثم استعير لجانب المشبه "لعل" اعتماداً على القرينة .

ولا لام الجر في نحو: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] إلا بعد ما استعير ترتب المعلول على العلة لترتب العداوة والحزن على الالتقاط في الواقع ، ثم استعير لجانب المشبه اللام . وحق ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : ٢] أن تعد فى الاستعارة التهكمية من هذا القبيل، ثم القرينة فى هذا القسم قد تكون من جهة النسبة إلى الفاعل أو المجرور أو المفعول كما في قوله [١] :

"قتل البخلَ وأحيا السماحَ"

وقد اجتمعت فى قوله [٢] :

تَقْرى الرِّياحُ رياضَ الحزنِ مُزْهرةً إذا سرى النومُ في الأجفانِ إيقاظا

القسم السادس : فى تجريد الاستعارة : وهو أن تقرن بما يلائم المستعار له ، كقولك ساورت أسداً شاكى السلاح طويل القناة ، وجاورت بحراً ما أجمعه للحقائق وأوقفه على الدقائق . ومثله قوله تعالى:﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] (إذ لم يقل فكساها الله لباس الجوع والخوف)[٣] لأنه روعي جانب المشبه فاستعيرت الإذاقة لابتلائهم بالنوائب ، لأن الذوق وإن لم يكن كالكسوة فى الملاءمة

---

[١] البيت من المديد لابن المعتز فى ديوانه ٤٦٨/١ وصدره : "جَمعَ الحقُّ لَنَا في إمامٍ" ، انظر البيت في الإيضاح ٢٦٩ ، المفتاح ٤٩٢ ، نهاية الإيجاز ٢٤٣ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١١٩/١ .

[٢] البيت من البسيط ، أورده الرازي في نهاية الإيجاز ٢٤٤ ، الطيبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١١٩/١، العلوي في الطراز ٢٣٨/١ ، شرح عقود الجمان ٥٥/٢ ، تجريد البناني ١٩٩ ، المفتاح ٤٩٢ ، الإيضاح ٢٦٩، ومعنى البيت : أن الرياح تهز الرياض في أثناء هبوبها عليها ، فتنبهها عندما يسرى النوم في الأجفان .

[٣] انظر الإيضاح ٢٧٠ .

فهو أحسن فى البيان لكونه أقوى حالا ، وأعرف بشدة الإدراك من الملبس لاشتماله على الإحساس بالكيفيات الجسمانية من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والملاسة والخشونة وما بينها ومن أنواع الطعوم ، فناسب أن يستعار لإحساسهم بشدة ما نالهم فإن قلت لم لم يقل فأذاقها الله طعم الجوع والخوف ؟ قلت لأن الطعم وإن لاءم الإذاقة فهو مفوت لبيان أن الجوع والخوف قد عم أثرهما جميع البدن عموم الملابس حتى كأنهما من أصنافها بخلاف لفظ اللباس فلذلك كان أولى بالذكر .

القسم السابع : فى ترشيح الاستعارة : وهو أن تقول بما يلائم المستعار منه ، كقولك ساورت أسداً وافى البراثن منكر الزئير ، وجاورت بحراً لا يفيض ماؤه ولا يدرك انتهاؤه ، ومثله قول زهير [1] :

لدَى أسدٍ شاكي السِّلاح مُقذَّف ... لهُ لبدٌ أظفارُه لَمْ تُقلَّمِ

وقوله تعالى : **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾** [البقرة : ١٦] . ومبنى الترشيح على تناسى التشبيه وصرف النفس عن توهم تعاطيه حتى لا تبالي أن تدعى للمستعار له لوازم المستعار منه المساوية ، فتبنى على علو المرتبة وسمو القدر ما تبنيه على العلو المكاني .

قال أبو تمام [2] :

ويصعد حتى يظنَّ الجهولُ ... بأن له حاجةً فى السماءِ

وقال ابن الرومي [1] :

---

[1] البيت من الطويل لزهير في ديوانه ٢٣ ، من معلقته المشهورة التي يمدح فيها الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان.. انظر الإيضاح ٢٥٤ ، ٢٧٠ "بتحقيقنا" ،والترشيح : أبلغ من التجريد ؛ لاشتماله على تحقيق المبالغة ، ولهذا كان مبناه على تناسي التشبيه : حتى إنه يوضع الكلام في علو المنزلة وضعه في علو المكان (الإيضاح) .

[2] البيت من المتقارب لأبي تمام ، ديوانه ٣٢٠ ، الإشارات ٢٢٥ ، الإيضاح ٢٧٠ ، المفتاح ٤٩٤ ، الإيجاز ٢٥٢ . قال في الإيضاح : فلولا أن قصده أن يتناسى التشبيه ، ويصمم على إنكاره ؛ فيجعله صاعداً في السماء من حيث المسافة المكانية ؛ لما كان لهذا الكلام وجه ثم أورد أبيات ابن الرومي .

أعلمُ الناسِ بالنجوم بنــو نُــو بختَ علماً لم يأتهمْ بالحســابِ

بل بأن شاهدوا السماء سمــواً بترق فى المكرُمات الصِّعــابِ

مبلغٌ لم يكن ليدركَــه الطــا لبُ إلا بتلكمُ الأسبـــابِ

وإذا كانوا مع الاعتراف بالأصل يسوغون أن يبنوا على الفرع

كما فى قوله [2] :

هي الشمسُ مسكنُها فى السماءِ فعزِّ الفؤادَ عــزاء جميــلا

فلن تستطيع إليها الطلوعــا ولن تستطيع إليك النــزولا

فهم إلى تسويغ ذلك مع جحد الأصل أقرب .

واعلم : أن الاستعارة من حيث هي مبنية على التشبيه على خمسة أقســام : لأن الجامع بين طرفيها إما حسي وطرفاه حسيان ، وإما عقلي وطرفاه حســيان ، أو عقليان ، أو المستعار حسي والمستعار له عقلي ، أو بالعكس .

فالأول : كقوله : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم : ٤] ، لأن الجامع بين اشتعال النار ، وانتشار الشيب هو انبساط البياض .

والثاني : كقوله تعالى : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريـــات : ٤١]. لأن الجامع بين الطرفين فيه هو المنع من ظهور النتيجة . وقوله : ﴿وَآيَةٌ لَــهُمُ اللَّيْــلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس : ٣٧] ، فإن الجامع فيه بين ظهور المسلوخ من جلدته وبـــين

[1] الأبيات لابن الرومي ، انظر المفتاح ٤٩٥ ، ديوانه ١٤٩/١ ، أسرار البلاغة ١٦٤/٢ ، آل نو بخــت : أســرة اشتغلت بعلم الفلك والنجوم فى العصر العباسي ، وانظر أبياتا أخر في الإيضاح ٢٧١ ويروى "بتكلم" بدل "بتلكم".

[2] البيتان من المتقارب أوردهما الجرجاني في الإشارات ٢٢٤ ، وعزاهما للعباس بن الأحنف ، القزويني في الإيضـــاح ٢٧١ ، ديوانه ٢٢١ ، أسرار البلاغة ١٦٨/٢ ، المفتاح ٤٩٦ ، معاهد التنصيص ١٦١/٢ ، شرح عقود الجمـــان ، فعز : أمر من عزاه إذا حمله على العزاء ، وهو الصبر ، والضمير في إليها راجع إلى الشمس وقوله هى الشمس تشـــبيه لا استعارة ، وفي التشبيه اعتراف بالشبه ، ومع ذلك فقد بنى الكلام على المشبه به ، أي الشمس ، وانظره في شــرح السعد ١٣٥/٤ .

ظهور الليل من ضوء النهار هو كمال الانفصال . وقوله : ﴿حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥] فالجامع بين خمود النار وسكون المهلكين هو الأخذ فى التلاشي .

والثالث : كقوله تعالى : ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس : ٥٢] الطرفان الموت والرقاد ، والجامع عدم الفعل . وقوله : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان : ٢٣] . استعير فيه قدوم المسافر بعد مهلة للجزاء بعد الإمهال ، والجامع وقوع المدة فى البين ، وقوله : ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ﴾ [الملك : ٨] استعير فيه الغيظ من الحالة الوجدانية الداعية إلى الانتقام للحال المتوهمة من النار ، أعاذنا الله منها ، والجامع مزيد الإيلام .

والرابع : كقوله تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء : ١٨] أصل القذف والدمغ للأجسام ثم استعير لإيراد الحق على الباطل وذهابه به ، والجامع هو الإعدام . وقوله : ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ [الأحزاب : ١١] أصل الزلزلة التحريك العنيف، ثم استعير لشدة ما نالهم . وقوله : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر : ٩٤] . الصدع شق الزجاجة ونحوها، ثم استعير لتبليغ الرسالة ببذل الإمكان .

والخامس : كقوله تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة ١١] استعير فيه الطغيان من التكبر لكثرة الماء لما يشتركان فيه من الاستعلاء المفرط . وقوله :﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٨٧] استعير فيه إلقاء الشيء وراء الظهور للتعرض للغفلة ، والجامع اشتراكهما فى الزوال عن المشاهدة .

واعلم أن شرط حسن الاستعارة وقبولها هو رعاية جهات حسن التشبيه ، وأن لا تشم رائحة من جانب اللفظ ، وأن يكون المشبه به فى الاستعارة التحقيقية جلياً بنفسه أو دائراً فى العرف وإلا دخلت الاستعارة فى باب التعمية والإلغاز ، كما لو قلت رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة ، وأردت الناس . وكذا فى الاستعارة التخييلية . ولهذا عابوا على أبي تمام قوله[1] :

---

[1] البيت من الكامل لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي صاحب ديوان الحماسة ، وهو موجود فى شرح ديوانه لشاهين عطية ١٤ ، الإيضاح ٢٨١ ، المفتاح ٤٩٨ ، نهاية الإيجاز ٢٥٤ ؛ فإن قيل : لِمَ لا يجوز أن يريد بغير التابعة للمكني

لا تسقني ماءَ الملامِ فإنَّني صَبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائي

وإنما تحسن هذه الاستعارة الحسن البليغ إذا انضم فيها إلى كونها بالكناية المشاكلة، كقوله تعالى ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح : ١٠] .

الضرب الرابع : المجاز الراجع إلى حكم الكلمة فى الكلام : وهو أن تعدى الكلمة عن إعرابها إلى غيره لزيادة كما فى قوله ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى : ١١] و﴿**وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ [النساء : ٧٩] و﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ**﴾ [فاطر : ٣] . أو حذف كما فى قوله ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ [الفجر : ٢٢] ﴿**وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف : ٨٢] وهذا يشبه المجاز فى تعديه عن أصله ، فلذلك ألحق به وإن لم يشمله الحد .

الضرب الخامس : المجاز العقلي : وهو الكلام المزال إسناده عما هو له عند المتكلم إلى غيره بضرب من التأويل ، والمراد بما الإسناد له عند المتكلم ما يعتقد قيام الفعل به أو صدوره عنه ، ولم أقل "عند العقل" لأنا لم نرهم يحملون نحو [1] :

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيـ ـرَ كرُّ الغداة ومرُّ العشيّ

على المجاز ، ما لم يعلموا أو يظنوا صدوره عن غير جهل .

أو ما ترى كيف استدلوا على أن إسناده ميز إلى الجذب فى قوله [1] :

عنها التابعة لغير المكني عنها ؟ قلنا : غير المكني عنها هي المصرح بها ؛ فتكون التابعة لها ترشيح الاستعارة ، وهو من أحسن وجوه البلاغة ، فكيف يصح استهجانه ؟!!

وأما قول أبي تمام فليس له دليل ؛ لجواز أن يكون أبو تمام شبه الملام بظرف الشراب ، لاشتماله على ما يكرهه الملوم، كما أن الظرف قد يشتمل على ما يكرهه الشارب ؛ لبشاعته أو مرارته ؛ فتكون التخييلية في قوله تابعة للمكني عنها ، أو بالماء نفسه ؛ لأن اللوم قد يسكن حرارة الغرام ، كما أن يسكن غليل الأوام ؛ فيكون تشبيهاً – على حد "لجين الماء" فيما مر ، لا استعارة ،والاستهجان على الوجهين ؛ لأنه ينبغي له أن يشبهه بظرف شراب مكروه ، أو بشراب مكروه ، ولهذا لم يستهجن نحو قولهم : "أغلظت لفلان القول" و"جرعت منه كأساً مرة" أو "سقيته أمر من العلقم" . [الإيضاح ٢٨١] .

(١) أورده الجرجاني في الإشارات ٥ ، وهو لقثم بن خبيبة بن عبد القيس المعروف بالصلتان العبدي من شعراء الدولة الأموية ، والطيبي في التبيان ١/٣٢٠ "بتحقيقنا" ، والطيبي فى شرحه على مشكاة المصابيح ١/١٢٣ "بتحقيقنا" ، المفتاح للسكاكي ٥٠٣ "بتحقيقنا أيضا" .

قد أصبحت أمُّ الخيـارِ تدَّعـى على ذنبـاً كلّـه لـم أصنـع
من أن رأت رأسي كرأسِ الأصلع ميـز عنه قُنـزُعاً عن قُنـزع
جذبُ الليالي أبطئ أو أسرِعي

مجازاة بأن أتبعه قوله [2] :

أفناه قيلُ اللهِ للشمس اطلعي حتى إذا واراكِ أفقٌ فارجعي

الشاهد ، لنـزاهته أن يريد الظاهر . وقولي "بضرب من التـأويل" مخـرج الكذب، وسمى هذا الضرب مجازا عقلياً لتعدى الحكم فيه عن مكانه الأصلي من غـير تغيير للوضع ، وهو على ثلاثة أقسام :

الأول : ما طرفاه حقيقتان : نحو أنبت الربيع البقل ، وهزم الأمـير الجنـد ، وشفى الطبيب المريض . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْـهُمْ إِيمَانًـا﴾ [الأنفال: ٢] .

وقوله : ﴿وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة : ٢] .

الثاني : ما طرفاه مجازان : نحو أحيا البقل شباب الزمان ، وقوله تعالى ﴿فَمَـا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة : ١٦] .

الثالث : ما أحد طرفيه مجازى دون الآخر : نحو أنبت البقل شباب الزمـان ، وعكسه : أحيا البقل الربيع . ومثله ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم : ٢٥] وقـوله : ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد : ٤] .

ومن شرط هذا المجاز أن يكون للمسند إليه شبه بالمتروك فى تعلقه بالعامل.

---

(1) الرجز لأبي النجم فضل بن قدامة العجلي ، أورده الجرجاني في الإشارات ٢٥ ، الطيـبي في التبيـان ٣٢١/١ ، المفتاح للسكاكي ٥٠٤ ، الإيضاح للقزويني ٢٨ .

(2) الرجز لأبي النجم فضل بن قدامة العجلي ، أورده الجرجاني في الإشارات ٢٥ ، الطيـبي في التبيـان ٣٢١/١ ، المفتاح للسكاكي ٥٠٤ ، الإيضاح للقزويني ٢٨ .

القول فى الكناية

وهى ترك التصريح بالشيء إلى مساويه فى اللزوم لينتقل منه إلى الملزوم ، كما تقول فلان طويل النجاد لينتقل منه إلى طول القامة ، وفلانة نؤوم الضحى ، لينتقل منه إلى كونها مخدومة غير محتاجة إلى إصلاح المهمات بنفسها ، وسميت كناية لإخفائها وجه التصريح (يقال) كنى عن الشيء إذا لم يصرح به ، ومنه الكنى فى الأعلام . ولا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه فى بليغ الكلام إلا لتوخى نكتة كالإيضاح ، أو بيان حال الموصوف أو مقدار حاله ، أو القصد إلى المدح أو الذم أو الاختصار أو الستر أو الصيانة أو التعمية والإلغاز ، أو التعبير عن الصعب بالسهل ، أو عن الفاحش بالظاهر ، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [1][البقرة : ٢٢٢] ، وقوله : ﴿كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة : ٧٥] ، وقوله ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

ولا تخرج الكناية عن ثلاثة أقسام :

الأول : الكناية المطلوب بها نفس الموصوف : وهى :

إما قريبة : لكون الوصف بسيطاً كقولك : جاء المضياف وتريد زيداً لعلوض اختصاص المضياف به . (مثله قوله عليه السلام "أكثروا ذكر هازم اللذات)[2] (وهو الموت).

وإما بعيدة : لكون الوصف مركباً كقولك فى رسم الإنسان : حيوان مستوى القامة عريض الأظفار . ومنه قول أبي نواس [1] :

---

(1) لا تقربوهن : أي لا تجامعوهن .

(2) الحديث صحيح ، رواه الترمذي في سننه ، والنسائي ، ابن ماجه ، وابن حبان ، وهو في حلية الأولياء عن ابن عمر ، ورواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، والطبراني في الأوسط ، وانظر صحيح الجامع للشيخ الألباني ١٢١٠ ، المشكاة ١٦٠٧ ، الإرواء ٦٨٢ .

إِذَا أنتَ أَنْكَحْتَ الكريمَةَ كفْأَها

فأنكح حُبيشاً راحةَ ابنةَ ساعدِ

وقُلْ بالرَّفاَ ما نلتُ مِنْ وَصْلِ حُرَّةٍ

لها ساحةٌ حفّتْ بخمسِ وَلائدِ

القسم الثاني : الكناية المطلوب بها نفس الصفة : ويسمى الإرداف: وهي أيضاً : إما قرينة لكون الانتقال إلى المطلوب من أقرب لوازمه ، وإما بعيدة لكون الانتقال إليه من أبعد لوازمه ، ثم القريبة تنقسم إلى : واضحة كقولك : فلان كثير الأضياف .

ومثله قول الشاعر [٢] :

بعيدة مَهْوى القُرط إما لنوفلٍ　　أبوُها وإما عبدِ شمسٍ وهاشمِ

وقول شاعر الحماسة [٣] :

أَبتِ الرَّوادِفُ والثُّدى لقُمُصِها　　مسَّ البطونِ وأَنْ تمسَّ ظُهُورا

وإذا الرياحُ مع العِشيِّ تَناوَحَتْ　　نَبَّهْنَ حاسدةً وهِجْنَ غَيُورا

.بما يظهرنه من محاسنها ، واختار وقت العشى لأنه الوقت الذي يتخلى فيه النساء من الأشغال ويبرزن للعهن ، وينتدى فيه الرجال للحديث ليتم ما أراد من اجتماع الحاسدة والغيور . وقول بعض المغاربة [٤] :

---

(١) البيتان لأبي نواس في ديوانه ٥٥٦ وفيه حسيناً بدلا من حبيشا ، بنت بدلا من ابنه وفيه لها راحة خفّت بخمس ولا يدِ ، الصناعتين ٣٨٣ ، الطراز ٤٨٤/١ ، الإشارات ٢٤١ ، البديع ٦٥ ، ويروى :

إذا أنت زوجت الكريمة كفؤها　　فزوج حميساً راحة ابنة ساعد

حبيشاً : كناية عن الذكر ، ابنة ساعد : كناية عن الكف لوقوعها بين علمين : أى كنايتين ، الراحة : الكف أقامها مقام علم لامرأة .

(٢) البيت بلا نسبة في الطراز ٤٢٤/١ .

(٣) البيتان بلا نسبة بديوان الحماسة ١٣٩/٣ ، الطراز ٤٢٤/١ ، شرح شواهد الكشاف ٤١١ .

(٤) البيتان بلا نسبة في الطراز ٤٢٥/١ .

رشا يرَنو بنرجسةٍ ويعطُو بسوسانٍ ويَبْسِم عن أقاحِ

يُشِيرُ إلى قرْطاةٍ وتُصغى خَلاخِلهُ إلى نَغمِ الوِشَاحِ

وآلى خفية ، كقولهم عريض القفا للأبله ، وقوله عريض الوساد كناية عن هذه الكناية ، وكقول بعضهم يهجو من به داء الأسد ويرمى أمه بالفجور [1] :

أَخُو لَخمٍ أَعَارَكَ منه ثوباً هنيئًا بالقميصِ المستَجَدِّ

يعنى : جذاماً [2] :

أراد أبوكَ أمكَ يوم زُفّتْ فلم تُوجدْ لأمِكَّ بنتُ سُعْدِ

يعنى عذرة . وأما البعيدة : فنحو فلان كثير الرماد ، لأنك تنتقل فيها من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ثم إلى كثرة الإحراق تحت القدور ، ثم إلى كثرة الطبائخ . ثم إلى كثرة الأكلة ثم إلى كثرة الأضياف ، ثم إلى كونه مضيافاً "

وكقوله [3] :

وَمَا يَكُ فىَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّ جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصِيلِ

فإنك تنتقل من جبن الكلب عن الهرير فى وجه من لا يعرف ، إلى استمرار تأديب الكلب ، ثم إلى اتصال مشاهدة وجوه إثر وجوه ، ثم إلى كون القائل مقصد أدان وأقاص ، ثم إلى كونه مضيافا .

وهكذا هزول الفصيل : فإنك تنتقل منه إلى فقد الأم ، ثم إلى صرفها إلى الطبائخ، ثم إلى قرى الأضياف . وكقول الآخر [1] :

---

(1) البيت بلا نسبة في الطراز ٤٣١/١ .

(2) نفس المصدر السابق ،لخم وجذام أخوان ، وورى به الشاعر عن الداء المعروف ، وعذرة علم لبنت سعد ، وورى بها هنا عن البكارة ، وفي الطراز أخو لخم : كناية عن داء الأسد ، وبنت سعد كناية عن العذرة .

(3) البيت من الوافر لابن هرمة ، شاعر من مخضرمي الدولتين ، توفى سنة ١٤٥هـ ، البيان والتبيين ٢٠٥/٣ ، ديوانه ١٩٨ ، التبيان ٣٩ ، الطراز ٤٢٣/١ ، الإشارات ٢٤٢ ، وبلا نسبة فى الحيوان ٣٧٧/١ ، الحماسة ٢٦٠/١، دلائل الإعجاز ٣٠٧ ، نهاية الإيجاز ٢٧١ ، الإيضاح ٢٨٨ ، المفتاح ٥١٥ .

تَراهُ إذا ما أبصَرَ الضيفَ مُقبِلاً يكلّمه من حبِّه وَهْوَ أعْجَمُ

وقول ابن هرمة [٢] :

لا أُمتِعُ العُوذَ بالفصالِ ولا أبتـــاعُ إلاَّ قريبةَ الأجَـــلِ

أي لا أبقى الفصال للعوذ تستأنس بالنظر إليها وتسر بمشاهدة حركتها لديـــها أو لا أبقى العوذ إبقاء على فصالها بل أنحرها وإن أودت الفصال .

القسم الثالث : الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف ومنها لطيـــف كقولهم : المجد بين برديه والكرم بين ثوبيه ، وكقول زياد [٣] :

إنَّ السَمَاحةَ والمروءةَ والنَّـــدَى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الْحَشْرَجِ

فإنه جمع المروءة والسماحة والندى فى قبة ،فنبه على أن محلـــها ذو قبـــة ، ثم ضربها عليه ابتغاء اختصاصها به . ومنها ألطف كقول الآخر[٤] :

والمجدُ يَدْعُو أن يَدومَ لجيـــدِهِ عِقْدٌ مَساعِي ابنِ العميد نظامُه

حيث أثبت لابن العميد مساعي وجعلها نظام عقد مناطه جيد المجد ، فنبـــه بذلك على اعتناء ابن العميد فى تزيين المجد ، وعلى اعتنائه بشأن المجد ومحبته لـــــه ، ثم

---

(١) البيت من الطويل لابن هرمة ، وهو غير منسوب في الحيوان ٣٧٧/١ ، الحماسة ٢٦٠/١ ، ومنسوب لابن هرمـة في البيان والتبيين ٢٠٥/٣ ، والبيت في ديوان ابن هرمة ١٩٨ ، الدلائل ٢٣٩ ، التبيـــان ٣٩ ، الطـراز ٤٢٣/١ ، المفتاح ٥١٦ ، الإيضاح ٢٨٨ ، الجرجاني في الإشارات ٢٤٢ ، وفيه (يكاد) بدلاً من (تراه).

(٢) البيت من المنسرح لابن هرمة ، وتحققت من نسبته له من قصيدة له هي أول ما قال من الشعر ومطلعها:

يا دارَ سُعْدى بالجزع مِن مللِ حييت من دمنٍ ومِن طللِ

وكذلك في ديوانه ١٨٥ ، المفتاح ٥١٧ ، الإيضاح ٢٨٩ ، الإشارات ٢٤٢ ، التبيان للطيبي ٣٢٩/١ "بتحقيقنـــــا" العوذ: النوق الحديثة النتاج من الظباء والخيل ، واحدها : عائذ ، الفصال : جمع فصيل وهو ولد الناقة .

(٣) البيت من الكامل ، أورده القزويني في الإيضاح ٢٩٠ ، وعزاه لأبي زياد الأعجم ، من قصيدة له في المدح ، وهـو كناية عن وصف ممدوحه بالتمكن في صفات المروءة و السماحة والندى ، انظر الطراز ٤٢٢/١ ، نهايـــة الإيجـاز ٢٧١، الإشارات ٢٤٥ ، المفتاح ٥١٧ ، وابن الحشرج : من ولاة بنى أمية ، واسمه عبد الله .

(٤) البيت من الكامل لزياد الأعجم من قصيدة له في المدح ، وهو كناية عن أنه ماجد بدلالة طلب المجد بقاء ممدوحـه عقداً له ، والبيت في الإيضاح ٢٩١ ، المفتاح ٥١٨ ، التبيان للطيبي ٣٣٠/١ ، والطيبي في شـرحه علـى مشـكاة المصابيح ١٢٦/١ ، وابن العميد هو محمد بن الحسين ، وزير البويهيين ، جيده : عنق ، مساعي : أفضال ومكارم ، واحدها : مسعاة .

على أنه ماجد ، وجعل جنس المجد داعياً بدوام ذلك العقد لجيده تنبيها على طلب المجد دوام بقاء ابن العميد ، ثم على اختصاصها بتزيين المجد . وكقول الشنفرى [1] :

يَبيتُ بِمَنْجاةٍ من اللَّوم بَيْتُهـا إذا ما بُيوتٌ بالملامةِ حلَّـتِ

وقول ابن هانئ [2] :

فَما جَازَه جُودٌ ولا حَـلَّ دونـه ولكنْ يَصيرُ الجوُدُ حَيثُ يَصيرُ

وإذ قد وقفت على أقسام الكناية ، فاعلم أن لها أسماء بحسب اعتبارات، فمتى كان اختصاصها بالمكنى عنه عارضاً سميت تعريضـاً ، كقـول الحماسـي في بـنى العجلان[3] :

قبيلتُه لا يغدِرونَ بذمَّـة ولا يظْلِمونَ الناس حبَّةَ خَـرْدلِ
ولا يَرِدُونَ الماءَ إلا عشيَّةً إذا صَدرَ الورَّادُ عن كل منهـلِ

وقول أبي نواس[4] :

فأعرضَ هيثمٌ لما رآنـي كأني قد هجـوْتُ الأدْعِيَـاءَ

فعرض بكون هيثم دعياً ثم تهكم به فقال[5] :

فقد آلَيْتُ لا أهجُو دعيًّـا ولـو بلغتْ مروءَتُه السمـاءَ

---

(1) البيت من الطويل لثابت بن أوس الأزدى الشنفرى وليس في ديوانه ضمن الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمـني ، وهو مذكور في الدلائل ٢٣٩ ، نهاية الإيجاز ٢٧١ ، المفتاح ٥١٩ ، الإيضاح ٢٩٢ ، الطراز ٤٢٤/١ ، الطيـبي في التبيان ٣٣٢/١ ، الطيـبي في شرحه على مشكاة المصابيح ١٢٦/١ .

المنجاة : مكان النجاة ، اللوم : العتاب ، وفيه كناية عن عدم لومها وانتفاء الفجور عنها وعفتها ، وأنها منـزهة عن كل عيب ، وهو مدح لمحبوبته والبيت في الإشارات ٢٤٦ .

(2) البيت من الطويل لأبي نواس من قصيدة يمدح فيها الخطيب ومطلعها :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يُرجَى لديك عَسيرُ

وهو في المدح وفيه كناية عن كرم وسخاء ممدوحه حتى لا يخلو بمحال لذكر الكرماء مـن ذكـره معـهم ، انظـر ديوانه١٨٦ الإيضاح ٢٩١ ، المفتاح ٥٢٠ ، التبيان للطيبي ٣٣١/١ .

(3) البيتان للنجاشي الحارثي ، العمدة ٥٢/١ ، زهر الآداب ١٩/١ ، الشـعر والشـعراء ٢٩٠ ، العقـد الفريـد ١٦٧/٦، مجالس ثعلب ٣٦٣/٢ .

(4) البيت لأبي نواس ، انظر ديوانه ٥٢٣ ، تحرير التحبير ٤٤٦ .

(5) المصدر السابق .

ومتى لم يكن كذلك وكانت بعيدة سميت تلويحاً ، كقوله[1] :

تَقاعسَ حتى قلتُ ليس بمنجلٍ وليس الذى يرعى النجـوم بآيــب

أقام الصبح مقام الراعي الذي يذهب بالماشية ويجيء ، فلوح باستمرار الليـــل تلويحاً عجباً فى الجودة ، وإن كانت الكناية قريبة .

فإن كانت خفية سميت رمزاً ، كقوله يصف امرأة قتل زوجها[2] :

عقلتُ لها من زوجها عددَ الحصى مع الصبح أو مع جُنْحِ كلِّ أصيلِ

وكقول النابغة[3] :

فاحكُم كحكمِ فتاةِ الحي إذ نظرتْ إلى حَمام شِـرَاعٍ واردِ الثّمَـدِ
يحفُّـه جانبـا نيـقٍ وتُتـبِعُـهُ مثل الزجاجة لم تَكحَل من الرَّمَدِ
قالت ألا ليتما هذا الحَمـام لنـا إلى حمامتِنـا أو نصفَـه فَقَـدِ
فكمّلت مائـةً فيهـا حمامتُهـا وأسرعت حسبةً فى ذلك العَـدَدِ

فرمز عدة ما رأته الزرقاء هو ست وستون حمامة .

وإن كانت جلية سميت إيماء وإشارة كقول أبى تمام[4] :

أَبيْنَ فما يَزُرْنَ سـوى كـريمٍ وحَسْبُكَ أَنْ يَزُرْنَ أَباَ سعـيـدِ

وقول الآخر[5] :

---

[1] البيت للنابغة في ديوانه ٤٠ ،ويروى الشطر الأول : "تطاول حتى قلت ليس بمنقضى"
وليل أقعس : كأن لا يبرح ، وعزة قعساء : أي ثابتة ، تقاعس : أي ثبت وامتد .

[2] لم أعثر عليه .

[3] الأبيات للنابغة ، ديوانه ٢٣ ، ٢٥ ، الخصائص ٤٦٠/٢ ، عمـدة الحـافظ ١٣٥ ، التوطئـة ١٧٧ ، الخزانـة ٢٥٣/١٠.

[4] البيت من الوافر لأبي تمام ، ديوانه ٤١١ ، وأبو سعيد هو محمد بن يوسف الثغري الطـائي ، الدلائـل ٢٤١ ، الطراز ٤٢٤/٢ ، الإيضاح ٢٩٣ ، المفتاح ٥٢١ ، التبيان ٤٠ .

[5] البيتان من المتقارب ، وهما لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، كما في الإشـارات للجرجـاني ٢٤٨ ، المفتـاح ٥٢٢، ووردت "المحل" الإيضاح ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ويُنسب البيت لعروة بن جلهمة المازني في لسان العرب (ريـب) تاج العروس (ريب) ، ولزهير السكب التميمى المازنى في الأغاني ، وهما في المدح ، وفيهما كناية عـن وصـف الممدوحين بالكرم .

إذا اللهُ لم يَسْقِ إلاّ الكِرَامَ فَسقَى وجوهَ بني حَنْبَلِ
وسقَى ديَارَهم باكراً من الغَيْثِ فى الزمنِ الأمحَلِ

وقال الآخر[1] :

سألتُ النَّدى والجُودَ مَالى أَراكُماَ تَبدَّلْتُماَ ذُلاًّ بعِزٍّ مؤبَّدِ
وما بالُ ركنِ المجدِ أمسى مُهدَّماً فقالا أُصبْنَا بابن يحيى مُحَمّدِ
فقلتُ فهلاَّ مِتُّمَا عِنِدَ مَوْتِه فَقَدْ كُنتمَا عَبْدَيه فى كل مَشْهَدِ
فقالاَ : أَقَمْنَا كى نُعَزَّى بفَقْدِهِ مَسَافَةَ يَوْمٍ ثُمَّ نَتلُوهُ فِى غَدِ

فإنها فى إفادة كرم أبي سعيد وكرم بنى حنبل وجود محمد على غاية من الظهور.

واعلم[2] : أن أرباب البلاغة مطبقون على أن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الكناية أوقع فى النفس من التصريح ، فإن الاستعارة نوع من المجاز ، وفى المجاز والكناية دعوى الشيء ببينة ، وهو ذكر مالا ينفك عنه بخلاف الحقيقة والتصريح ، وفرق بين دعوى الشيء ببينة ودعواه بدونها ، والله أعلم.

---

(1) الأبيات أوردها الجرجاني في دلائل الإعجاز ٣١٤ ووردت مُؤيد، وقال الشيخ شاكر في الحاشية : (في البيت الأول "عز مؤيّد" ، من "آيَدَه" إذا قوّاه وعّززه ، وكان في المطبوعة والمخطوطين "مؤبد" بالباء الموحدة ، وهو عندي ليس بشيء) ، المفتاح ٥٢٢ "بتحقيقنا" ، التبيان ٤١ .

(2) وقال السكاكي : "واعلم أن التعريض تارة يكون على سبيل الكناية ، وأخرى على سبيل المجاز ، فإذا قلت : "آذيتنى ، فستعرف" ، وأردت المخاطب ومع المخاطب إنساناً آخر معتمداً على قرائن الأحوال ، كان من القبيل الأول ، وإن لم ترد إلاّ غير المخاطب كان من القبيل الثاني . فتأمل ، وعلى هذا فقس وفرع إن شئت ، فقد نبهتك" [المفتاح ٥٢٣]

القسم الثالث من الكتاب

في علم البديع[1]

وهو معرفة توابع الفصاحة ، فلابد للخوض فيه من تقديم ذكرها فنقول :

الفصاحة : هي صوغ الكلام على وجه له توفية بتمام الإفهام لمعناه وتبيين المراد منه . وهى نوعان : معنوية ولفظية .

فالفصاحة المعنوية : خلو الكلام عن التعسف والتعقيد بحيث يكون طريقه إلى المعنى واضحة على وفق مقتضى الظاهر ، أو ما فيها من معاطف فقد نصب عليه المنار وأوقد فيها الأنوار ، ولم يخف مسلك المعنى حتى لا يدرى من أين إليه يتوصل ، ولا بأي شيء على معناه يتحصل . كقول الفرزدق[2] :

وَمَا مِثْلُهُ فِي الناسِ إلا مُمَلَّكاً ... أَبو أُمِّهِ حيٌّ أبوهُ يقَارِبُهْ

وقوله أبي تمام[3] :

ثَانِيهِ فِي كَبِدِ السماء ولم يَكُنْ ... كاثْنَينِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ

وأما الفصاحة اللفظية : فأن تكون الكلمة غريبة على القياس ، سالمة عن التنافر والابتذال ، دائرة على الألسن ، لا مما أخطأت فيه العامة ، ولا مما أحدث المولدون . فإن الكلمة متى لم تكن كذلك ربما مجها السمع ونبا عن قبولها الطبع ، وقلت عناية السامع بالكلام ، فلم يحصل على ماله من الإفهام . وقد ظهر من هذا أن

---

(1) قال في الإيضاح : (هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة) قلت : وهذا التعريف يخرج البديع من دائرة البلاغة ؛ لأنه يجعله وجوهاً للتحسين تأتي بعد تحقيق المطابقة التي يختص بها العلمان الأساسيان وهما : المعاني والبيان ، وفي هذا غمطٌ لحق البديع ؛ فإن له أثراً لا يُنكر في تحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وقد بينت ذلك تفصيلاً في رسالتي للماجستير عن الطيبي وجهوده البلاغية ط . المكتبة التجارية – مكة المكرمة .

(2) البيت أورده الجرجاني في دلائل الإعجاز ٨٣ وعزاه للفرزدق ، المفتاح ٥٢٧ ،وهو للفرزدق في مدح خال هشام ابن عبد الملك بن مروان ، أحد ملوك بني أمية ، وخال الممدوح هو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، لسان العرب (ملك) .

(3) البيت أورده الجرجاني في دلائل الإعجاز ٨٤ وعزاه لأبي تمام ، المفتاح ٥٢٧ .

لا بد في تكميل الفصاحة من إبانة المعنى باللفظ المختار ، وهى من متممات البلاغــة ، ومما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين . ويتفرع منها وجـــوه كثيرة يصار إليها في باب تحسين الكلام . فلنتعرض لذكر الأهم منها في ثلاثة فصـــول لأنها : إما راجعة إلى الفصاحة اللفظية ، وإما راجعة إلى المعنويـــة ، والراجعــة إلى المعنوية إما مختصة بالإفهام والتبيين ، وإما مختصة بالتزيين والتحسين .

الفصـــل الأول

فيما يرجع إلى الفصاحة اللفظية

وهو أربعة وعشرون نوعاً :

١ –**الترديد** : أن تعلق الكلمـــة في المصراع أو مثله نثراً بمعنى ثم تعلقها فيـــه بمعنى آخر. كقوله تعالى﴿**حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ**﴾[الأنعام : ١٢٤].

وقول أبي نواس[١] :

صفراءُ لا تنـــزل الأحزانُ ساحتَها

لو مسَّها حَجرٌ مستهُ ســرَّاءُ

وقد يجتمع في البيت ترديدان : إما متفقان كقوله[٢] :

يُريكَ في الرَّوْع بدراً لاح في غَسَقٍ

في ليْثِ عرِّيسةٍ في صورة الرَّجُلِ

وإما مختلفان كقول الآخر[٣] :

قل لمن سادَ ثم سادَ أبوهُ قبله ثم قبل ذلك جَدُّهُ

ومنه[٤] :

يَطعنهم ما ارتَموا حتى إذا اطَّعنوا

ضَاربَ حتى إذا ما ضَاربُوا اعتنقَا

---

(١) البيت لأبي نواس ، في ديوانه ٦٢ ، خزانة الحموي ١٦٢ ، الطـــراز٣/٨٢ ، ســـر الفصاحـــة ٢٧٧ ، العمـــدة ٢٣٤/١، نهاية الأرب ١٤١/٧ ، الكافي ١٩١ ، تحريـــر التحبـــير ٢٥٤ ، التبيـــان ١٨٦ ،والـــترديد في قولـــه : مسها..مسته " أضاف المس الأول إلى الحجر في الأول ثم أضاف المس إلى السراء في الثانية ليكون الكـــلام متناســـباً مفيداً لفائدة حديدة" [الطراز ٢٣٠/١] .

(٢) البيت بلا نسبة في تحرير التحبير ٢٥٤ .

(٣) البيت لأبي نواس في ديوانه ١٠٦ ، التبيان ١٣٠ ، الجنى الداني ٤٢٨ ، خزانة الأدب ٣٧/١١ ، نتـــائج الفكـــر ٢٥٠ .

(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى ، انظر ديوانه ٥٤ ، تحرير التحبير ٢٥٥ .

وربما اجتمعا في مصراع كقوله[1] :

ليس ما ليس به بأسٌ باسُ   لا يَضُرُّ المرءَ ما قال النَّاسُ

٢-التعطيف : أن تعلق الكلمة في موضع من الصدر بمعنى ثم تعلقـــها فيمـــا سوى الضرب من العجز بمعنى آخر ، كقول الشاعر[2] :

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِيَ الهوى   أَصَاخَ إِلَى الوَاشِي فَلَجَّ بِيَ الهجْرُ

كأن الكلمتين على عطفي البيت . ومنه قول المتنبي[3] :

فساقَ إليَّ العرف غيرَ مكدّرٍ   وسُقتُ إليه المدحَ غيرَ مُذمّمِ

وقد أبدع بما فيه من التعطيفات مع حسن الائتلاف حيث جمع بين العــــرف وعدم التكدير وبين المدح وعدم التذميم .

٣-رد العجز على الصدر : أن تعلق الكلمة في موضع من صدر البيت وفقرة الكلمة بمعنى ، ثم تعلق فى آخر العجز مثلاها بمعنى آخر . وهو تســـعة أقســـام ، لأن الكلمتين لا بد أن يتفقا إما في نفس المعنى واللفظ ، وإما في أصل المعنى والاشـــتقاق ، وإما في أصل الاشتقاق دون المعنى مع كون الأولى منهما واقعة . إما في أول الصـــدر، وإما في آخره ، وإما بينهما ، **فالأول** كقوله[4] :

---

[1] والترديد في البيت : ليس .. ليس ، بأس باس ..الناس .

[2] البيت من الطويل للبحتري ، انظر ديوانه ٨٤٤ ، الدلائل٩٣ ، وفيه (أصاخت) (فلج بهـــا) بلفـــظ المؤنـــث ، الإيضاح ٣١٠ ، المفتاح ٥٣٤ ، نهاية الأرب ١٥٤/٧ ، وفي هذا البيت مزاوجة من عطفه جملة "فلـــج بي الهـــوى" على جملة الشرط : إذا ما نهى الناهي ، ومن عطفه جملة : فلج بي الهوى على جملة جواب الشرط أصاخ إلى الواشـــي فأصبح الشرط مبنياً على جملتين والجواب على جملتين .

[3] البيت للمتنبي ٨٤/٢ ، شرح عقود الجمان ٢٤١/١ ، خزانة الحموي ٤١٧ ، تحرير التحبير ٢٥٨ .

[4] البيت من الطويل ، وهو للمغيرة بن عبد الله المعروف بالأقيشر الأسدي ، لحمرة وجهه ، شاعر ماجن وصـــاف للخمر ، مدمن لها ، توفي سنة ٨٠هـــ ، والبيت الذي يليه:

حريصٌ على الدنيا مضيع لدينهِ   وليسَ لِمَا في بيتهِ بمضيعِ

انظر البيتين في الإيضاح ٣٩ ، ٣٣٨ ، المفتاح ٢٦٦ "بتحقيقنا" وفيه يلطم وجهه بدلاً من يشتم عرضه والندا بـــدلاً من الندى وهما بلا عزو، وانظر كذلك دلائل الإعجاز ١٠٥، الخزانـــة ٢٨١/٢ ، معـــاهد التنصيـــص ٢٤٢/٣ ، الإشارات والتنبيهات ٣٤ ، لطائف التبيان ٤٥ ، والشاهد فيه : رد العجز على الصدر ، وسماه المتأخرون التصديـــر ،

سريعٌ إلى ابنِ العمِّ يَشْتم عِرْضَهَ وليسَ إلى داعي النَّدى بسريعِ

والثاني كقول أبي تمام[1] :

وُجُوهٌ لو انَّ الأرضَ فيها كواكبٌ

توُقَدُ للسَّاري لكانت كواكبَا

والثالث : كقول الشاعر[2] :

سقى الرملَ جَوْنٌ مُستَهِلٌ رَبَابُه وما ذاك إلا حُبُّ مَنْ حلَّ بالرَّملِ

والرابع : كقوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرُوا ربَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح : ١٠] .

والخامس : كقول تعالى : ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ١٦٦].

والسادس : كقول الشاعر[3] :

وما إن شبتُ من كِبَرٍ ولكنْ لَقِيتُ من الأحبَّةِ ما أَشَابا

والسابع : كقوله[4] :

= وهو أن يكون أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في آخر البيت واللفظ الآخر في صدر المصراع أو حشوه أو آخره ، أو صدر المصراع الثاني – انظر معاهد التنصيص ٢٤٢/٣ .

والشاهد في قوله : سريع .. بسريع ، حيث الكلمتين متفقتين في نفس المعنى واللفظ وتقع الأولى في أول الصدر .

[1] البيت في ديوان أبي تمام ٢٢ ، والشاهد في قوله : كواكب ..كواكبا ، والكلمتان متفقتان في أصل المعنى .

[2] البيت لجرير ، وانظر ديوانه ٤٦ ، الصناعتين ٤١٠ ، والشاهد في قوله : الرمل .. بالرمل ، والكلمتان متفقتان في الاشتقاق .

[3] البيت لأبي فراس الحمداني في ديوانه ١٧ ، نهاية الإيجاز ١٣٨ .

[4] البيت من الطويل لأبي الحسن نصر المرغيناني ، انظر الإيضاح ٣٣٩ ، وفيه منها بدل منا "بتحقيقنا" حدائق السحر ١١٣ ، الإشارات والتنبيهات ٢٩٦ ، نهاية الإيجاز ١٣٥ ، ذوائب الأولى : جمع ذؤابة وهى شعر مقدم الرأس ، وذوائب الثانية : جمع ذائبة وهى حمقاء مجنونة ، من قولهم "ذاب الرجل" بمعنى حمق بعد عقل ، العناقيد : جمع عنقود وهو مجتمع حب العنب .

ذَوَائِبُ سودٌ كالعَنَاقِيدِ أُرسِلَتْ

فمِنْ أجلِها منّا النفوسُ ذَوائــبُ

والثامن : كقوله :

لَعمْرِي لَقد كَانَ الثُّريّاً مكانه ثَراءً فَأضْحَى اليومَ مَثْواهُ في الثَّرى

والتاسع : كقوله[1] :

لَقَدْ فَاقَ فِي العَدْلِ البَرِيَّةَ كُلَّهَا فَلَيْسَ لَهُ فِي الخَافِقِين عَدِيلُ

٤- (التشطير) :

أن يكون كل شطرى البيت سجعتين مخالفتين لأختيهما ومن أحسن ما جاء منه قول أبي تمام[2] :

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ لله مُرْتَغِبٍ فِي اللهِ مُرْتَقِــبِ

لتعلق التعطيف والترديد فيه بالتشطير .

٥-الترصيع :

أن يكون الأول من الفقرتين أو شطرى البيت مؤلفاً من كلمات مختلفة والثاني منهما مؤلفاً من مثلها في الوزن والترتيب والتقفية لما سوى العروض ، كقول الخطيب رحمه الله "الحمد لله عاقد أزمة الأمور بعزائم أمره ، وحاصد أئمة الغــرور بقواضم مكره، وموفق عبيده لمغانم ذكره ، ومحقق مواعيده بلوازم شكره" .

وكقول الشاعر[3] :

---

(1) البيت بلا نسبة في نهاية الإيجاز ١٣٩ ، والشاهد في قوله : العدل .. عديل وهما متفقتان في أصل الاشتقاق دون المعنى .

(2) البيت لأبي تمام ، في ديوانه ١٦ ، الإيضاح ٣٤٣ ، وفيه منتقم له ، تحرير التحبير ٣٠٨ ، الإشارات ٣٠٢ ، شرح السعد ١٢٦/٤، معتصم : اسم الخليفة ابن الرشيد وهو ثالث أبنائه الخلفاء من بعده ، والبيت في مدحه بعد فتح عمورية من بلاد الروم ، وكذا الأوصاف بعده ومتعلقاتها ، مرتغب :راغب .

(3) البيت من الوافر لأبي الفتح المطرزي ، الإشارات ٣٠١ ، الإيضاح ٣٤٣ ، نهاية الأرب ١٠٤/٧ زند ندى فواضله ، ثلاث إضافات متتابعة ، زند مشبه به . ندى : جود ، وهو مشبه . فواضل : جمع فاضلة ، وهى هنا الهبة وري : مخرج للنار ، ويجوز أن يكون "زند" تخييلية لمكنية في "ندى" المشبه بالشرر المتتابع ، ويجوز أن يكون "زند" تصريحية بدل "سائل" و"وري" ترشيح ، أو تبعية بدل "ناجح" . زند : نبت طيب الرائحة يشبه الآس . ربى: اسم

=

وزندُ ندَى فواضِلِهِ ورى وزندُ رُبَى فضائِلِــهِ نَضِيــرُ

٦-التسجيع :

أن يكون مقاطع شطر الأجزاء على سجع موافق للروى ومقـــاطع شـــطرها الآخر متداخلة للموافقة مسجوعة وغير مسجوعة فالأول كقول ديك الجن[1] .

حر الإهاب وسيمُهُ ، بر الإيا بِ كريمُهُ ، محض النصاب صميمُهُ

والثاني كقول أبي تمام[2] :

تَجَلَّى بِهِ رشدى وأثرتْ بِهِ يَدى وفَاضَ به ثمدى وأَوْرَى به زَنْدي

وقوله[3] :

وكم نظرةٍ بين السجوفِ كليلةٍ ومحتضنٍ شختٍ ومبتسمٍ بردِ
ومن فاحِمٍ جَعدٍ ومن كَفَلٍ نهدٍ ومن قمرٍ سَعدٍ ومن نائلٍ ثمدِ
محاسن مازالت مساو من النوى تغطّى عليها أو مساوٍ من الصدِّ

٧-التجزئة : أن تأتى مقاطع أجزاء البيت على سجعين متداخلين وأولهمـــا مخالف للروى ، والثاني على وفقه ، كقوله[4] :

هنديــةٌ لحظاتُهــا خطيّــةٌ خطراتُها داريَّـــةٌ نفحَـــاتُهـــا

٨-التسميط : أن تأتي بأجزاء البيت أو بعضها على سجع واحـــد مخـــالف للقافية حتى يكون تسميط العقد والأجزاء المسجوعة بمنـــزلة الحب المجتمع فيه ، وهـــو ضربان :

-جنس جمعي أو جمع تكسير واحدة ربوة وهى المرتفع من الأرض . فضائله : أخلاقه الفاضلة . نضير : أخضر يانع. وربى ، وزند ، ونضير : قرائن على أنه شبه أخلاقه بالروض .

(1) البيت لديك الجن ، في ديوانه ١٥١ ، تحرير التحبير ٣٠٠ ، العمدة ٢٨/٢ .

(2) البيت من الطويل لأبي تمام ، في ديوانه ١٠٣ ، الإشارات ٣٠١ ، الإيضاح٣٤٢ ، أثـــرت : أى صـــارت ذات ثروة، ثمدى : الماء القليل ، أورى : أى صار ذا ورى .

(3) الأبيات لأبي تمام في ديوانه ١١٣ ، كشف مشكل النحو ٤٦٥/٢ .

(4) البيت بلا نسبة في تحرير التحبير ٢٢٩ ، خزانة الحموي ٤٣٦ .

الأول : تسميط التقطيع : ومنه ما أجزاؤه مختلفة كقوله[1] :

وأسمرُ مثمرٌ لمزهِـــر نضـــرٍ   من مقمر مسفر عن منظر حسن

ومنه ما أجزاؤه متساوية ، وتخص باسم الموازنة : كقوله[2] :

أفادَ فسادَ وقـــادَ فـــذادَ   وشـــادَ فجـــادَ وعـــادَ فأفضل

(الضرب الثاني) : تسميط التبعيض : ومنه ما سجعه على المقاطع كقوله[3] :

همُ القومِ إن قالوا أصابوُا وإن دُعُوا

أجابُوا وإن أعطوا أطابُوا وأجْزَلوُا

ومنه ما سجعه مدمج كقول الخنساء[4] :

حَامِي الحقيقَةِ محمودُ الخَليقةِ مَيــْ   مُونُ الطريقة نَفَّاعٌ وضَرَّارُ

جَـــوَّازُ قَاصيةٍ جَـــزَّازُ ناصيـــةٍ   عَقَّادُ أَلْوِيَةِ ، للخَيْل جَرَّارُ

٩-المماثلة : أن يتعدد أو يتوحد في البيت أو نحوه مماثلة في الوزن والتقفيـــة ، أو في الوزن فقط ، بين كلمتين متلاقيتين أو متوازيتين . ومن أمثلته قولـــه تعـــالى :

﴿وربُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَـــى بَعْـــضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء : ٥٥] .

وقول الشاعر[5] :

معتَّقـــةٌ مصفَّقـــةٌ عـــقـــارُ   شآميةٌ إذا مزِجـــتْ مـــروحُ

وأحسن منه قول أبي تمام[1] :

---

[1] البيت لابن أبي الأصبع ، انظر تحرير التحبير ٢٩٦ ، خزانة الحموي ٤٣٤ ، شرح عقود الجمان ١٨٤/٢ .

[2] البيت لامرئ القيس في ديوانه ١٣٩ ، شرح عقود الجمان ١٨٤/٢ ، العمدة ٣١/٢ ، تحرير التحبير ٣٨٦ .

[3] البيت لمروان بن أبي حفصة في ديوانه ٨٨ ، تحرير التحبير ٢٩٥ ، العمدة ٥٩/٢ ، الصنـــاعتين ١٠٩ ، الشـــعر والشعراء ٧٦٥ .

[4] البيتان من البسيط وهما للخنساء في ديوانها ٨١ ، الطراز ٤١/٣ ، شرح عقوْد الجمان ١٨٢/٢ ، وفيـــه مـــهدى الطريقة ، الإيضاح ٣٤٢، الصناعتين ٣٩٣ ، الحقيقة : ما يجب على المرء أن يحميه من عرض ونحـــوه ، الخليقـــة : الخلق .

[5] البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، انظر ديوان الهذليين ٦٩/٢ ، تحرير التحبير٢٩٨ .

مها الوحشِ إلا أنَّ هاتا أوانسٌ   قنا الخطِّ إلاَّ أنَّ تلكَ ذوابِــلُ

وقول البحتري[2] :

فأحجمَ لما لْم يجد فيك مَطْمعًا   وأقدمَ لما لم يجد عنكَ مهْـــربَا

١٠-التوشيع : أن تأتي في عجز الكلام بمثني مفسر بمعطوف ومعطوف عليـه مأخوذ من الوشيعة وهى الطريقة في البرد . ومن أمثلته قوله ﷺ : "يشـــيب ابـــن آدم وتشيب منه خصلتان ، الحرص وطول الأمل"[3] . وقول ابن الرومي في عبد الله بـــن سليمان بن وهب[4] :

إذا أبو قاسمٍ جَادَتْ لنا يدُه   لم يُحمد الأجودان: البحرُ والمطرُ

وإن أضاءتْ لنا أنوارُ غُرَّتِه   تأخر الماضيان : السيفُ والقدرُ

من لم يَبِتْ حَذِراً من سطو صولته

لم يَدْرِ ما المزعجانِ : الخوفُ والحذرَ

ينال بالظنِّ ما يعيا العيانُ به   والشاهدان عليه : العينُ والأثرُ

كأنه وزمامُ الدهر في يـــده   يدرى عواقبَ ما يأتِي وما يذرُ

١١-التطريز : أن يشتمل الصدر على ثلاثة أسماء : مخبر عنه ، ومتعلقين بـــه، ويشتمل العجز على الخبر مقيداً بمثله مرتين . كقول الشاعر[5] :

---

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه ٢٢٦ ، الطراز ٤/٢ ، الإشارات ١٩٨ .

(٢) البيت للبحترى ، انظر ديوانه ٢٠٠ ، الإشارات ٣٠٣ ، سر الفصاحة ١٦٣ .

(٣) الحديث صحيح ، وثبت بلفظ : "يهرم ابن آدم ، ويبقى معه اثنتان : الحرص والأمل" انظـــر صحيـــح الجـــامع ٨١٧٣ ، الصحيحة ١٩٠٦ والحديث عبد أنس في مسند أحمد ، صحيح البخاري ومسلم ، وسنن النسائي . ولـــه لفظ في الصحيحة (٨١٧٤) "يهرم ابن آدم، ويشيب فيه اثنتان : الحرص على المال والحرص على العمر ".. وهو عن أنس في مسلم ، الترمذي ، ابن ماجه ، أحمد ، وعن الرزاق في مصنفه .

(٤) الأبيات لابن الرومي كما في العمدة لابن رشيق القيرواني ١٤٠/٢ ، وفي الصناعتين لأحمد بن أبي طـــاهر ٤٤٣ ، وفي الطراز ٩٠/٣ تنسب لابن الرومي .

(٥) البيتان لأبي هلال العسكري في ديوانه ١٧٤ ، الصناعتين ٣٤٢ ، شرح عقود الجمان ١٧٦/٢ ، الطـــراز ٩١/٣، ٩٢ ، تحرير التحبير ٣١٥ ، البديع لابن منقذ ٧٠ ، والخلوق : طيب معروف يُتخذ من الزعفران وغيره من أنـــواع الطيب ، وتغلب عليه الحمرة والصفرة [اللسان مادة خلق] .

وَتَسقيني وتشربُ مِن رحيقٍ   خليق أن يُلقَّبَ بالخَلــوُقِ
كأنَّ الكأسَ في يَدِها وفيها   عقيقٌ في عقيقٍ في عقيــقِ

وقول ابن الرومي[1] :

أمُورُكمُ بنِي خَاقانَ عِندِي   عُجابٌ في عُجابٍ في عُجابِ
قرونٌ في رءوسٍ في وجوهٍ   صلابٌ في صلابٍ في صلاِبِ

١٢-التشريع : أن يأتي الشعر على ضربين ، فتكون لكل من أبياته قافيتان يصح المعنى في الاقتصار على الأولى منهما وفي زيادة الثانية عليها . ومن أمثلته قول الشاعر[2] :

وإذا الرياحُ مع العشيِّ تناوحت   هوج الرئالِ تَنلْنَهنَّ شمـالا
ألفيتَنا نَقرى العبيطَ لضيفنـا   قبل النِّزالِ ونقتلُ الأبطالا

وقول الحريري[3] :

يا خاطبَ الدنيا الدَّنيَّةَ إنهـا   شرَكُ الرَّدى وقرارةُ الأكْدارِ

...... الأبيات .

١٣-الالتزام : أن يلتزم المتكلم في السجع أو التقفية قبل حروف الروى ما لا يلزمه من مجيء حرف بعينه أو حرفين أو أكثر ، ويحمد منه ما عدم الكلفة لدلالته على

---

(1) البيتان لابن الرومي ، ديوانه ٣٥٣/١ ، شرح عقود الجمان ١٧٦/٢ ، الطراز ٩٢/٣ ، تحرير التحبير ٣١٤ ، خزانة الحموي ٣٧٥ ، والشاهد في قوله : عجاب في عجاب ، وصلاب في صلاب في صلاب .

(2) البيتان للأخطل في ديوانه ١٠٧ ، ١٠٨ ، خزانة الأدب للحموي ١١٩ .

ويروى البيتان : ولقد علمت إذا العشـار تزوجـت   هـدج الـرئال تكبهـن شمـالا
أنـا نـعـجـل بـالعبيط لضيفنـا   قـبل العيال ونقتل الأبـطـالا

والهوجاء : الناقة التي كان بها هوجاً ، أي حمقاً من سرعتها وجمعها هوج ، والرئال : جمع رئل وهو ولد النعام . تنلنهن : أي الرياح لشدتها تغلبهن ، شمال : من جانب الشمال ، العبيط : اللحم الطرى .

(3) للحريري في مقاماته ١٩٢ ، الإيضاح ٣٤٥ "بتحقيقنا" ، وبقية الأبيات :

دار متى أضحكت في يومها   أبكت غداً ، تبا لها من دارِ
غاراتها لا تنقضي وأسيرها   لا يُفتدى بجلائل الأخطارِ

وانظر شرح عقود الجمان ١٩٢/٢ ، شواهد الكشاف ٣٣٥ .

الاقتدار وقوة المادة . ومن أمثلته قول أم زرع "وتزوجت بعده سريا ، يركب فرساً شريا ، فراح على نعما ثريا"[1] .

وقول السادسة :

"إن أكل استف ، وإن شرب اشتف ، وإن رقد التف" .

وما جاء في القرآن الكريم من نحو : ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢] ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ [الطور : ١، ٢] ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير : ١٥ ، ١٦] ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق : ١٧ ، ١٨] ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ [الضحى : ٩ ، ١٠] .

وقل استعماله في أشعار المتقدمين ، وأما المتأخرون فقد أكثروا من تعمده حتى عمل منه أبو العلاء ديواناً كبيراً ، ومنه قوله[2] :

لك الحمدُ . أمواهُ البلاد بأَسْرِها عذابٌ وخصّت بالملوحةِ زمزمُ

هو الحظ عِيرُ الوحش يستافُ أَنفَهُ الـ خزامى وأنفُ العُود بالعُودِ يُخزَمُ

وقوله[3] :

مضتْ لي مِن الأيام سَبْعُونَ حجةً وما أمسكتْ كفَّايَ ثنى عنان

ولا كان لى دارٌ ولا ربعُ منزلٍ ولا مسَّنى من ذاكَ رَوْعُ جَنانِ

تيقنت أنى هالكٌ وابن هالكٍ فهان عليَّ الدهرُ والثقلانِ

ولأبي نواس من ذلك ما يروق سمعه وهو[4] :

---

(1) حديث صحيح ، متفق عليه ، رواه البخاري كتاب النكاح (٨٢) ، باب حسن المعاشرة مع الأهل (٥١٨٩) ، ومسلم (٢٤٤٨).

(2) البيتان لأبي العلاء المعري ، انظر ديوانه في اللزوميات ٨٣/٢ ، عير الوحش : الحمار الوحشي ، العود : العنبر .

(3) الشاهد هنا : التزام حرف النون إلى جانب الروى وهو النون أيضاً .

(4) الأبيات لم أعثر عليها في ديوان أبي نواس ، والشاهد : التزام الكاف إلى جانب الكاف التي جاءت روياً .

عنانُ يا مُنيتي ويـا سَكَـنِي   أما تَريني أجولُ في سكَـك
ملكتِني اليومَ يـا معذِّبتِي   فصيِّريني الغداةَ من فكَـك
وعجِّلِي ذاكَ وارحَمى قَلَقِي   ثم اكتبي لي الأمانَ في صَكَك

١٤ –**التفويف** : أن تأتي بمعان متلائمة في جمل مستوية المقدار أو متقاربة ، من قولهم : ثوب مفوف للذي على لون وفيه خطوط بيض .

وهو ضربان :

الأول : ما جمله على المقاطع ، كقوله يصف سحابا[1] :

يُسربلُ وشْياً من خزُوزٍ تَطرَّزتْ   مَطَارفُها طُرْزًا من البرقِ كالتِّبْرْ
فَوَشْيٌ بلا رقْمٍ ونَقْشٌ بِلاَ يـدٍ   ودَمْعٌ بلا عَيْنٍ وضِحْكٌ بِلاَ ثغْرِ

وقوله[2] :

ومن عجب أن يَحْرسوكَ بخَادمٍ   وخدامُ هذا الحسنِ من ذاكَ أكثرُ
عذارُك ريحانٌ وثغْرُكَ جوهـرٌ   وخدك كافورٌ وخالك عَنـبَـرُ

الضرب الثاني : ما جمله مدمجة . وهو ثلاثة أقسام ؛ لأن جمله إما طوال كما في قول عنترة[3] :

إنْ يلحقُوا أكرُرْ وإنْ يستلحقوا
أَشْدُدْ وإنْ نزلوا بِضَنكٍ أَنْزِل

وإما متوسطة كما في قول ابن زيدون[4] :

(1) البيتان من الطويل ينسبان لأبي العباس الناشئ أحد شعراء سيف الدولة ، وللوزير المهلبي ، انظر البيتين في الإيضاح ٣٠٧ ، وفيه تسربل ، الطراز ٨٦/٣ ، الإشارات ٢٦٦ ، تسربل : لبس ، وشياً : ثياباً موشية ، خزوز : ضروب من الحرير .

(2) الشاهد هنا : في البيت الثاني حيث جاءت أقسامه الأربعة متماثلة في الوزن .

(3) البيت من الكامل ، وهو لعنترة في ديوانه ٢٤٨ ، الإيضاح ٣٠٧ ، العمدة ٢٣/٢ ، يستلحقوا : يطلبون اللحاق بهم ليشدوا من أزرهم ،أشدد : أسرع إليهم لنجدتهم .

(4) البيت من البسيط ، وهو لابن زيدون الأندلسي صاحب ولادة ووزير ابن عباد ، انظر ديوانه ١٣٧ ، الإيضاح ٣٠٧ ، خزانة الأدب ١١٢ ، تحرير التحبير ٢٦١ ، ته : تاه – يتيه ، دل : من الدلال ، وقد استشهد البلاغيون بهذا البيت الذي تكرر فيه أثنتا عشرة جملة كلها فعلية فعلها "أمر" على التكلف الذي يخل بفصاحة الكلام .

تهْ أحتملْ واحتكِمْ أصْبرْ وعزَّ أهُنْ ودلّ أخضعْ وقُلْ أسمعْ ومُرْ أُطلعْ

وإما قصار كما في قول ديك الجن[1] :

احْلُ وامْرُرْ وضُرَّ وانفعْ ولِنْ واخْـ ـشُنْ ورِشْ وابْرِ وانتدِبْ للمعالى

وقد أربى عليه أبو الطيب في قوله[2] :

أَقِلْ أَنِلْ اقْطعْ احْمِلْ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ ادنُ سِر صِلِ

ثم زاد وتباغض فصنع[3] :

عِشْ، ابقَ، اسمُ، سُد، قُــد جُرْ ، مُرْ ، انْهَ، رَه، فُه، اسْرِ، نِلْ

عِظْ، ارمِ، صُب، احْمِ، اغْزُ اسْبِ، رُعْ، زعْ، رَه، لُه، اثنِ، بِل

وإن كان على ما ذكر أنه سئل ينظم بيتاً لم يصنع أكثر كلمات منه ، فصنعه، وفيه أربع وعشرون كلمة ، فله في ذلك قوة وعذر .

١٥-الاطراد : أن يولى الشاعر اسم ممدوحه ليزداد تعريفاً أسماء آبائه على ترتيب صحيح ونسق غير مختل التسلسل ، من غير تكلف في النظم ، ولا تعسف في السبك ، حتى تكون الأسماء في تحدرها كاطراد الماء وسهولة انسجامه . ومن أمثلته قول الشاعر[4] :

إنْ يقْتلُوكَ فَقَدْ ثللتَ عروشَهُــم بعتيبةَ بنِ الحارِث بنِ شِهابِ

وقول الأعشى[5] :

---

[1] البيت من الخفيف لديك الجن (عبد السلام بن رغبان الشاعر الوصاف الشعوبي ، توفي سنة ٢٣٥هـ ، انظر البيت في ديوانه ١٢٠ ، الإشارات ٢٦٧ ، الطراز ٥٦/٢ ، الإيضاح ٣٠٨ "بتحقيقنا" .

[2] البيت للمتنبي في ديوانه ٨٩/٣ ، وفيه عَلِّ سل ، الطراز ٥٥/٢ ، تحرير التحبير ٢٦١ ، خزانة الحموي ١١٣ ، العمدة ٣٠/٢.

[3] البيتان في ديوان المتنبي ٨٩/٣ ، العمدة ٣٠/٢ ، التباغض ضد التحاب ، وأراد هنا تثاقل أو صار بغيضاً من المباغضة .

[4] البيت من الكامل لربيعة بن ذؤابة يرثي ولده ذؤاباً ، وقيل لداود بن ربيعة الأسدي ، انظر الإيضاح ٣٣٢ ، الطراز ٩٣/٣ ، الإشارات ٢٨٨ ، ثللت : هدمت ، كناية عن قضائه على مجدهم .

[5] البيت للأعشى في ديوانه ٢٢٣ ، الطراز ٩٣/٣ ، الحباء : العطاء .

أقيس بن مسعودِ بن قيسِ بن خالدِ   وأنت امرؤٌ يرجُو حباءك وائل

وأجود منه قول دريد بن الصمة[1] :

قَتَلْنَا بعبدِ اللهِ خَـيرَ لِداتِـهِ   ذُؤَابَ بنَ أسماءَ بنَ زيدِ بنَ قَارِبِ

ومنهم من فضل عليه قول بعض المحدثين[2] :

من يكن رامَ حاجةً بَعدتْ عنـ   ـه وأعْيتْ عليه كلَّ العياء

فلها أحمدُ المرجَّى بن يحيى بـ   ـن معاذِ بن مسلمِ بن رجاءِ

وليس بمرضي لأن في بيت دريد إدماجاً يمكن القافية في اطراد أربعة أسماء في شطر من الطويل من غير تكلف . وفي هذا البيت إدماج يمكن القافية في اطراد خمسة أسماء في بيت من الخفيف ، مع ما فيه من تكلف التضمين المشترك ، وهو الفصل بين الأسماء بلفظ المرجى .

١٦-المزاوجة : أن تأتي في غير رد العجز على الصدر بمتماثلين في أصل المعنى والاشتقاق فحسب ، كقوله[3] :

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَـدٌ علينـا   فَنجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وقال تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

١٧-التجنيس[4]: ويسميه قدامة طباقا وهو أن تأتي في غير رد العجز على الصدر بلفظتين بينهما تماثل في الحروف وتغاير في المعنى وهو ثمانية أصناف :

---

(١) البيت من الطويل لدريد بن الصمة ، انظر ديوانه ٢٧ ، العمدة ٨٢/٢ ، الإيضاح ٣٣٢ ، الطراز ٩٣/٣ ، شرح عقود الجمان ١٤١/٢ ، الإشارات ٢٨٨ ، الأغاني ١٣/١ ، تحرير التحبير ٣٥٢ ، وعبد الله المذكور هو أخو دريد ابن الصمة الشاعر ، لداته : أقرانه ، واحدة لدة ، بزنة عدة .

(٢) البيتان في العمدة ٨٣/٢ ، خزانة الأدب ٢٠٢ .

(٣) البيت من الوافر لعمرو بن كلثوم ، انظر خزانة الحموي ٢٢٥ ، شرح شواهد الكشاف ٥٥١ ، شرح القصائد السبع ٤٢٦ ، الإيضاح ٢٤٩ ، والجهل الأول حقيقة ، والثاني مجاز عبر به عن مكافأة الجهل .

(٤) عرَّف قدامة الجناس بأنه : اشتراك المعاني في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق. وقال ابن المعتز : "هو أن تجيء بكلمة تجانس أختها" .

الأول : **التجنيس المماثل** : وهو أن تتفق الكلمتان لفظاً ونوعاً كما في قول عبد الله بن طاهر[1] :

وإنيّ للثّغر المخُوفِ لكـالىءٌ   وللثّغر يجْرِى ظلمه لرشوفُ

وقول الآخر[2] :

يا إخوتيَ مُذْ بانتِ النُّجُبُ   وَجبَ الفؤادُ وكانَ لا يجبُ
فارقْتكُم وبَقِيتُ بَعدكُمُ   ما هكذا كان الذي يجَبُ

الثاني : **التجنيس المستوفي** : وهو أن تتفق الكلمتان لفظاً لا نوعاً ، كقول أبي تمام[3] :

ما مات من كرم الزمان فإنّه   يحيا لدى يحيى بن عبد اللهِ

الثالث : **التجنيس المركب** : وينقسم إلى مفروق ومرفو : **فالمفروق**: ما أحد لفظيه مؤلف من جزأين مستقلين كقوله[4] :

إِذا مَلِكٌ لم يكن ذا هِبَهْ   فَدَعْهُ فدولَتُه ذَاهِبَهْ

والمرفو قسمان : **أحدهما** : ما رفي إحدى كلمتيه ببعض الأخرى .

كقول الحريرى[5] :

---

(1) البيت في العمدة ١/٣٢٣ ، نهاية الأرب ٧/٩٠ .

(2) البيتان في شرح عقود الجمان ٢/١٧١ .

(3) البيت من الكامل لأبي تمام ، من قصيدة يمدح فيها يحيى بن عبد الله ، ديوانه ٣/٣٤٧ ، الإشارات ٢٩٠ ، التبيان ١٦٦ ، الإيضاح ٣٣٣ ، "بتحقيقنا" .

(4) البيت من المتقارب للبستي أبو الفتح علي بن محمد ، الطراز ٢/٣٦٠ ، الإشارات ٢٩٠ ، التبيان ١٦٧ ، شرح عقود الجمان ٢/١٦١ ، معاهد التنصيص ٣/٢١٠ ، الإيضاح ٣٣٤ ، المفتاح ٥٤٠ ، تحرير التحبير ١١٠ .

(5) البيتان من الطويل للحريري كما في المقامة الرازية ، انظر الإشارات ٢٩٠ ، خزانة الحموي ٢٣ ، الإيضاح ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، لا تله : لا تشتغل ، ولا تغفل ، تذكار : تذكر الوبل : المطر الغزير ماؤه ، مصابه : مصدر ميمي بمعني صوبه أى انصابه ونزوله ، الحمام : الموت ، روعة ملقاه : نزع لقائه . مطعم : طعم . وهو مثبت للموت حجازاً عن أثره ووقعة ، الصاب : شجر مر المذاق ، وهو مضاف إلى ضمير الموت من إضافة المشبه به إلى المشبه .

ولا تَلْهُ عَن تَذْكارِ ذَنْبِكَ وابْكِهِ بدمعٍ يحاكى الوبْلَ حالَ مصابهِ
وَمَثِّلْ لعينيكَ الحِمامَ ووقْعَهُ وروعَةَ ملقاهُ ومطعمَ صابهِ

والآخر : ما رفي إحدى كلمتيه بحرف من حروف المعاني إما مصدراً كما في قوله[1] :

تَفَرَّقَ قلبي في هواهُ فعندهُ فَريقٌ وعِندي شُعْبَةٌ وَفَريقُ
إِذا ظمئتْ رُوحِي أقولُ لَه اسْقِنِى وإن لم يكن ماء لديه فَرِيقُ

وإما مؤخراً كما في قول الآخر[2] :

جَعَلْتُ هَديَّتي لَكُمُ سِوَاكاً وَلَم أَقْصِد به أحداً سَواكا
بَعَثْتُ إليك عوداً من أراكٍ رَجاءً أَنْ أعودَ وأَنْ أَراكَا

الرابع : التجنيس المحرف : وهو أن يتفق الكلمتان فيما سوى الشكل أو التضعيف أو زيادة المد ، كقولهم : البدعة شرك الشرك ، وقولهم : الجاهل إما مفرط أو مفرِّط . وقوله الشاعر[3] :

[1] انظر البيتين في جني الجناس للسيوطي ١٣٠ ، والتجنيس بين قوله : (فريق) في آخر البيت الأول ومعناها جماعة و(فريق) المكونة من الفاء ، ولفظة ريق ..أى إن ظميء و لم يجد ماء فإنه يشرب من ريق فم المحبوب .

[2] البيتان لأبي الفتح محمد التغلبي الكاتب ، انظر جنى الجناس للسيوطي ١٢٣ ، جنان الجناس للصفدي ٥٧.
والتجنيس بين لفظه (سواكا) وهو السواك المعروف، و(سواكا) أي : غيرك و(أراك) أي عوداً من شجر الأراك ، و(أراكا) من رأى يرى .

[3] البيت أورده ابن رشيق في العمدة ١/٣٢٣ ، الصناعتين٣٣٦ ، ونسب لرجل من بني عبس، سر الفصاحة ١٨٦، البديع ٢٧ ، جني الجناس ٢٧٣. وسمى ابن رشيق هذا الجناس بالتجنيس المحقق فقال : هو ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن ، سواء رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع ، وتبعه الإمام السيوطي في ذلك واستشهد بنفس الشاهد"[جنى الجناس٢٧٣].

وذلكم أن ذلّ الجار حالفكمْ وأنَّ أنفكُم لا تعرفُ الأنفَا

الخامس : التجنيس الناقص : وهو أن تكون إحدى الكلمتين مشتملة على لفظ الآخر وزيادة مصدرة أو مؤخرة ، كما في قوله تعالى :﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة : ٢٩ ، ٣٠] .

وقول الشاعر[١] :

يمدُّونَ من أيدٍ عواصٍ عواصـمٍ تَصُولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

السادس : تجنيس التصحيف :وهو أن تتفق الكلمتان في عدد الحروف وذوات بعضها مع اتحاد الكتابة ، كقول ابن المعتز[٢] :

لَهُ وجهٌ بـه يُصْبَى ويُضْنَى ومبتسمٌ به يُسْقَى ويُشْفَى

وقال البحتري[٣] :

ولم يكنِ المغتـرُّ باللهِ إذْ نَجَـا ليعجزَ والمعتـزُّ باللهِ طَالِبُـهْ

وقال تعالى :﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٤] .

(١) البيت من الطويل لأبي تمام ، انظر ديوانه ٢٠٦/١ ، الطراز ٣٦٢/٢ ، جنان الجناس ٦٢ ، الإشارات ٢٩٢ ، معاهد التنصيص ٢٢٥/٣ ، شرح عقود الجمان ١٦٤/٢ ، أسرار البلاغة ١٠٩/١ ، تحرير التحبير ١٠٨ ، الإيضاح ٣٣٥ ، ٣٣٧ .

(٢) البيت لابن المعتز ، انظر العمدة ٣٢٧/١ ، وانظر البيت في ديوانه ضمن بيتين آخرين .

(٣) البيت للبحتري في ديوانه ٢١٥/١ ، العمدة ٣٢٧/١ ، البديع لابن منقذ١٧ التبيان ١٦٧ ، سر الفصاحة ١٩١.

السابع : تجنيس التصريف : وهو ما كان كتجنيس التصحيف إلا في اتحـــاد الكتابة وينقسم إلى ما تقاربت فيه مخارج حروفه ويسمى المضارع ، وإلى ما لم يتقارب فيه ويسمى اللاحق ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـــأَوْنَ عَنْــهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] .

وقول الشاعر[1] :

فيالك مِنْ حزمٍ وعزمٍ طواهُمـَـا جديد الْبِلى تحت الصَّفا والصفائحِ

ومن اللاحق قول الشاعر[2]

---

[1] البيت للبحتري في ديوانه ٤٤٧/١ ، العمدة ٣٢٥/١ ، الصفا جمع الصفاة : الحجر الصلد الضخم ، الصفـائح : الأحجار العريضة ، جديد البلى : الموت .

[2] البيت لساعدة بن جؤية الهذلي في ديوان الهذليين ٢٤١/١ ، العمدة ٣٢٧/١ ، والشـاهد في قولـه : حديـد – حديث ، حيث اتفقت اللفظتان ، إلا الدال والثاء .

رأتْ شخصَ مسعودَ بن بِشْرٍ بِكَفِّهِ   حديدٌ حديثٌ بالوقيعةِ مُعْتَـدِ

وقول الآخر[1] :

نظرتُ الكثيبَ الأيمنَ الفردَ نظرةً   فردَّتْ إليَّ الطرف يدمى ويدمعُ

الثامن : تجنيس العكس : ويسمى المخالف وهو أن تشتمل إحدى الكلمتـين على حروف الأخرى دون ترتيبها كقول البحتري[2] :

شواجرُ أرماحٍ تُقطِّعَ بينهَـمِ   شَواجرَ أرحامٍ ملومٌ قطوعُهـا

وقول المتنبي[3] :

ممنعـــةٌ منعمـــةٌ رداحٌ   يكلّفُ لفظُها الطيرَ الوقوعـا

وألحق بالتجنيس قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾[الروم : ٤٣] ، وقوله ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة : ٨٩] .

وقول زهير[4] :

كأنَّ عَيْنى وقدْ سَال السليلُ بهمْ   وجيرةً ما هم لو أنهـم أمـمُ

١٨–المطابقة : أن يجمع في الكلام بين المتضادين ، من قولهم طابق الفـرس إذا أوقع رجله في المشي مكان يده . وهى ثلاثة أضرب :

الأول : ما لفظاه حقيقتان . وينقسم إلى طباق الإيجاب كما في قوله تعـالى : ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف : ١٨] .

ومثله[5] :

---

(١) البيت للشريف الرضي ، ديوانه ٤٩٧ ، البديع لابن منقد ١٧ ، والشاهد في قوله : "يدمى ويدمع" حيث اتفقـت اللفظتان في الحروف إلا الألف والعين .

(٢) البيت في ديوان البحتري ١٢٩٩ ، العمدة ٣٢٥/١ ، جنان الجنـــاس ٧٢ ، الصنـــاعتين ٣٣٤ ، نهايـــة الأرب ٩٧/٧، الرماح الشواجر : المختلفة المتداخلة ، شواجر الأرحام : تشابك القربى .

(٣) البيت من الوافر ، وهو في ديوان المتنبي ٢٥٠/٢ ، الإيضاح ٣٣٦ ، "بتحقيقنا" ، ممنعة : محمية ، منعمة : مرفهة، رداح : كبيرة العجز ، يكلف لفظها .. إلخ كناية عن شدة تأثيره وسحره .

(٤) البيت في ديوان زهير ١٤٨ ، الصناعتين ٣٣٤ ، تحرير التحبير ١٠٣ ، البديع لابن المعتز ٢٨ .

(٥) البيت لأبي صخر الهذلي ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١١٩/٣ ، الإشارات ٢٥٩ ، شرح عقـــود الجمـــان ٨٠/٢ ، شواهد الكشاف ٣٩٣ ، ويُنسب للبحتري في الطراز ٣٨٢/٢ ، الإيضاح ٣٠٠ .

أَمَا والذي أبكى وأضحكَ والذي　　　أماتَ وأحْيا والذي أمره الأمـرُ

وإلى طباق السلب كما في قول البحتري[1] :

يقيضُ لي من حيثُ لا أعلمُ النوى　　　ويسرِى إِلَيّ الشوقُ من حيث أعلمُ

وأحسن منه قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِـنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم : ٧ ، ٦] .

الثاني : ما لفظاه مجازان كما في قوله تعالى : ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام : ١٢٢] أي : ضالا فهديناه . ومثله[2] :

حُلو الشَّمائلِ وهْو مُرٌّ باسلُ　　　يحمى الذمارَ صبيحةَ الإرهـاقِ

الضرب الثالث : ما كان أحد لفظية حقيقة والآخر مجازاً كما في قـول أبي تمام[3] :

له منظرٌ في العينِ أبيضُ ناصعٌ　　　ولكنّه في القلبِ أسودُ أسفـَعُ

١٩-المقابلة : أن تأتي في الكلام بجزأين فصاعداً ثم تعطف عليـه متضمـن أضدادها أو شبه أضدادها على الترتيب ، فإن اختل كانت مقابلة فاسـدة ، وأقلـها مقابلة اثنين باثنين كقوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة : ٨٢] .

ومنه قول الشاعر[4] :

فيا عجبا كيف اتفقنا فناصحٌ　　　وفِيٌّ ومطوىٌّ على الغلِّ غادرُ

وقول عمرو بن كلثوم[5] :

---

[1] البيت للبحتري في ديوانه ١٩٢٤ ، سر الفصاحة ١٩٧ ، الطراز ٣٨٣/٢، خزانـة الحمـوي ٨٦ ، العمـدة ١٢/٢، الإيضاح ٣٠٢ .

[2] البيت منسوب لأبي الشغب العبسي ، أو لأبي الأشعث ، أو الشعبي ، وانظر نهاية الأرب ١٠٠/٧ ، تحرير التحبير ١١٢ ، والطباق بين (حلو ، ومر) وهما وصفان مجازيان .

[3] البيت من الطويل لأبي تمام في ديوانه ١٦٨ ، أخبار أبي تمام للصـولي ٩٨ ، الإيضـاح ٣٠٤ ، الإبانـة ٢٩٠، الأسفع : المائل لونه إلى السواد .

[4] البيت من الطويل ، بلا نسبة في الإيضاح ٣٠٤ ، العمدة ١٥/٢ ، تحرير التحبير ١٨١ .

[5] البيت لعمرو بن كلثوم ، انظر شرح القصائد السبع ٤١٧ .

ورِثْناهــن عن آبــاء صــدقٍ ونورثهــا إذا مِتنــا بنينــا

وأكثرها مقابلة خمسة بخمسة ، فمن مقابلة ثلاثة بثلاثة قول الشاعر[1] :

ما أحسَن الدِّينِ والدُّنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرَّجلِ

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل : ٥-١٠] .

ومثله قول النابغة يصف حماراً وأتاناً وحشيين[2] :

إذا هبطا سهلاً أثارا عجاجــةً وإن وطئا حزناً تشظتْ جنادلُ

فقابل إذا بإن ، وهبطا بوطئا ، وسهلا بحزنا ، وعجاجة بجنادل . ومن مقابلة خمسة بخمسة قول المتنبي[3] :

أزورُهُم وسوادُ الليلِ يشفعُ لي وأنثَنِي وبياضُ الصُّبحِ يُغري بِي

فقابل أزور بأنثني، وسواد ببياض ، والليل بالصبح ، ويشفع بيغـرى ، ولي بي، من غير حشو مع سهولة النظم وتمكين القافية ، ولذلك عد أفضل بيت في المقابلة.

---

(1) البيت من البسيط لأبي دلامة ، وقيل أبو لأمة ، انظر الإشارات ٦٣ ، الإيضاح ٣٠٤ ، العمدة ١٧/٢ ، معاهد التنصيص ٢٠٧/٢، شرح عقود الجمان ٨٥/٢ ، نهاية الأرب ١٠٢/٧ .

وأبو دلامة : كنية زند بن الجون ، شاعر السفاح والمنصور والمهدي ، توفي سنة ١٦١هـ .

(2) البيت في ديوان النابغة ١١٧ .

(3) البيت للمتنبي ، انظر ديوانه ١٦١/١ ، الإيضاح ٣٠٥ ، شرح عقود الجمان ٨٥/٢ ، البديع لابن منقذ ١٣ ، الإشارات ٢٦٣ ، سر الفصاحة ١٩٣ .

وقد رجح بيت أبي الطيب على بيت أبي دلامة بكثرة المقابلة ، مع سهولة النظم ، وبأن قافية هذا ممكنة وقافية ذاك مستدعاة ؛ فإن ما ذكره غير مختص بالرحال .

وبيت أبي دلامة أفضل من بيت أبي الطيب لجودة المقابلة؛ فإن ضد الليل المحض هو النهار لا الصبح[الإيضاح ٣٠٥].

٢٠-التدبيج : أن تذكر في المعنى من المدح أو غيره ألوانا لقصد الكناية أو التورية . فمن تدبيج الكناية قول أبي تمام[1] :

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمراً فما أتى ... لها الليلُ إلاّ وهْيَ مِن سندسٍ خُضرُ

وقول ابن حيوس[2] :

إنْ تُرِدْ علْمَ حَالِهم عن يقينٍ ... فالقَهُم يوم نائل ونزالِ

تلقَ بيضَ الوجوهِ سودَ مُثار الـ ... ـنَّقع خُضْرَ الأكنافِ حُمر النّصالِ

ومن تدبيج التورية : لفظ الأصفر في قول الحريري : "فمذ ازور المحبوب الأصفر ، واغبر العيش الأخضر ، اسود يومي الأبيض ، وابيض فودى الأسود حتى رثى لى العدو الأزرق ، فيا حبذا الموت الأحمر[3] .

٢١-المشاكلة : أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه موقعه كقول الشاعر[4]:

قالوا اقترحْ شيئاً نجد لك طبخهَ ... قلت اطبخوا لي جُبَّةً وقميصا

ومنه قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة : ١٣٨].

وقوله تعالى : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة : ١١٦] .

٢٢-التسهيم : أن يكون صدر الفقرة أو البيت أو شطره مقتضياً لعجزه ودالاً عليه دلالة تستدعي المجيء به ليكون الكلام في استواء أقسامه واعتدال أحكامه كالبرد المسهم في استواء خطوطه. وهو ضربان :

---

[1] البيت من الطويل لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي ، انظر الإيضاح ٣٠٣ ، الطراز ٧٨/٢ ، شرح عقود الجمان ١٠٧ .

[2] البيتان من الخفيف لابن حيوس ، وهو أبو الفتيان محمد بن سلطان ، شاعر شامي اتصل بالمراديين في حلب ، وتوفي ٤٧٣هـ ، انظر البيتين في ديوانه ٤٦/٢ ، شرح عقود الجمان ٨٢/٢ ، الإيضاح ٣٠٣ ، الإشارات ٢٦١، تحرير التحبير ٥٣٣ ، خزانة الأدب للحموي ٤٤١ ، نهاية الأرب ١٨١/٧.

[3] انظر مقامات الحريري ، وانظر الإيضاح ٣٠٣ "بتحقيقنا" ، المحبوب الأصفر : تورية عن الذهب ، العيش الأخضر : كناية عن طيب العيش .

[4] البيت من الكامل لابن الرقعمق الأنطاكي توفي سنة ٣٩٩ ، انظر الإيضاح ٣٠٨ ، المفتاح ٥٣٣ "بتحقيقنا" ، شرح عقود الجمان ١٣٨/٢ ، معاهد التنصيص ٢٥٢/٢ .

الأول : ما دلالته لفظية ، ومنه ما يشبه التصدير كقول ابن دمينة[1] :

وكوني على الواشين لدّاءَ شغبةً | كما أنا للواشي ألدُّ شغــوبُ
وكوني إذا مالوا عليك صليبةً | كما أنا إن مالوا عليّ صليــبُ

ومنه ما يشبه المقابلة كقول الشاعر[2] :

ولو أنني أعطيت من دهرِي المنَى | وما كلّ من يُعْطَى المنى بمسدّدِ
لقلتُ لأيامٍ مضينَ ألاَ ارْجَعي | وقلتُ لأيامٍ أتينَ ألاَ ابعــدِي

الضرب الثاني : ما دلالته معنوية كالثاني من قول أبي نواس[3] :

تمشي الهوينا إذا مشت فضلا | مشي النــزيفِ المخمور في الصعدِ
تظلّ من زورِ بيتِ جارتِهَا | واضعةً كفَّها عَلى الـكـبـدِ

وقد اجتمع الضربان في شعر جنوب أخت عمرو ذى الكلب وهو[4] :

فأقسمت يا عمرو لو نبهّاكَ | إذاً نبها منكَ داءاً عُضَــالاَ
إذا نبها ليث عِــرّيسَــةٍ | مقيتاً مُفيداً نُفوساً ومــالا
وخرق تجاوزتَ مجهــولةً | بوجناءَ لا تتشكى الكــلالاَ
فكنتَ النهارَ بها شمســه | وكنتَ دجى الليلِ فيها الهلاَلا

فالبيت الأول والرابع من الضرب الأول . وعجز البيت الثاني والبيت الثــالث من الضرب الثاني . وأحسن التسهيم ما كان معه من التشاكل وتآخى الألفــاظ مــا يسهل استخراج القافية أو الشطر بكماله ، أو كان مطرداً منعكساً لدلالة أوله علــى آخره ودلالة آخره على أوله ، فمن الأول قوله[5] :

---

(1) البيتان لابن دمينة ، انظر العمدة ٢/٣٣ ، ونُسبا ليزيد بن الطثرية في طبقات فحول الشــعراء ٢/٨٧٢ ، وانظــر الأغاني ٨/٢٩٨٣ .

(2) البيتان في العمدة ٢/٣٤ .

(3) يُنسب البيتان لأبي نواس غير أنهما ليسا في ديوانه ، فضل : نعت مثل : جنب ، وهى التي عليها قميــــص ورداء وليس عليها إزار ولا سراويل ، زور : مصدر بمعنى الزيارة .

(4) الأبيات في العمدة ٢/٣١ ، خزانة الأدب ٣٤٧ ، ديوان الهذليين ٢/١٢١، ١٢٣ .

(5) البيتان بلا نسبة في الصناعتين ١٤٢ ، عيار الشعر ١٢٨ .

وفي أربع مني جلتْ منك أربعُ فلم أتيقن أيها هاج لي كَربي
أَوَجْهُك في عيني أم الريق في فمي أم النطق في سمعي أم الحُبُّ في قلبي

وقول البحتري[1] :

أحلّتْ دَمِي من غير جُرمٍ وحرَّمتْ بلا سبب يومَ اللقاءِ سلامي
فليسَ الذي حللتِهُ بمحللٍ وليس الذي حرّمتِه بحرامِ

ومن الثاني قول أبي نواس[2] :

فما جازه جودٌ ولا حلَّ دونه ولكن يصيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ

لأنه متى انتفى كون الجود يتقدم شخصاً أو يتأخر عنه ، فقد ثبت كونه معه، وبالعكس .

٢٣-التوشيح : أن يكون في الصدر كلمة إذا علم معناها علمت منه قافية البيت ، لكونه من جنس معنى القافية أو ملزوماً له . سمى بذلك لأن دلالة أول ما في الكلام على ما في آخره تنزل المعنى منزلة الوشاح وأول الكلام وآخره بمنزلة العاتق والكشح الذي يجول عليهما ومن أمثلته قوله تعالى :﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران : ٣٣] .

لأن الإعلام باصطفاء المذكورين قد دل على الفاصلة لأن من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختاراً على جنسه أو على نوع منه . وقول الشاعر[3] :

---

[1] البيتان في ديوان البحتري ١٩٩٦/٣ ، ١٩٩٧ ، الإيضاح ٣٠٨ ، الطراز ٣٢٧/٢ ، خزانة الأدب ٣٧٤ ، شروح عقود الجمان ١٤٣/٢ ، الصناعتين ٣٩٨ ، وفي البيتين أيضاً التفات من الغيبة في البيت الأول إلى الخطاب في البيت الثاني .

[2] البيت لأبي نواس في ديوانه ١٣٢ ، من قصيدة يمدح فيها الخطيب ، ومطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسورٌ ما يرجى لديك عسيرُ

وهو في المدح وفيه كناية عن كرم وسخاء ممدوحه حتى لا يخلو مجال لذكر الكرماء من ذكره معهم ، انظر الإشارات ٢٤٦ ، الطراز ٤٢٣/٣ ، الإيضاح ٢٩١ ، المفتاح ٥٢٠ ، الطيبي في التبيان ٣٣١/١ ، "بتحقيقنا" .

[3] البيت للراعي النميري ، انظر العمدة ٣٢/٢ ، شرح عقود الجمان ٩١/٢ ، خزانة الأدب ١٠١ ، الصناعتين ٣٩٨ ، نهاية الأرب ١٣٨/٧ .

وَإِنْ وُزِنَ الحصَى فوزنتُ قَومِي وجدتُ حَصَى ضريبتهم رزينَا

فإن السامع متى فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى وعلم أن القافية نونية مردفة مطلقة بالألف علم أن القافية رزينا ولا بد .

٢٤-القلب : هو أصناف منها : التبديل : وهو عكس الكلمات في الترتيب، كقولهم كلام الملوك ملوك الكلام ، ومثله قول المتنبي[1] :

فلا مجدَ في الدُّنيا لمن قَلَّ مالهُ ولا مالَ في الدُّنيا لمن قلَّ مجدُه

وقال تعالى:﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ**﴾ [يونس : ٣١].

ومنه قلب البعض ومن أمثلته قوله[2] :

وقالوا : أيُّ شئ منه أحلْى فقلت المُقلَتان المُقتِلان

ومنها قلب الكل : كقول الآخر[3] :

حسامُك منه للأحباب فتحٌ ورمحك منه للأعداءِ حتفُ

ومنها : **المجنح** : وهو أن يكون أحد الطرفين من البيت أو المصراع قلباً للآخر كقوله[4] :

لاحَ أنوارُ النَّدى مِن كفِّه في كلِّ حالِ

ومنها : **المستوى** : وهو ما يقرأ طرداً أو عكساً وهو نوع صعب المسلك قليل الاستعمال ، وجاء منه في التنزيل قوله تعالى : ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ**﴾ [الأنبياء : ٣٣] . وقوله ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ [المدثر : ٣] .

---

(١) البيت للمتنبي ، انظر ديوانه ٢٣/٢ ، الإيضاح ٣١١ ، الطراز ٩٥/٣ ، البديع ٢٧٨ ، الإشارات ٢٧٠ ، نهاية الأرب ١٤٤/٧ ، وقد رويت القافية وزينا وصحتها كما هو في البيت ، وجاء في تعليق المؤلف "رزينا" .

(٢) البيت بلا نسبة في الطراز ٩٥/٣ ، فالقلب في لفظتي : المقلتان : مثنى "مقلة" ، والمقتلان : مثنى مقتل ، وهو قلب لبعض الحروف لا كلها .

(٣) البيت بلا نسبة في الطراز ٩٠/٣ ، نهاية الإيجاز ١٤٠ .

(٤) البيت بلا نسبة في الطراز ٩٥/٣ .

ومن أمثلته قولهم "مودتي لخلى تدوم" وقول العماد الكاتب للقاضي الفاضل :

"سر فلا كبا بك الفرس" ، وقول القاضي في جوابه :

"دام غلاء الغماد" . وقول الحريري[1] :

أُسْ أرملاً إذا عَرا وارْعَ إذا المرْءُ أسَا

وقول الآخر[2] :

عُج تَنمَ قربكَ دعْدٌ آمنا إنما دعدٌ كبرقٍ منتجعْ

وقد يكون ثاني المصراعين قلباً للأول كما في :

"أرانا الإله هلالاً أنارا"

وأصل الحسن في هذه الأنواع أن تكون الألفاظ توابع للمعاني غير متكلفة لتحصيل البديع ، وكثيراً ما يورد الأصحاب هاهنا أنواعاً أخر : مثل التزام كون الحروف معجمة أو مهملة ، أو بعضها معجم وبعضها مهمل ، فلك أن تستخرج منها ما أحببت .

---

[1] الحريري في مقاماته ١٤٠ ، الطراز ٩٦/٣ ، وأورده فخر الدين الرازي في نهاية الإيجاز ١٤١ ، وعزاه للحريري، المفتاح بلا نسبة ٥٤٢ .

[2] لم أعثر على قائله ، وظاهر التكلف عليه واضح .

الفصـــل الثاني

فيما يرجع إلى الفصاحة المعنوية

ويختص بإفهام المعنى وتبيينه ، وهو تسعة عشر نوعاً :

١-**حسن البيان** : وهو كشف المعنى وإيصاله إلى النفس بسهولة . وينقسم البيان إلى حسن ومتوسط وقبيح ، فالقبيح كبيان بأقل وقد سئل عن ثمن ظبي كان معه، فأراد أن يقول أحد عشر ، فأدركه العي ففرق أصابع يديه وأدلع لسانه فأفلت الظبي . والمتوسط : كما لو قال خمسة وستة أو عشرة وواحد . والحسن : كما لو قال أحد عشر .

ويجيء حسن البيان مع الإيجاز كما يجيء مع الإطناب .

فمن مجيئه مع الإيجاز قول الشاعر[(١)] :

له لحظاتٌ عن حفافَي سَريرِه إذا كرَّها فيه عقابٌ ونائلُ

فإنه على اختصاره قد أبان حسن بيان عن مدح الممدوح بالخلافة ووصفه بالقدرة المطلقة بعد الله تعالى .

ومنه في الإطناب : قول الحزين[(*)] الكناني يخاطب عبد الله بن عبد الملك وهو عامل لأبيه على مصر[(٢)] :

---

(١) البيت لابن هرمة في مدح المنصور ، انظر الطراز ١٠٠/٣ ، تحرير التحبير ٤٩١ ، العقد الفريد ٣٦/١ ، حفافي سريره : جانباه .

(*) في المطبوع "الحرث" .

(٢) الأبيات بلا نسبة في الطراز ١٠٠/٣، وللحزين الكناني (عمرو بن عبد وهيب) في تحرير التحبير٤٩٢، وللفرزدق أو للحزين الكناني أو للعين المنقري في العمدة ١٣٨/٣ ، العرنين : الأنف ، شمم : ارتفاع ، ومن شم العرانين كناية عن التكبر والرفعة .

لما وقفتُ عليه في الجموع ضُحىَ   وقد تعرضتِ الحُجَّابُ والخـــدمُ
حَيّيتـــه بسلامٍ وَهْو مرتَفِــقٌ   وضجةُ النّاسِ عند الباب تزدحمُ
في كفه خيزرانٌ ريحـــه عبــقٌ   من كفٍّ أروعَ في عِرنينه شَمَــمُ
يُغضِي حياءً ويغضَى من مهابتِه   فلا يكلَّــمُ إلا حينَ يبتســـمُ

٢-الإيضاح : أن ترى بكلامك لبساً لكونه موجهاً أو خفي الحكم ، فتعمده بكلام يوضحه ويبين المراد ، فمن إيضاح الموجه قول الشاعر(١) :

يذكّرُنيك الخيرُ والشرُّ كلُّه   وقيلُ الخنا والعلمُ والحلمُ والجهلُ
فألقاكَ عنْ مكروهِها متنزها   وألقاكَ في محبوبِها ولكَ الفضلُ

ومن إيضاح خفي الحكم قول ابن حيوس(٢) :

ومقرْطِقٌ يُغْني النديمَ بوجههِ   عن كاسهِ الملأى وعن إبريقِـــه
فعلُ المدامِ ولونُها ومذاقُها   في مقلتيهِ ووجنتيْه وريقِــــهِ

٣-المذهب الكلامي : أن تورد مع الحكم ردا لمنكره حجـــة علـــى طريـــق المتكلمين ، أى صحيحة مسلمة الاستلزام . وينقسم إلى منطقى وجدلى ، فالمنطقي مـــا كانت حجته برهاناً يقيني التأليف قطعى الاستلزام ، والجدلى ما كانت حجته أمـــارة ظنية لا تفيد إلا الرجحان . وأول من ذكر المذهب الكلامي الجاحظ وزعم أن ليس في القرآن منه شئ ، ولعله إنما عنى القسم المنطقي ، فإن الجدلي في القرآن منه كثير كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

تقديره : والأهون أدخل في الإمكان ، وقد أمكن البدء فالإعـــادة أدخـــل في الإمكان من بدء الخلق .

---

(١) البيتان لمسلم بن الوليد ، انظر ديوانه ٣٣٣ ، الطراز ١٠٢/٣ ، خزانـــة الأدب ٤١٤ ، نهايـــة الأرب ١٦٩/٧ ، البديع ٧٤ ، الحماسة البصرية ٧/١ .

(٢) البيتان من الكامل ، والثاني في الإيضاح ٣١٣ لابن حيوس ، الإشارات ٢٧٦ ، خزانـــة الأدب ٤١٤ ، الطـــراز ١٠٣/١ ، شرح عقود الجمان ١٠٤/٢ ، ١٥٣ ، مقرطق : لابس القباء : نوع من الأردية ، وهو مُعَرَّبٌ .

ومثله قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] وقوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] وقوله حكاية عن إبراهيم -عليه السلام- :﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى قوله ﴿مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

ومما جاء في الشعر قول النابغة الذبياني يعتذر إلى النعمان[1] :

حلفتُ فلمْ أتركْ لنفسكَ ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مهربُ
لَئنْ كُنت قَدْ بُلّغتَ عنّى خيانةً ... لمبلغُكَ الواشي أَغَشُّ وأكذبُ
ولكنني كنتُ امرءاً لى جانبٌ ... من الأرضِ فيه مستزادٌ ومذهَبُ
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما مدحتُهم ... أُحَكَّمُ في أموالِهمْ وأقرَّبُ
كَفِعْلُك في قومٍ أراكَ اصطنعْتَهُم ... فلم ترَهمُ في مدحِهِم لكَ أذْنَبُوا

يقول أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك ، وأنا أحسن إليَّ قوم فمدحتهم ، فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنباً ، كذلك مدحى لمن أحسن لي .

٤-التبيين : ويسمى تفسير الخفي . وهو أن يكون في مفردات كلامك لفظ مبهم المعنى لكونه مطلقاً أو غير تام التقييد ، مراداً به بعض ما نتناوله ، فتتبعه ما يفسره ويشرح معناه من وصف فيه تفصيل . وهو ضربان :

الأول : تبيين أحد ركنى الإسناد بالآخر :

كقول الشاعر[2] :

---

[1] الأبيات من الطويل ، للنابغة يعتذر إلى النعمان ، انظر ديوانه ٧٢ ، الإيضاح ٣٢١ ، العمدة ١٧٨/٢ ، أخبار أبي تمام ١٣١ ، شرح عقود الجمان ١١٨/٢ ، ١١٩ ، معاهد التنصيص ٤٨/٣ .

ملوك : يقصد بهم غساسنة الشام ، يشير به إلى حسن معاملتهم له وعدم ترفعهم عليه شأن الملوك .

[2] البيتان من البسيط لمحمد بن وهيب في مدح المعتصم العباسي ، والشاهد تقديم ثلاثة وهو المسند ، انظر الإيضاح ١٠٧ ، ١٦٢ ، ٣١٤ ، الأغاني ٨٠ وفيه "ببهجتهم" بدل "ببهجتها" المفتاح ٣٢٤ ، الطراز ١١٥/٣ ، خزانة الأدب ٤٠٩ ، معاهد التنصيص ٢١٥/١ ، ٢٨٤ ، الإشارات ١٣١ ، تحرير التحبير ١٩١ .

استشهد البلاغيون من هذا على تقديم المسند للتشويق ، وعلى الجامع الوهمي ؛ فالجامع بين الثلاثة المذكورة فيه وهمي ، وهو ما بينهما من شبه التماثل .. فقد اشتركت في عارض هو إشراق الدنيا ببهجتها ، على أن ذلك في أبي

ثلاثةٌ تشرقُ الدنيا ببهجَتها   شمسُ الضُّحى وأبو إسحاق والقمرُ
يَحْكِي أفاعيلهَ في كلّ نائبةٍ   الغيثُ والليثُ والصَّمصَامةُ الذكرُ

الضرب الثاني : تبيين أحد ركني الإسناد أو غيره بالنعت أو نحوه :

كقول ابن الرومي[1] :

آراؤكُم ووجوهُكُم وسيوفُكُم   في الحادثاتِ إذا دجون نجـــومُ
فيها معالِمُ للهُدىَ ومصابـــحٌ   تجلو الدجَى والأخرياتُ رُجُومُ

وقد أحسن ما شاء في جودة التركيب واستيفاء أقسام ما ذكره الله تعالى مـــن منافع النجوم . وكقول الفرزدق[2] :

لقد خنتَ قوماً لو لجأتَ إليهم   طريدَ دمٍ، أو حاملاً ثِقلَ مَغْرمِ
لألفيتَ منهم مُعْطِياً: أو مطاعِناً   وراءكَ شَزْراً بالوشيجِ المقوَّمِ

٥-التتميم : وهو ضربان :

=إسحاق مجاز ، والشاهد هنا في تفسير ما أجمله وهو لفظة ثلاثة حيث فصله في الشطر الثاني ؛ ثم فسره بعد ذلك .. والأبيات مجتمعه :

ثلاثة تشـــرق الدنيـــا ببهجتهـــا   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة   إذا انقطع عن إدراكهـــا النظـــر
والبدر يحكيه في الظلماء منبلجـــاً   إذا استنارت لياليـــه بـــه الغـــرر

و"الصمصامة" : يُقال سيف صَمْصَامٌ وصَمْصَامَةٌ : صارمٌ لا ينثني ، وأنشد ثعلب : صمصامةٌ ذكَرُهُ مُذكَـــرُهْ ، وفي حديث أبي ذر : (لو وضعتم الصَّمصامة على رقبتي) ؛ هى السيف القاطع ، والجمع صماصم .

وقال الليث : الصَّمْصامةُ اسم للسيف القاطع والليل .

[1] البيتان من الكامل لابن الرومي ، الطراز ٨٨/٣ ، الإيضاح ٣١٣ ، تحرير التحبير ١٨٩ ، خزانـــة الأدب ٦٧ ، ٤٠٩ ، التبيان ١٨٧ ، والبيتان ليسا في ديوانه .

[2] البيتان في ديوان الفرزدق ١٨٧/٢ ، العمدة ٣٥/٢ ، الإيضاح ٣١٤ ، خزانة الأدب ٤٠٨ ، الطـــراز ١١٥/٣، سر الفصاحة ٢٦٢ ، تحرير التحبير ١٨٥ ، نهاية الأرب ١٢٩/٧ ، الشزر : التهيؤ للقتال ، الوشج : شجر تصنع منه الرماح ، والمراد هنا الرمح على المجاز المرسل ، والشاهد في البيتين تفسيره : (حاملا ثقل مغرم) بقوله : تلقى فيـــهم معطياً ، وقوله : (طريد دم) بقوله : تلقى فيهم مطاعناً .

الأول تتميم المعاني : وهو تقييد الكلام بتابع أو فضلة أو نحوها لقصد المبالغة أو الصيانة عن احتمال الخطأ ، كقول زهير[1] :

مَنْ يَلْقَ يوماً على علاَّتِهِ هَـرِماً يَلْقَ السماحةَ مِنهُ والنَّدى خُلُقا

فقوله على علاته للمبالغة في غاية من الحسن وكقول الآخر[2] :

فَسَقَي ديـارَكِ غيرَ مُفْسِدِهـا صوبُ الرّبيعِ وَديمةٌ تَهْمِـي

احترز بغير مفسدها عن الدعاء على الديار بالفساد لكثرة المطر .

ونحو قول الشاعر[3] :

لئنْ كان باقي عيشنا مثل مَا مَضَى فَللْموتُ إن لم ندخلِ النارَ أروحُ

لأن قوله إن لم يدخل النار في معنى قولك مع سلامة العاقبة .

الضرب الثاني : تتميم الألفاظ ويسمى حشوا : وهو ما يقوم به الـوزن ولا يحتاج إليه المعنى ، ويستحسن منه ما أدمج فيه ضرب من البديع كقول المتنبي[4] :

وخفوقُ قلبٍ لو رأيتِ لهيبـه يا جنَّتى لرأيتِ فيه جَهَنَّما

فإنه لما تم له المعنى واحتاج في الوزن إلى مثل يا جنتى ، تمم به ، فحصل منـه ومن القافية على طباق حسن . ولو قال مثلا : يا منيتي . فتمم الوزن فقـط ، لكـان مستهجناً معيباً ، كالذي في قول أبي تمام[5] :

---

(1) البيت من البسيط لزهير ، انظر ديوانه ٥٣ ، تحرير التحبير ١٣٨ ، الإيضاح ١٩٧ ، خزانة الأدب ١٢٣ ، نهايـة الأرب ١٤١/٧ .

(2) البيت من الكامل لطرفة بن العبد ، انظر ديوانه ١٤٦ ، العمدة ٤٦/٢ ، المفتاح للسكاكي ٥٣٨ "بتحقيقنـا" ، الصناعتين ٤٢٤ ، الإيضاح التبيان ١١١ ، الطراز ١٠٥/٣ ، سر الفصاحة ٢٦٥ .

(3) البيت لأبي الطيب الوشاء ، انظر العمدة ٥٢/٢ ، الطراز ١٠٥/٣ .

(4) البيت من الكامل ، انظر ديوان المتنبي ٢٨/٤ ، الإيضاح ١٩٨ ، الطراز ١٠٦/١ ، خزانة الأدب ١٢٣ ، نهايـة الأرب ١١٩/٧ ، وهنا مطابقة مع استعطاف .

(5) انظر ديوان أبي تمام ٢٥ .

خُذْها ابنة الفكر المهذّبِ في الدُّجى　　　والليلُ أسودُ رقعةِ الجلبابِ

وقول الآخر[1] :

ذكـرتُ أخـي فعـاودِنـي　　　صداعُ الرأسِ والوصـبِ

٦-**التقسيم** : أن تتعلق نسبة منطوق الكلام أو مفهومه بمعنى له أقسام عندك، أو في نفس الأمر ، فتورد في الذكر ما يستوعبها من متعلق تلك النسبة أو مغن عنـه ، غير مقتصر على ذكر بعض الأقسام ، ولا مكتف بالإجمال ، كما استوعب أقسام فاعل راح "بشار" في قوله[2] :

فراحَ فريقٌ والأسـارى ومثلُـهُ　　　قتيلٌ ومثلٌ لاذَ بالبحرِ هاربُـه

وأقسامه خبر هذيل "عمرو بن الأهتم" في قوله[3] :

اشربَا ما شربتمـا فهذيـلٌ　　　مِنْ قتيلٍ أو هاربٍ أو أسيـرِ

ومثله بيت الحماسة[4] :

قوله في الدجى : تتميم ، ويسميه البعض حشواً ، وهم يعيبونه ، ويقول ابن أبي الإصبع : فإنه إنما خص تهذيب الفكر بالدجى لكون الليل تهدأ فيه الأصوات ، وتسكن الحركات ، فيكون الفكر فيه مجتمعا ، والخاطر خالياً .. وإنما دخلت لفظة الدجى على وسط الليل ؛ لأنها جمع دجية ، وطرفا الليل لقربهما من الشمس لا يكون غيبهما شديد الظلمة ، وإن كان الليل قد يطلق على الليل كله ؛ لكن إطلاق مجازي وأبو تمام أراد الحقيقة لا المجاز لقصد المبالغة ، ولما لاحظ أبو تمام أن لفظ الدجى لعمومها وصلاحيتها في حالتي المجاز والحقيقة إلى أن تكون اسماً لليل كائناً ما كان، احترس من ذلك مما جاء به التذييل حيث قال : .. والليل أسود رقعة الجلباب

[1] البيت لأبي العيال الهذلي ، انظر ديوان الهذليين ٢٤٢/٢ ، شرح عقود الجمان ٢٢٨ ، الصناعتين ٤١ ، الإشارات ٩٤٤ .

[2] انظر ديوان بشار بن برد ٣٢٠/١ ، الطراز ١٠٧/٣ ، العمدة ٢١/٢ .

[3] البيت لعمرو بن الأهتم ، انظر الطراز ١٠٨/٣ ، العمدة ٢١٢/٢ .

[4] البيت من الطويل لعمر بن أبي ربيعة ، ديوانه ٧٠ ، الإيضاح ٣١٨ ، العمدة ٢٢/٢ ، الطراز ١٠٨/٣ .

فهبها كشيءٍ لم يكنْ أو كنازحٍ ... به الدارُ أَوْ مَنْ غيَّبتْه المقابـرُ

فلم يبق شيئاً من أقسام المعدوم إلا ذكره ، وأقسام مفعول قال "نصيـب" في قوله[1] :

فقال فريقُ القومِ لا ، وفريقُهم ... نعم ، وفريقٌ أيمنُ الله ما نـدْرِي

وكما استوعب (ما أغنى عن أقسام المفعول له) لتهيم عمر بن أبي ربيعـة في قوله[2] :

تهيمُ[3] إلى نُعْمٍ فلا الشملُ جامعٌ ... ولا الحبلُ موصولٌ ولا أنت تُقْصرُ

ولا قربُ نُعْمٍ إن دنتْ لكَ نافعٌ ... ولا نأيُها يُسْلِي ولا أنت تَصْبـرُ

بدليل أنك لو أتيت بلفظ لأنه مكان فاء العطف ، كان المعنى صحيحاً ، وكما استوعب أقسام متعلق النسبة المفهومة من الكلام قوله تعالى :﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَـهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَـبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَـلُ مَـنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] .

لأنه في معنى الناس، منهم ذو بنات ، ومنهم ذو بنين ، ومنهم ذو بنات وبنين، ومنهم عقيم .

٧-الاحتراس : أن تأتى في المدح أو غيره بكلام فتراه مدخولاً بعيب من جهة دلالة منطوقه أو فحواه ، فتردفه بكلام آخر لتصونه عن احتمال الخطأ كما جـاء في

---

[1] البيت من الطويل ، انظر ديوان نصيب ٩٤ ، الإيضاح ٣١٨ ، العمدة ٢١/١ ، الطـراز ١٠٨/٣ ، البديـع في البديع ٦٠ ، الصناعتين ٣٥٠ ، تحرير التحبير ١٧٧ ، خزانة الأدب ١٦٣ ، سر الفصاحـة ٢٢٦ ، شـرح عقـود الجمان ١١٠/٢ ، التبيان ١٧٦ .

[2] البيتان لعمر بن أبي ربيعة ٦٤ ، الطراز ١٠٦/٣ ، ١٠٧ ، العمـدة ٢٤/٢ ، نهايـة الأرب ١٣٧/٧ ، شـواهد الكشاف ٤٨٤ ، قال النويري في نهاية الأرب : إن هذين البيتين من النادر في صحة الأقسام ، وقـال العلـوي في الطراز : فانظر إلى استيعابه جميع متعلقات قوله : "تهيم" بحيث لو عددها بحرف العطف لكان ذلك صحيحاً جامعاً .

[3] وفي الديوان "أهيمُ" بدل "تهيم" و"ولا القلب مقصرٌ" بدل "ولا أنت تقصر" .

حديث أم زرع "**المس مس أرنب والريح ريح زرنب وأغلبه والناس يغلب**"[1] . فإنها لو اقتصرت على قولها وأغلبه لقيل لها إن رجلا تغلبه المرأة لضعيف مغلب ، فيصير المدح مشوبا بالقدح ، فزادت والناس يغلب ، فناسبت بين قرائنها بجملة تضمنت الاحتراس. وكما قالت الخنساء[2] :

ولولا كثرةُ الباكينَ حولي   على إخوانهم لقتلْت نفسِي

ففطنت لتوجه أن يقال لها قد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس . فلم فرطت في الجزع عليه ؟ فاحترست بقولها[3] :

وما يبكونَ مثلَ أخي ولكنْ   أعزِّى النفسَ عنه بالتّأسي

٨-التكميل : أن تأتي في شئ من الفنون بكلام تراه ناقصاً لكونه مدخولاً بعيب من جهة دلالة مفهومه ؛ فتكمله بجملة ترفع عنه النقص ، مثل أن تجيد مدح رب السيف بالكرم دون الشجاعة ، أو رب القلم بالبلاغة دون سداد الرأي ونفاذ العزم ، فتراه ناقصاً ، فتذكر معه كلاماً يكمل المدح ويرفع إبهام الذم ، كما قال كعب بن سعد الغنوى:

"حَليمٌ إذا ما الحِلمُ زيَّن أهَلهُ"

فرأى أن وصفه الممدوح بمجرد الحلم غير واف بالغرض ، لأن من لم يعرف منه إلا الحلم ربما طمع فيه عدوه ، فينال منه ما يذم به ، فكمله بقوله :

"مع الحلم في عين العدو مهيب"

---

[1] حديث صحيح "متفق عليه" . رواه البخاري كتاب النكاح (٨٢) ، باب حسن المعاشرة مع الأهل (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨)

[2] انظر ديوان الخنساء ١٥٣.

[3] البيت من الكامل لكعب بن سعد الغنوي في شرح عقود الجمان ١٥٣ ، والبيت في الأصمعيات ١٠٠ لابن مسافع العبسي ، انظر الطراز ١٠٩/٣ ، الإشارات ١٦١ ، تحرير التحبير ٣٥٨ ، نهاية الأرب ١٥٧/٧ . وكعب بن سعد الغنوى : شاعر إسلامي يحسن الرثاء ، والبيت من رثائه لأخيه أبي المغوار، الإيضاح ١٩٦ .

وكما قال السموءل[1] :

"وما ماتَ مِنَّا سيّد في فراشه"

فرأى أنه قد وصف قومه بالصبر على القتل دون الانتصار من قاتليهم ، فكمله بقوله :

"ولا طلّ منا حيثُ كان قتيلُ"

وكما قال ابن الرومي فيما كتب به إلى صديق له : "إني وليك الذي لم تـزل تنقاد إليك مودته عن غير طمع ولا جزع ، وإن كنت لذي الرغبة مطلباً ولذي الرهبة مهرباً" .

---

(1) البيت من الطويل ، انظر ديوان السموءل ٩١ ، ديوان الحماسة ٥٨/١ ، الإيضاح ١٩٦ ، الطراز ١١٠/٣ ، شرح عقود الجمان٢٤٩ ، تحرير التحبير ٣٥٨ ، البيان والتبيين ٢٣١/١ ، ويروى :"وما مات منا سيد حتف أنفه".

٩-التذييل : أن تأتي بعد تمام الكلام بمشتمل على معناه من جملة مستقلة بنفسها لإفادة التوكيد والتحقيق ، لدلالة منطوق الكلام أو دلالة مفهومه ، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَ الْكَفُور﴾[سبأ : ١٧] لأن في المعطوف إعادة للمعنى إفهاماً للغبي وتقريراً عند الذكي لاستحقاق العذاب بالكفر ومثله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥] . فيه تذييلان .

وقول ابن نباتة السعدي[1] :

لم يُبْقِ جُودُكَ لي شيئاً أؤمِّلُهُ ... تركْتني أصْحَبُ الدنيا بلا أمَلِ

نظر فيه إلى قول المتنبي حيث يقول[2] :

تُمسى الأمانيُّ صَرْعَى دونَ مبلغِهِ ... فما يقول لشيء ليت ذلكَ لي

وقد أربي عليه في المدح والأدب مع الممدوح ، حيث لم يجعله في حيز من يتمنى شيئاً . ومن الثاني بيت النابغة ، لأن قوله[3] :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمُّهُ ... على شعثٍ . . . .

---

(1) البيت لأبي نصر عبد العزيز بن محمد بن نباته ، المشهور بابن نباتة ، شاعر بغدادي ، من شعراء القرن الرابع الهجري، وهو من شعراء اليتيمة . انظر ديوان ابن نباتة السعدي ٢٤ ، الإيضاح ١٩٤ ، الطراز ١١٢/٣ ، العمدة ٢٤١/١ ، الصناعتين ١٣١ ، خزانة الأدب ١١٠ ، الشعر والشعراء ٢٤١/١ ، يتيمة الدهر ٣٨٨/٢ ، الإشارات ١٥٩، المثل السائر ٢٩٢/٣ .

(2) البيت من البسيط للمتنبي ، انظر ديوانه ٨١/٣ ، الطراز ١١٣/٣ ، الإيضاح ١٩٣ ، خزانة الأدب ١١١ ، تحرير التحبير ٣٩٠ ، قال العلوي في الطراز : هذا البيت أعظم من الأول في المدح وأدخل في الأدب مع الممدوح ، حيث جعله في قبيل من لا يتمنى شيئاً أصلا .

(3) البيت من الطويل للنابغة ، انظر ديوانه ٦٦ ، الإشارات ١٦٠ ، تحرير التحبير ٢١٨ ، خزانة الأدب ١١٠ ، الشعر والشعراء ١٧٢، دلائل الإعجاز ٥٦٣ ، الإيضاح ١٩٤ . والبيت من قصيدة يعتذر فيها للنعمان بن المنذر ويمدحه مطلعها :

آتاني – أبيت اللعن – أنك لمتني ... وتلك التى أهتم منها وأنصب

الشعث : التفرق وذميم الخصال .

قد دل بمفهومه على نفي الكامل من الرجال فحقق ذلك وقرره بقوله : "أي الرجال المهذب" ومثله قول الحطيئة وهو حسن جداً[1] :

نزور فتىً يُعطِي على الحمدِ مالَه ومن يُعْطَ أثمانَ المكارمِ يُحْمَدِ

١٠-الاعتراض : ويسميه "قدامة" التفاتا ، وهو أن تأتي في أثناء الكلام بكلام يفيد : **إما رفع الشك والإغناء عن تقدير السؤال** : كما في قول الشاعر[2] :

فلا صَرْمُه يَبدو وفي اليأسِ راحةٌ ولا وصلُه يصفو لنا فنكارِمُهْ

لأن قوله "فلا صرمه" يبدو مشعراً بكونه أحد مطلوبيه ، وذلك مما يشك في أمره ويحرك سامعه لمثل أن يقول : وما تصنع بصرمه ؟ فقبل أن يتم كلامه قال : وفي اليأس راحة . فجلا الشك وأغنى عن تقدير السؤال ، ونحوه قول نصيب[3] :

فكدتُ ولم أُخلقْ من الطير إنْ بَدا سنا بارقٍ نحو الحجازِ أطيرُ

فقوله : "و لم أخلق من الطير" عجب في الجودة لكونه مغنياً عن سؤال متضمن للإنكار .

وأما تقرير المعنى وتوكيده كقوله تعالى : ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧] .

فقوله : "وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" اعتراض بين القسم وجوابه . تقرير للتوكيد ، وتعظيم للمحلوف به ، وقوله "لو تعلمون" اعتراض في اعتراض ..

---

(١) البيت من الطويل للحطيئة ، انظر ديوانه ٨٠ ، الإيضاح ١٩٤ ، الإشارات ١٥٩ ، الطراز ١١٤/٣ ، العمدة ١٣٧/٢ .

(٢) البيت من الطويل لابن ميادة ، انظر ديوانه ٢٢٥ ، الإيضاح ١٩٨ ، الإشارات ١٦٤ ، شرح عقود الجمان ١٠٨ ، نهاية الأدب ١١٦/٧ ، الصناعتين ٤٠٩ ، تحرير التحبير ١٢٣ ، خزانة الأدب لابن حجة ٥٩ ، ويروى "هجره" بدل "صرمه".

(٣) البيت في العمدة ٤٧/٢ ، وقال ابن رشيق : فقوله : "و لم أخلق من الطير" عجب ، ولما سمعت التي قيل فيها هذا البيت تنفست تنفساً شديداً ؛ فصاح ابن أبي عتيق : أوه قد والله أجبته بأحسن من شعره . [العمدة ٤٧/٢] .

١١-**المبالغة** : ومنهم من لا يرى لها فضلا ولا بعدها من محاسن الكلام ، محتجاً بأن خير الكلام ما خرج مخرج الحق وجاء على نهج الصدق كما يشهد له قول حسان[(١)]:

وإنما الشعرُ لُبُّ المرءِ يعرِضُهُ   على المجالسِ إن كيساً وإن حُمقًا

فإن أشعرَ بيتٍ أنتَ قائِلُه   بيتٌ يقال إذا أنشدتَهُ صَدَقَا

وقول الحورية امرأة حطان الخارجي : أنت أعطيت لله عهداً أن لا تكذب في شعرك ، فكيف؟ قلت[(٢)] :

فَهُنَاكَ مَجْزأةُ بن ثو   رٍ كان أشجعَ من أسامهْ

فقال يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة وحده ، وما سمعت بأسد فتح مدينة قط، وبأن المبالغة لا تأتي إلا من ضعيف قد عجز عن الاختراع والتوليد ، فعمد إليها ليسد خلله بما فيها من التهويل . وربما أحالت المعاني وأخرجتها إلى حد الامتناع ، ومنهم من يقصر الفضل عليها وينسب المحاسن كلها إليها ، محتجاً بأن أحسن الشعر أكذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه ، وباستدراك النابغة على حسان في قوله[(٣)] :

لنا الجفناتُ الغرّ يلمعنَ بالضُّحَى   وأسيافُنا يقطرن من نجدةٍ دما

تلك المواضع الخمسة ، وليس فيها إلا ترك المبالغة ، والمذهب المرضى أن المبالغة ضرب من المحاسن ، وللكلام بها فضل بهاء ورونق ليس لغيره ، ولكن لا على الإطلاق ، وأن فضل الصدق لا ينجحد ، وقد رأينا كثيراً من الكلام جارياً مجرى الصدق المحض خارجاً مخرج الحق البحت وهو في غاية الجودة ونهاية الحسن والقوة ، كقول زهير[(٤)] :

---

(١) البيتان لحسان بن ثابت ٢٧٧ في ديوانه .

(٢) البيت لعمران بن حطان ، انظر العمدة ٩٩/١ ، تحرير التحبير ١٤٩ ، شعر الخوارج ١٧٧ ، الصناعتين ٢٤٥ شواهد الكشاف ٤٧٠ .

(٣) البيت في ديوان حسان ١٣١ ، العمدة ٥٣/٢ ، الأغاني ١٩٤/٨ ، ١٩٥ .

(٤) البيت لزهير ، وهو ممن اشتهر بالحكمة في الشعر ، انظر ديوانه ٣٢ ، الخليقة : الطبيعة ، خالها : ظنها .

ومهما يكنْ عندَ امرئ من خليقةٍ وإنْ خالها تخفي على الناسِ تُعلمِ

وقول الحطيئة[1] :

من يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيَه لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ

ومع هذا فللمبالغة فضيلة لا تنكر . ولو كانت معيبة لما أتت في القرآن الكريم على وجوه شتى ، ولبطلت الاستعارة والتشبيه ، وكثير من محاسن الكلام، ولكان الذين مذهبهم ترجيح الصدق وهم أكثر الفحول كزهير وحسان والحطيئة يكرهون ضده ويجحدون فضله ، وهم بخلاف ذلك لأنهم قد استكثروا منه ، وقلما يخلو شعرهم عنه.

فعائب المبالغة على الإطلاق مخطيء ، وعائب الكلام الحسن بترك المبالغة غير مصيب ، وخير الأمور أوسطها . وإذا وقفت على الحديث في رد المبالغة وقبولها فلننتقل إلى الكلام في تعريفها وبيان طرقها وصنوفها فنقول : **المبالغة** هي أن يكون للشيء عندك وصف ، فتزيد التعريف بمقدار شدته أو ضعفه ، فتدعى له من مقدار زيادة الشدة أو الضعف ما يستبعد أو يحيل العقل ثبوته له ، لئلا يظن بالوصف دون مقدار ما هو عليه في نفس الأمر . ولها طريقان : الأول أن يستعمل اللفظ في غير معناه لغة كما في الكناية والتشبيه والاستعارة وغيرها من أنواع المجاز التي سبق التنبيه عليها ، وثانيه أن يشفع ما يفهم المعنى على وجه بما يقتضي فيه تلك الزيادة من ترادف الصفات لقصد التهويل كما في قوله تعالى : **﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾** [النور : ٤٠] . أو من التتميم بما يبلغ به المتكلم أقصى ما يمكن من الوصف أو يزيد عليه . كما قال[2] :

ونكرمُ جارَنا ما دامَ فينَا ونتبعُه الكرامةَ حيثُ مالاَ

فإنه لم يكتف بما أفهمه صدر البيت من مقدار ما عليه هو وقومه من الإحسان إلى الدار حتى شفعه بقوله : "**ونتبعه الكرامة**" المقتضى من الزيادة في كثرة الإحسان ما

[1] البيت للحطيئة ، انظر ديوانه ٤٣ ، زهر الآداب ١٠٩٣ ، مختارات شعراء العرب ٢٢ ، الأغاني ١٧٣/٢ ، ١٧٤، قال أبو عمرو بن العلاء : لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من هذا البيت .

[2] البيت لعمرو بن الأيهم التغلبي ، الإشارات ٢٧٩ ، نقد الشعر ١٤٤ .

يستبعده العقل ، ليأخذ منه ما يرتدع به عن حمل أول الكلام على التجوز ، ثم لم يقتصر حتى تم بقوله "حيث مالا" فتقصى غاية ما يمكن من المدح برعاية الجار .

وكما قال امرؤ القيس[1] :

فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجةٍ   دراكاً ولم يُنضحْ بماءٍ فَيُغْسَلِ

فوصف فرسه بأنه أدرك ثوراً وبقرة وحشية في مضمار واحد ، ولم يعرق .

وقد أحسن المتنبي أخذه فقال[2] :

وأصرعُ أيَّ الوحشِ قَفَّيتُهُ بِهِ   وأنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حينَ أركَبُ

وكما قال امرؤ القيس أيضاً[3] :

نظرتُ إليها والنجومُ كأنها   مصابيحُ رهبانٍ تَشِبُّ لقفَّالِ

يقول نظرت إلى هذه النار تشب لقفال ، والنجوم كأنها مصابيح رهبان ، لأنه أدركها ضوء الصباح فقل نورها وتباعد ما بينها في المرأى ، وذلك هو الوقت الذي يرجع فيه القفال من الغزو والغارات ، فإذا كانت هذه النار تشب في ذلك الوقت وهو وقت خمود سنا النيران وكلال موقديها، فكيف كانت في أول الليل .

والمبالغة ثلاثة أصناف : لأنها راجعة إلى دعوى المتكلم للوصف اشتداداً أو ضعفاً على ما فوق ما يسلمه العقل ويستقر به ، وذلك المقدار إما ممكن في نفسه أو غير ممكن ، والممكن إما ممتنع عادة أو غير ممتنع . فدعوى كون الوصف على مقدار مستبعد يصح وقوعه عادة يسمى تبليغاً . وفيما تقدم من أمثلته كفاية ودعوى كون الوصف على مقدار ممكن ممتنع وقوعه عادة يسمى إغراقاً . ودعوى كون الوصف على مقدار غير ممكن يسمى غلوا .

---

[1] البيت في ديوان امرئ القيس ١٥٦ ، الإشارات ٢٧٨ ، عادى : والى ، الدراك : المداركة .

[2] البيت للمتنبي ، انظر ديوانه ١/١٨٠ ، شرح التبيان ١/١٢٨ ، قفيته : تلوته ، والمعنى : إذا طردت بالفرس وحشاً لحقته فصرعته ، وإذا نزلت عن بعد الصيد كان مثل حين أركب ، يريد لم يلحقه تعب ولم يكل لعزة نفسه .

[3] البيت لامرئ القيس ١٦١ ، في ديوانه .

أما الإغراق : فقسمان . أحسنهما وأدخلهما في القبول ما اقترن به ما يقربه من حد الصحة كقد ، وكاد ، ولو ، ولولا ، وحرف التشبيه .

كقول امرئ القيس[1] :

من القاصراتِ الطرفِ لو دبَّ مُحْوِلٌ
مِنَ النَّملِ فوقَ الإتبِ منْها لأثَّرَا

فلفظ "لو" قرب الدعوى حتى صح من السامع أن يسلمها .

والقسم الآخر . ما لم يقترن به شئ من ذلك ، كقول امرئ القيس بعد قوله: "نظرت إليها" ... البيت[2] :

تنوَّرْتُها من أذرُعاتٍ وأهلُها بيثربَ أدنى دارها نظرٌ عالِي

فإنه وإن امتنع عادة إدراك نار من مثل هذه المسافة ، فهو ممكن عقلا ، إذا لا يمتنع خلو مثل المسافة المذكورة عن حائل من جبل أو غيره ، ولا كون النار من العظم بحيث ترى من مثل ما ذكر ، فإنه لا يمنع من نفوذ حاسة البصر في الأجسام الشفافة إلى الأجرام النيرة إلا صغر مقدارها بالنسبة . وأنشد ابن المعتز[3] :

مَلِكٌ تراهُ إذا احْتَبى بنجادِهِ غمرَ الجماجمَ والصفوفُ قِيامُ

وأما الغلو : فضربان : مقبول ومردود ، فالمقبول : أن لا يتضمن دعوى كون الوصف على مقدار غير ممكن الوصف بما هو خارج عن طباق الموصوف ، وهو قسمان : أولاهما بالقبول ما اقترن به ما يقربه من الحق ، كقوله يصف فرساً[4] :

ويكادُ يخرجُ سرعةً عن ظلّهِ لوْ كانَ يرغبُ في فراقِ رفيقِ

---

(1) البيت لامرئ القيس في ديوانه ٩١ .

(2) انظر ديوانه ١٦١ ، الطراز ١٢٨/٣ ، تنورتها : امتثلت نارها وتوهمتها ، أذرعات : بلدة على حدود الشام ، والمعنى : نظرت إلى نارها من أذرعات بالشام وأهلها بيثرب .

(3) البيت لأبي نواس ، انظر ديوانه ٢١٦ ، تحرير التحبير ١١٧ ، الطراز ١٢٨/٣ ، البديع ٦٦ .

(4) البيت من الكامل لابن حمديس الصقلي ، أبي محمد عبد الجبار ابن أبي بكر ، انظر البيت في الإشارات ٢٨٠ ، الإيضاح ٣٢٠ .

والأحسن منه قوله تعالى : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور : ٣٥].

والقسم الآخر ما كان غير مقترن . ومن مختاره قول النابغة يصف السيوف[1]:

تَقُدّ السّلُوقيَّ المضاعفُ نسجُه ... وتُوقَدُ بالصُّفّاحِ نارُ الحباحِبِ

وقوله :

أليسَ عجيباً بأنَّ امْرَءاً ... شديدُ الجدالِ دقيقُ الكَلِمْ

يموتُ وما علّمَتْ نَفْسُهُ ... سِوَى عِلْمِهِ أنّه ما عَلِمْ

وأما الغلو المردود : فأن يتضمن دعوى كون الوصف غير ممكن الوصف بما هو خارج عن طباع الموصوف ، كقول النمر بن تولب يشبه نفسه بالسيف[2] :

أَبقَى الحوادثَ والأيام من نمرٍ ... أسبادُ سيفٍ صقيلٍ إِثْرُه بادِي

تَظلُّ تحفرُ عَنْه إن ضَرَبَتْ بِهِ ... بُعْد الذراعينِ والساقينِ والهادِي

فهذا غلو كثير ، وخروج إلى وصف السيف بما ليس في شأنه ولا في طبعه أن يفعله . وكذا قول أبي نواس[3] :

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتىّ إنَّهُ ... لتخافُكَ النطفُ التي لم تُخْلَقِ

وقد أكثر من هذا الأسلوب أبو الطيب حتى تعلق عليه بما له عنه غنى ، كقوله[4]:

---

[1] البيت للنابغة في ديوانه ٤٦ ، تحرير التحبير ٣٢٦ ، التبيان ٥٣ ، العمدة ٣١٦/١ ، ٦٢/٢ ، سر الفصاحة ٢٦٤، الصفاح : العريض ، وقال في اللسان : نار الحُباحِب : ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة،.. وقيل الحُباحِبُ ذباب يطير بالليل كأنه نار ، له شعاع كالسراج .. وقيل أبو حباحب من محارب خَصَفَةَ، وكان بخيلاً ، فكان لا يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا تُرى .. فضرب بناره المثل .

[2] البيتان في ديوان النمر بن تولب ٥٣ ، تحرير التحبير ٣٢٥ ، العمدة ٦١/٢ ، الطراز ١٣٠/٣ ، الصناعتين ٣٧٣، الشعر والشعراء ٣١١ ، الهادي : العنق ، أسباد : بقايا ، واحدها سبد .

[3] البيت من الكامل لأبي نواس في ديوانه ٤٥٢ ، الطراز ٣١٤/٢ ، الإيضاح ٣٢٠ "بتحقيقنا" ، سر الفصاحة ٢٣٦، الإشارات ٢٧٩ ، العقد الفريد ٣٧/١ ، ١٨٣/٦ .

[4] البيتان للمتنبي ، انظر ديوانه ١٩٨/٢ ، ١٩٩ ، العمدة ٩٣/٣ ، الطراز ١٠٣/٣ يتيمة الدهر ١٦٩/١ .

لَوَ كانَ صادفَ رأسَ عازرَ سيفُه   في يومِ معركةٍ لأعْياَ عِـيسىَ
أوْ كانَ لُجُّ البحْـرِ مِثلَ يَمينِـهِ   ما انشقَّ حتى جازَ فيه مُوسَى

وقوله[1] :

كأنِّ دَحَوْتُ الأرضَ مِن خِبْرتِي بِها   كأنِّي بنى الإسْكَنْدرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فشبه نفسه بالخالق "تعالى الله علواً كبيرًا" .

ثم انحط إلى الإسكندر .

١٢-**الإيغال** : أن تأتي في المقطع من البيت أو الفقرة بنعت لما قبله ، مفيـداً زيادة المبالغة أو تتميمها .

فمن الإيغال بزيادة قول ذى الرمة[2] :

قِفِ الْعيسَ من أطلالِ ميَّةَ واسْأل   رُسوماً كأخلاقِ الردّاء المسلْسَلِ
أظُنّ الذي يجدي عليكَ سُـؤَالُها   دُموعاً كتبديدِ الجُمان المفصَّـلِ

وقول الخنساء[3] :

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهـداةُ بِـهِ   كأنـَّه علـمٌ في رأسـهِ نَـارُ

أوغلت أشد إيغال بقولها في رأسه نار بعد ما جعلته جبـلاً عاليـاً مشـتهراً بالهداية.

ومن الإيغال "بتتميم المبالغة" قول امرئ القيس[4] :

---

(1) البيت في ديوان المتنبي ٥٢/٣ ، الطراز ١٣٠/٣ ، العمدة ٦٣/٢ .

(2) البيتان من الطويل لذي الرمة واسمه غيلان بن عقبة ، شاعر أموي توفي : ١١٧هـ في ديوانـه ٧٢ ، الإيضـاح ١٩٢ "بتحقيقنا" ، الصناعتين ٣٩٥ ، العمدة ٧٥/٢ ، الطراز ٢٨٧/١ ، تحرير التحبير ٢٣٣ .

(3) البيت من البسيط : وهو للخنساء في ديوانها ٣٨٦ ، المفتاح ٣٢٢ ، بلفظ [أغرّ أبلـجُ يـأتم ......] ، انظـر الصناعتين ٤٠٦ ، العمدة ٥٨/٢ ، الشعر والشعراء ٣٤٧ ، شواهد الكشاف ٤٢٠ .

(4) البيت من الطويل لامرئ القيس في ديوانه ٢١٧ ، الإيضاح ١٩٢ "بتحقيقنا" ، الإشارات ١٥٧ ، نهايـة الأرب ١٣٩/٧ ، العمدة ٥٨/٢ ، تحرير التحبير ٢٢٣ ، الصناعتين ٢٥٢ ، الشعر والشعراء ١١٠ ، شرح عقود الجمـان ٢٤٢، الجزع : الخرز اليماني الذي فيه سواد وبياض .

كأنَّ عيونَ الوحشِ حولَ خبائنا   وأرْحُلِنا: الجزْعُ الذي لم يُثقَّبِ

(فإن في تشبيهه عيون الوحش بالجزع من غير تقييد نقصاً ، لأن عيون الوحش غير مثقبة ، فتمم المبالغة في التشبيه بقوله الذي لم يثقب).

وقول الآخر[١] :

جمعت رُدَيْنِيًا كـأنَّ سِنانَـهُ   سنَـا لَهبٍ لم يتصلْ بِدُخـانِ

فقوله لم يتصل بدخان إيغال بتميم المبالغة في غاية الظرافة والحسن .

١٣-التكرار : إعادة اللفظ لتقرير معناه ، ويستحسن في مقام نفي الشك كقوله[٢] :

لسَاني لسرِّى كتومٌ كتومُ   وَدَمْعِى بِحبِّى نمـومٌ نمـومُ

وقوله[٣] :

يَقُلْنَ وَقَدْ قلتُ إنِيّ هجعتُ   عَسىَ أنْ يَلمَّ بروحي الخيالُ

حقيقٌ حقيقٌ وجدتُ السُّلُوَّ   فقلتُ لهنَّ محـالٌ محـالُ

أو مقام التعظيم ، كبيت الكتاب[٤] :

لا أرى الموتَ يَسْبقُ الموتَ شئٌ   نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنىَ والفِقيرا[٥]

والتنويه : كقولها[٦] :

---

[١] البيت من الطويل ، ويُنسب لامرىء القيس ، انظر ديوانه ٢١٧ ، الإيضاح ١٩٢ ، ٢٣٣ ، الإشـارات ١٩٦ ، العمدة ٦٤/٢ ، شرح عقود الجمان ٣٤/٢ ، أسرار البلاغة ١٣ ، الصناعتين ٢٥٢ ، الرديني : الرمح ، يُنسب إلى ردينة، وهى امرأة اشتهرت بتقويم الرماح .

[٢] البيت من المتقارب لابن المعتز كما في العمدة لابن رشيق ٧٨/٢ ، ولا يوجد في ديوانه .

[٣] البيتان من المتقارب بلا نسبة في خزانة الأدب للحموي ١٦٥ .

[٤] البيت من الخفيف لعدي بن زيد ، انظر ديوانه ٦٥ ، ويُنسب لسوداة بن عدى ، انظر الكتاب لسـيبوية ٦٢/١ ، الإشارات ٥٥، العمدة ٧٥/٢ .

[٥] والبيت شاهد على إعادة الظاهر موضع المضمر ، وفيه قبح ؛ إذا كان تكريره في جملة واحدة ؛ فلا يكاد يجوز إلا في ضرورة ، والتكرار هنا مع شذوذه لغة فقد حسن بلاغة لغلبة فكرة الموت على الشاعر وتأثره بها ، وهذا الـذي نبهنا إليه هو من باب رعاية حال المتكلم وهو باب قلما يفطن إليه في مباحث البلاغة القديمة .

[٦] البيت للخنساء في ديوانها ٧٩ .

وإنَّ صخْراً لمولاَنا وسيِّدُنَـا   وإنَّ صَخْراً إِذَا نَشْتُو لنَحَّـارُ

أو الاستعذاب لاسم المذكور كقوله[1] :

فيا ليتَ لُبَنى لم تكنْ لِي خليلةً   ولم تَلْقَنِي لُبْنَى ولَم أدرِ مَا هِيـَا

أو لتوكيد المدح كقول أبي تمام[2] :

بالصريحِ الصريحِ والأروع الأر   وعِ منهم وباللُّبـابِ اللبـابِ

أو التوبيخ كقول الآخر[3] :

إلى كمْ وكمْ أشياءَ مِنكمْ تُريبُنِي   أُغَمِّضُ عَنْها لستُ عَنها بذي عَمِي

أو التهديد كقوله تعالى :﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة : ١ ، ٢] و﴿كَلاَ سَـوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَ سَوْفَ تَعْلَمُون﴾ [التكاثر : ٣ ، ٤] .

ومن المعجز ما في سورة الرحمن : فإنه عز وجل كلما عدد منة أو ذكر نعمـة كرر ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] .

وقد قسم ابن رشيق التكرار إلى لفظى مثل ما ذكرنا وإلى معنوى وعدد منـه قول امرئ القيس[4] :

فيالكَ من ليل كأنَّ نجومَـهُ   بكلِّ مغارِ الفتلِ شُدَّتْ بيذبلِ

كأنَّ الثُّريَّا علّقتْ في مَصامها   بأَمراسِ كتَّانِ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

قال لأن النجوم تشتمل على الثريا اشتمال يذبل على صم الجندل ، وقولـه : شدت بكل مغار الفتل مثل قوله : علقت بأمراس كتان ، فمعنى البيتـين المذكوريـن سواء ، وهذا الذي ذكره وإن كان حقاً غير أن الناس قد سموا نحو ما في البيتين تذييلا ، فلا حاجة إلى تقسيمه ولا إلى ما أحدث من تسميته .

---

(١) البيت في ديوان قيس لبنى ١٦٠ .

(٢) البيت في ديوان أبي تمام .

(٣) البيت في العمدة لابن رشيق القيرواني ٧٥/٢ .

(٤) البيتان في ديوان امرئ القيـس ١٥٢ ، العمدة ٧٨/٢ ، المغار : الشديد الفتل، يذبل : اسم جبـل ، المصـام : مكانها الذي لا تبرح منه كمصام الفرس وهو مربطه ، والأمراس جمع مرس وهو الحبل .

١٤-الاستطراد : أن يكون في شئ من الفنون ، فتوهم استمرارك فيه ، وتخرج منه إلى غيره ، ثم ترجع فإن تماديت فذاك الخروج ولابد من التصريح باسم المستطرد به ، وأكثر ما يجيء بالهجاء كقول السموءل[١] :

وإنّاَ لقومٌ لا نَرَى القتلَ سُبَّةً إذَا ما رأتْهُ عامرٌ وسَلولُ

وقال البحتري[٢] :

مَا إِنْ يعافَ قذىً ولو أوْرَدَتْهُ يوماً خُلائقُ حَمدْويَّةُ الأحْوالِ

وقد قال تعالى : ﴿أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود : ٩٥] .

ومما جاء منه في النسب قول امرئ القيس[٣] :

عوجا على الطّللِ المحيّل عَلّنَا نَبْكِي الدِّيارَ كَمَا بَكى ابنُ حِزَامِ

وبالمدح قول بكر بن النطاح[٤] :

عرضتُ عليها ما أردتُ من المُنى لترضَى فقالتْ قُمْ فَجِئْنِي بكَوْكَبِ
فقلتُ لها هذا التعنُّتُ كلُّه كمن يشتهى لحمَ عنقاء مُغْرِبِ
سلى كلَّ شئ يستقيمُ طلابُه ولا تذهبى يا بدرُ بي كلَّ مذهبِ
فَأُقْسِمُ لَو أصبحتُ في عزِّ مالكٍ وَقُدْرِته أَعيا بما رُمْتُ مَطْلَبي
فَتًى شَقِيَتْ أَمْوالُه بِنَوالِهِ كما شَقِيَتْ بكرٌ بأرماحِ تغلبِ

وهو من أبدع استطراد وقع ؛ لجمعه بأخصر لفظ وأحسن بيان بين مدح الممدوح بالكرم وقبيلته بالشجاعة والظفر وبين الهجو لأعدائهم بالضعف والخور .

---

[١] البيت للسموءل في ديوانه ٩١ ، تحرير التحبير ١٣٢ ، العمدة ٣٩/٢ ، شرح الحماسة للمرزوقي ١٤١/١ ، نهاية الأرب ١١٩/٧. ، البديع لابن المعتز ٢٢٦ ، الصناعتين ٤٤٩ .

[٢] البيت للبحتري في ديوانه ١٧٤١ ، الصناعتين ٤١٥ ، نهاية الأرب ١٢٠/٧ ، خزانة الأدب ٤٥ ، سر الفصاحة ٢٩١ .

[٣] انظر ديوان امرىء القيس ٢٠٠ ، العمدة ٨٧/١ ، الصناعتين ٤١٥ ، الحماسة ٥٨/١ ، الطراز ١٧/٣ ، نهاية الأرب ١٢١/٧ ، شواهد الكشاف ٥٢٢ .

[٤] انظر الأبيات في العمدة ٤٨/٢ .

١٥-التجريد : أن تدل على أن الشيء بليغ في وصف بدعوى ما يستلزمه صحة استخلاص موصوف بها منه ، كما تقول : لى من فلان صديق حميم ، على دعوى أنه قد بلغ من الصداقة مبلغاً صح أن يستخلص منه مثله فيها . قال الله تعالى: ﴿**لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ**﴾ [فصلت : ٢٨] وجهنم أعاذنا الله منها هى دار الخلد ، ولكن جرد منها مثلها وجعل معداً فيها للكفار تهويلاً لأمرها . ونحو قول الشاعر[١] :

بنــزوةِ لِصٍّ بَعْدَ ما مرَّ مُصْعَبٌ بأشعثَ لا يُفلَي وَلاَ هُو يُقِملُ

الأشعث هو مصعب نفسه ، ولكن فرط شعثه صحح أن ينتزع منه أشعث آخر ويجعل ماراً معه . وقول الآخر[٢] :

وَلَسْت بِعِلٍّ شرُّه قَبلَ خَيرِهِ أَلف إذا ما رُعتَهُ اهْتَاجَ أَعْــزَل

تقديره اهتاج منه أعزل ، فادعى فيمن لا يرى إلا أعزل عنه يهتاج منه إذا ارتاع أعزل . وقول الآخر[٣] :

وشوهاءَ تعدُو بي إلى صارخ الوَغىَ بمُسْتلْئِمٍ مثلِ الفنيقِ المرَحَّلِ

أي تعدو بي ومعي من نفسي لكمال استعدادها مستلئم أي لابس لأمة الحرب.

١٦-التفريع : وهو ضربان : الأول أن تأتي بالاسم منفياً بما ، وتتبعه بمعظم أوصافه اللائقة به ، ثم تخبر عنه بأفعل التفضيل موافقاً لمعنى الأوصاف معدى بمن ،

---

(١) البيت من الطويل لم أعثر على قائله .

(٢) البيت للشنفرى ، من الصعاليك ، انظر مختارات شعراء العرب ١٨ ، العل : الحقير .

(٣) البيت من الطويل لأبي لأمة ، انظر الإيضاح ٣١٨ ، نهاية الأدب ١٥٦/٧ ، شرح عقود الجمان ١١٢/٢ ، معاهد التنصيص ١٣/٣ .

الشوهاء : الفرس القبيح المنظر ، تعدو : تسرع ، صارخ : مستغيث ، مستلئم : لابس لأمة ، وهى الدرع ، الفنيق : الفحل المكرم ، المرحل : من رحل البعير ، أشخصه عن مكانه ، وأرسله .

فيفرع من ذلك مبالغة في مدح المجرور بها أو ذمه . وأكثر ما يجيء منه في بيتين فصاعداً، كقول الأعشى[1] :

ما روضةٌ من رياض الحزنِ غناءٌ جادَ عليها مسبلٌ هَطِلُ

يضاحِكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ مؤزّرٌ بعميمِ النبتِ مُكتهِلُ

يوماً بأطيبَ منها طِيبَ رائحةٍ ولا بأحسنَ مِنها إذ دنا الأصُلُ

ومما جاء منه في بيت واحد قول أبي تمام[2] :

ما ربعُ ميَّةَ معموراً يطيفُ بهِ غيلانُ أبهَى ربى من ربْعِها الخربِ

ولا الخدودُ وإن أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ أشهَى إلى ناظرٍ من خدّها التَّرِبِ

الضرب الثاني : أن تأتي للممدوح أو غيره بصفة يقرب منها أبلغ منها في معناها، فيذكرك به ، فتفرعه منها . كما قال[3] :

أحلامُكُم لسقامِ الجهلِ شافيةٌ كما دماؤُكُمْ تشفي من الكَلْبِ

ففرع منهم ، ومن وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل شفاء دمائهم من داء الكلب ، وكما قال ابن المعتز[4] :

كلامُه أخدعُ من لحظِهِ ووعدُه أكذبُ من طيفِهِ

فبينا هو يصف خدع كلامه ، فرع منه وصف كذب وعده .

وقوله أيضاً[5] :

---

(1) الأبيات من البسيط في ديوان الأعشى ١٠٧ ، الطراز ١٣٣/٣ ، تحرير التحبير ٣٧٣ ، الشعر والشعراء ٢٦٦ ، خزانة الأدب ٤١٤ ، شرح عقود الجمان ١٦٩/٢ ، شرح شواهد الكشاف ٤٨٨ ، نهاية الأرب ١٦٠/٧ .

(2) البيت في ديوان أبي تمام .

(3) البيت من البسيط للكميت ، انظر الطراز ١٣٥/٣ ، العمدة ٤٢/٢ ، شرح عقود الجمان ١١٩/٢ ، معاهد التنصيص ٨٨/٣ ، الإيضاح ٣٢٥ "بتحقيقنا" . والكميت بن زيد شاعر كان يتشيع للعلويين أيام الأمويين .

(4) انظر العمدة ٤٢/٢ .

(5) البيتان من الكامل ،انظر العمدة ٤٢/٢ ، الطراز ١٣٥/٣ .

وكأنَّ حمرَةَ لونِها منْ خــــدِّه وكأنَّ طيبَ نسيمِها من نَشْرِه
حتَّى إذا صبَّ المزاجُ تَشَعْشَعتْ عن ثغرها فحسبتُه من ثغْــرِهِ

١٧–تأكيد المدح بما يشبه الذم : أن تنفي عن الممدوح وصفــا معيبــا ، ثم تعقبه بالاستثناء فتوهم أن ستثبت له ما يذم به ، فتأتي بما من شأنه أن يذم به ، وفيـــه المبالغة في المدح كقول النابغة[1] :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهمُ بهنَّ فلولٌ من قراعِ الكتائــبِ

وقول ابن الرومي[2] :

وما يعتريهـــا آفــةٌ وَسَنِيَّــةٌ منَ النَّــومِ إلاَّ أنَّها تَتَبَخَّــرُ
كذلك أنفاسُ الرياض بسَحرِه تطيبُ وأنفاسُ الورى تتغيرُ

وأحسن منها قول الآخر[3] :

ولا عَيب فينا غيرَ أن سماحَـــنا أَضَرَّ بنا والبأسُ من كلِّ جانبِ
وأفْنَى الرَّدَى أرواحَنا غيرَ ظالمٍ وأفنى النّدى أموالَنا غيرَ عائبِ
أبونا أبٌ لو كان للناس كُلّهِمْ أباً واحداً أغناهم بالمناقــبِ

وألحق بهذا النوع توكيد الذم بما يشبه المدح كقول ابن أبي الإصبع[4] :

(1) البيت من الطويل للنابغة الذبياني ، انظر ديوانه ٤٤ ، العمدة ٤٨/٢ ، الإشارات ١١١ ، تحرير التحبـــير ١٣٣ ، الإيضاح ٣٢٥ ، خزانة الأدب ٤١٩ ، شواهد الكشاف ٣٣٠ ، التبيان للطيبي ، البديع في البديــــع ١٢١ ، نهايـــة الأرب ١٢٢/٧ ، الطراز ١١٩/١ ، معاهد التنصيص ١٠٧/٣ .

(2) البيتان من الطويل انظر في ديوانه ٩٠٧/٣ ، انظر البيتين في الطراز ١٣٦/٣ ، العمدة ٢٤٥/٢ .

(3) الأبيات من الطويل لأبي هنان ، انظر العمدة ٤٨/٢ ، شرح عقود الجمان ١٢٤/٢ وهي منسوبة لابن الرومـــي ، وبلا نسب في نهاية الأرب ١٢٢/٧ ، سر الفصاحة ٢٦٥ ، الطراز ١٣٧/٣ ، وقال ابن رشيق : إن السماح والبـأس الذي أضرهم ليس بعيب على الحقيقة ، ولكن توكيد مدح ، والمليح كل المليح قوله "غير ظالم، وغير عائب" فـــهذا الثاني أعجب من الأول وألطف .

(4) البيت في الطراز ١٣٧/٣ ، شرح عقود الجمان ١٢٦/٢ .

خيرُ ماَ فيهم ولا خيرَ فيهــمُ   أنَّهم غـــيرُ مُؤثّمى المغتــابِ

١٨-التعليل : أن تقصد إلى حكم فتراه مستبعداً لكونه قريباً أو عجيبـــاً أو لطيفاً أو نحو ذلك ، فتأتي على سبيل التطرف بصفة مناسبة للتعليل ، فتدعى كونها علة للحكم لتوهم تحقيقه ، فإن إثبات الحكم بذكر علته أروج في العقل من إثباته بمجـــرد دعواه . ومن أمثلته قول مسلم بن الوليد[1] :

يَا وَاشِيًا حَسُنَتْ فِينَا إساءتُه   نَجّي حذارِكَ إنساني مِنَ الْغرقِ

فإنه لما غاير الناس وأغرب في تحسين إساءة الواشي ، رأى أنه قد أتـــى بمـــا يستبعد صدقه فاستدل على صحته بدعوى أن الإساءة حصلت تجاه إنسان عينه مـــن الغرق بالدمع لامتناعه من البكاء حذراً من الواشي ، وخـــوفاً على محبوبتـــه ، ومـــا حصل ذلك فهو حسن، فأثبت صحة تحسين الإساءة بإثبات علتها . ونحوه قول ابـــن رشيق يعلل قولهﷺ: "جعلت لى الأرض مسجداً وطهورا"[2] :

سَأَلتُ الأرضَ لِمَ جُعِلتْ مُصَلّى   ولِمَ كانت لنا طُهْراً وَطِيبا[3]

فقالتْ غيرَ ناطقةٍ : لأنـــّي   حويتُ لكلّ إنسانٍ حبيبـــا

وقد أحسن في الاستخراج لكون الأرض مسجداً وطهوراً علة مناسبة لا حرج عليه في ذكرها على لسانه ، فكيف وقد ذكرها على لسان الأرض في جواب سؤاله ، على أنه من قول أبي تمام[4] :

---

[1] البيت من البسيط لمسلم بن الوليد في ديوانه ٣٢٨ ، الطراز ١٤٠/٣ ، الإيضاح ٣٢٤ "بتحقيقنا" ، تحرير التحبير ٣١١ ، الإشارات ٢٨٢ .

[2] أخرجاه في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر ، كما في صحيح الجامع (١٠٥٦) .

[3] البيتان لابن رشيق القيرواني في ديوانه ٥٦ ، تحرير التحبير ٣١٠ ، الطراز ١٣٩/٣٠ ، شـــرح عقـــود الجمـــان ١٢٢/٢، نهاية الأرب ١١٦/٧ ، خزانة الأدب ٤١٧ .

[4] البيتان من الطويل لأبي تمام ، انظر ديوانه ٤٢٥ ، الإيضاح ٣٢٤ ، سر الفصاحة ١٢٥ .

رُبِيًّ شفعتْ ريحُ الصَّبا بنسيمِها إلى المزنِ حتى جادَها وهْو هامعُ
كأنّ السحابَ الغرَّ غيَّبْنَ تَحتَها حبيباً فما تَرْقا لهنَّ مدامِعُ

وقال ابن هانئ المغربي[1] :

ولَوْ لَمْ تُصافِحْ رجْلُها صَفْحَة الثَّرى لما كنتُ أَدْرِى علَّة للتيمُّمِ

أراد الإغراب والطرفة فوقع في الغلو الذي أحال المعنى وأخرجه عن وجه الصحة.

١٩-التهكم : إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال ، استهزاءاً بالمخاطب وغيره ، أو تعريضاً بقوة المحرك للغضب . وأصله من تهكمت البئر تهدمت ، وتهكم الشيء تعيب ، أو من تهكم عليه اشتد غضبه ، فإن تناهى غضبه ربما عظم كبره فاستهان بالمخاطب واستهزأ به ، وربما أحمى الغضب مزاجه حتى خيل إليه ضد مقتضى الحال "فبنى عليه فأتى في مقام الوعيد والإنذار بالوعد والبشارة . وفي مقام الهجاء بالمدح بكلماته أو كلمات الذم ، وفي مقام تحقيق الخبر بتقليله ، وفي مقام بجحده بإثباته وقبوله ، وسمى تهكماً لتسببه عنه . ثم أطلق التهكم على كل كلام أخرج استهزاء على ضد مقتضى الحال . ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٣٤] و﴿بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء : ١٣٨] . ومنه قوله تعالى :﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان : ٤٩] ، وقول ابن الذروى في ابن أبي حصينة[2] :

لاَ تَظُنَّنَّ حدبةَ الظهرِ عيباً هِى فى الحسنِ منْ صفاتِ الهلال
كَذلكَ القِسِيّ مُحْدَودَباتٍ وهى أَنْكَى من الظُّبي والعَوَالى
كوَّنَ الله حدبةً فيكَ إنْ شـ ئتَ من الفضل أَوْ مِنَ الإفْضالِ

---

[1] البيت لأبي نواس ، انظر الطراز ١٣٩/٣ ، (الحسن بن هانىء) ، وفي الفصاحة لابن هاني الأندلسي ٢٧٠ ، وليس في ديوان أحدهما .

[2] الأبيات من الخفيف في الطراز ١٦٤/٣ ، ١٦٥ ، قال العلوي : فظاهر ما أورده مدح كامل كما ترى لما يظهر من صورته وإنما أورده على جهة التهكم به والاستهزاء بحاله [الطراز ١٦٥/٣] .

فأنتَ ربوةٌ على طودِ حلمٍ طالَ أو موجةٌ ببحرِ نوالِ

ويقول في آخرها :

وإذا لَمْ يكُنْ مِنَ الْهجرِ بُدٌّ فَعَسى أَنْ تَزورَنِي في الخيالِ

ومنها قوله تعالى : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : ٢] .

وقوله : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهك فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة : ١٤٤] ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب : ١٨] .

ومنها قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] . على تفسير المعقبات بالحرس حول السلطان يحفظونه على زعمه من أمر الله ، وهو تهكم فإنه لا يحفظه من أمر الله شيء إذا جاء . ومنها قول امرئ القيس[1]:

فأنشبَ أظفارهَ في النَّسا فقلتُ هبلتَ ألا تنتصرْ

فقوله "هبلت ألا تنتصر" تهكم في غاية اللطافة والحسن (والله أعلم) .

[1] البيت لامرئ القيس في ديوانه ٩٧ ، فقوله : هبلت ألا تنتصر ، تهكم بحاله في غاية اللطف والرشاقة ؛ لأن ما فعله الكلب بالصيد هو غاية الانتصار .

الفصل الثالث

فيما يرجع إلى الفصاحة المختصة بتحسين الكلام وتزيينه ، الدالة على قوة عارضة المتكلم وتمكنه . وهو خمسة عشر نوعاً :

١ ، ٢–اللف والنشر : أن تلف شيئين في الذكر أو أكثر ، ثم يتبعهما متعلقات هما ، إما على الترتيب في اللف كما قال تعالى :﴿ **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**﴾[القصص : ٧٣] .

ومنه قول ابن حيوس[١] :

فعلُ المُدامِ ولونُها ومَذاقُها ... في مقلتَيْه ووجَنتَيْه وريقِه

وإما على العكس .

قال ابن حيوس أيضاً[٢] :

كيفَ أسلُو وأنت حِقْفٌ وغُصْنُ ... وغزالٌ لحظاً وقدّاً ورِدْفا

٣–التفريق : أن تعمد إلى اثنين من نوع ، فتوقع بينهما تبايناً في المدح أو غيره، كقول الشاعر[٣] :

ما نوالُ الغمامِ وقتَ ربيعٍ ... كنوالِ الأميرِ يومَ سَخاءِ

فنوالُ الأميرِ بدرةُ عينٍ ... ونوالُ الغمامِ قطرةُ ماءِ

٤–الجمع : أن تجمع بين شيئين فصاعداً في شيء واحد كقوله تعالى : ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[الكهف : ٤٦] وكقول الآخر[٤]:

---

[١] البيت من الكامل لابن حيوس، انظر الإيضاح ٣١٣، الإشارات ٧٦،خزانة الأدب ٨، شرح عقود الجمان ١١٨،فالترتيب في الشطر الأول يماثل الترتيب في الشطر الثاني فعل المدام:في مقلتيه،ولونها: في وجنتيه، ومذاقها:في ريقه.

[٢] البيت من الخفيف لابن حيوس ، انظر ديوانه ٤٧/٢ ، الإيضاح ٣١٤ "بتحقيقنا" ، شرح عقود الجمان ١١٨ ، الصناعتين ٣٥٦ .

[٣] البيتان للوطواط ، انظر الإشارات ٢٧٤ ، الطراز ١٤١/٣ ، شرح عقود الجمان ١٠٤/١ ، الإيضاح ٣١٤ ، المفتاح ٥٣٥ .

[٤] البيت من الرجز لأبي العتاهية ، انظر ديوانه ٤٤٨ من أرجوزته ذات الأمثال ، الطراز ١٤٢/٣ ، المفتاح ٥٣٥ ، الإيضاح ٣١٤ ، الإشارات ٢٧٣ ، شرح عقود الجمان ١١٨ ، معاهد التنصيص ٢٨٣/٢ ، نهاية الأرب ٨٠/٣ . ويروى "للمرء" بدل "للرأي" .

إن الشبابَ والفراغَ والجِدهْ   مفسدةٌ للرأىِ أىَّ مَفْسَدَه[1]

٥-الجمع مع التفريق : أن تدخل شيئين فصاعداً في معنى ثم تفرق بين جهتي الإدخال كقوله[2] :

قد اسودَّ كالمسكِ صِدْغًا   وقد طابَ كالمسكِ خُلقا

فإنه جمع بين الصدغ والخلق والتشبيه بالمسك ثم فرق بين جهتي التشبيه .

٦-الجمع مع التقسيم : أن تجمع أموراً كثيرة تحت حكم ثم تقسم ، أو تقسم ثم تجمع . مثال الأول قول الشاعر[3] :

الدهرُ معتذِرٌ والسيفُ منتَظِرٌ
وأرضُهم لك مصطافٌ ومُرتَبَعُ
للسبيِ ما نكحوا والقتلِ ما وَلدوا
والنهبِ ما جَمعوا والنارِ ما زَرعوا

فإنه جمع في البيت الأول أرض العدو وما فيها من كونها خاصة للممدوح . وقسم في الثاني. ومثال الثاني قول حسان[4] :

قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهمُ   أو حاولوا النفعَ في أشياعِهم نفعوا
سجيةٌ تلكَ منهم غيرُ محدَثَةٍ   إن الخلائِقَ فاعلمْ شرَّها البِدعُ

فإنه قسم في البيت الأول صفتهم إلى ضرهم للأعداء ونفعهم للأولياء ، ثم جمع في الثاني فقال سجية تلك منهم .

---

(1) الجدة : الاستغناء ، المفسدة : ما يدعو إلى الفساد ، والشاهد فيه الجمع بين متعدد في حكم واحد . والمتعدد هو : الشباب والفراغ والجدة ، والحكم الواحد هو (مفسده) الذي جاء خبراً عن هذا المتعدد .

(2) انظر المفتاح ٥٣٥ ، الطراز ١٤٣/٣ .

(3) البيتان من البسيط للمتنبي شرح التبيان ٤٢٥/١ ، ٤١٩ ، الطراز ١٤٣/٣ ، المفتاح ٥٣٦ ، الإيضاح ٣١٥ .

(4) البيتان من البسيط لحسان بن ثابت في ديوانه ٢٣٨ ، الطراز ١٤٤/٣ ، الإيضاح ٣١٦ ، المفتاح ٥٣٦ ، الإشارات ٢٧٥ ، شرح عقود الجمان ١٠٨/٢ ، نهاية الأرب ١٥٤١/٧ ، خزانة الأدب ٣٥٧ ، دلائل الإعجاز ٩٤ ، الأغاني ١٣٦٢/٤ .

٧-**الائتلاف** : وهو أصناف : **أحدها** : **ائتلاف اللفظ مع المعـــنى** : وهـــو أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له فإذا كان المعنى فخما كان اللفظ جـــزلا ، وإذا كان المعنى رشيقاً كان اللفظ رقيقاً ، وإذا كان المعنى أعرابياً كان اللفظ غريبـــاً ، وإذا كان المعنى مولداً كان اللفظ مستعملا . كما قال الله **﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ﴾**[يوسف : ٨٥] .

فأتى في مقام تفخيم الخطب وتهويل ما خيف على يعقوب عليه السلام مـــن دوام حزنه وطول أسفه بتفتؤ-التي هى أغرب ما في بابها-بين أغرب صيغ القسم وألفاظ الهلاك فلاءم بين الألفاظ والمعاني وألف بينهما ، وكما قال زهير[1] :

أثافي سفعاً فى معرس مرجل

ونُؤيا كجذمِ الحوضِ لم يَتَثَلَّـــمِ

فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لربْعِها

ألا انعمْ صباحًا أيها الرَّبْعُ واسلمِ

فأتى في البيت الأول لكون معانيه أعرابية بألفاظ متوسطة مناسبة في الغرابـــة ، وأتى في البيت الثاني لكون معانيه أبين وأقرب إلى العرف بألفاظ مستعملة كثيرة الدور .

الصنف الثاني : **ائتلاف اللفظ مع اللفظ** : وهو أن يكون في الكلام معنى يصـــح معه واحد من عدة معان ، فتختار منها ما بينه وبين بعض الكلام ائتـــلاف لاشـــتراك في الحقيقة أو ملاءمة المزاج أو نحو ذلك ، كما قال البحتري[2] :

كالقِسيِّ المُعَطَّفاتِ بلِ الأسـ ــــهُمِ مبرِيةً بلِ الأوْتارِ

فإن تشبيهه الإبل بالقسي من حيث هو كناية عن وصفها بالهزال يصـــح معـــه تشبيهها بالعراجين والأهلة والإطناب وغيرها فاختار مع ذلك كله تشـــبيهها بالأســـهم والأوتار لما بينها وبين القسي من الملاءمة والائتلاف ، وقد أحسن في هذا البيت ما شـــاء

---

(١) البيت في ديوان زهير ٧ ، شرح القصائد ٢٤١ ، الأثافي : الأحجار ، المعرس : من التعريس : نزول القوم ليستريحوا، النؤى : حاجز يرفع حول البيت من تراب من خارج لئلا يدخل الماء البيت . سفعاً : سوداً تميل إلى الحمرة .

(٢) انظر ديوان البحتري ٩٨٧ ، المثل السائر ٣٦/٢ ، معاهد التنصيص ٢٢٧/٢ ، الطراز ١٤٦/٣ .

مما اتفق له فيه من الإيجاز والمبالغة والتتميم وحسن النسق والائتلاف والإيغال ، وكما قال المتنبي[1] :

على سابحٍ موجُ المنايا بنحْرِه غداةَ كان النّبلُ في صدرِه وبْلُ

فإن بين السباحة والموج والوبل ملاءمة صيرت البيت محكم النسج مؤتلف الألفاظ وأحسن منه قول ابن رشيق[2] :

أصحُّ وأقوى ما رويناه في النَّدى

من الخَبَرِ المأثورِ منذُ قديمِ

أحاديثُ تَرْويها السيولُ عن الحيا

عنِ البَحْرِ عن جُودِ الأميرِ تميمِ

لما فيه من المناسبة بين الصحة والقوة والرواية والخبر المأثور ، ثم وبين السيل والحيا والبحر .

الصنف الثالث : ائتلاف المعنى مع المعنى وهو قسمان :

الأول : أن يشتمل الكلام على معنى معه أمران : أحدهما ملائم والآخر بخلافه فتقرنه بالملائم ، كما قال المتنبي[3] :

فالعُربُ منه مع الكُدْرِيّ طائرةٌ والرُّومُ طائرةٌ منه مع الحجْلِ

والثاني : أن يشتمل الكلام على معنى وملائمين له : فتقرن به منهما ما لاقترانه به مزية كما في قول المتنبي أيضاً[4] :

---

(1) انظر ديوان المتنبي ١٨٦/٣ ، السابح : فرس سريع ، وبل : مطر شديد .

(2) البيت من الطويل لابن رشيق ، انظر الطراز ١٤٧/٣ ، خزانة الأدب ١٦٧ ، الإيضاح ٣٠٦ ، الأمير تميم : هو ابن المعز بن باديس، من أمراء الدولة الزبرية أو الصنهاجية بإفريقية .

(3) البيت للمتنبي ، انظر ديوانه ٨٢/٣ ، الطراز ١٥٠/٣ ، شرح عقود الجمان ١٩٥/٢ ، الكدرى والحجل : نوعان من الطيور .

(4) انظر ديوان المتنبي ٣٨٦/٣ ، الشعر والشعراء ١٦٥ ، الطراز ١٤٨/٣ ، شرح عقود الجمان ١٩٥/٢ .

وقفتُ وما في الموتِ شكٌّ لواقِفٍ كأنَّكَ في جَفْنِ الرَّدى وهْو نائِمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمـةً ووجْهكَ وضَّاحٌ وثغرُكَ باسمُ

فإن عجز كل من البيتين يلائم كلا من الصدرين ، ولكنه اختار ذلك الترتيب لأمرين :

أحدهما أن قوله : كأنك في جفن الردى وهو نائم مسوق لتمثيل السلامة في مقام العطب ، فجعله مقرراً للوقوف والبقاء في موقف يقطع على صاحبه بالموت فيه أنسب من جعله مقرراً لثباته حال هزيمة الأبطال .

والثاني أن يكون في تأخير التتميم بقوله : ووجهك وضاح وثغرك باسم .

عن وصف الممدوح بوقوفه ذلك الموقف وبمرور أبطاله كلمى بين يديه من زيادة المبالغة ما يفوت بالتقديم . وكما في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾[طه : ١١٨ ، ١١٩] .

فإنه لم يراع فيه مناسبة الرى للشبع والاستظلال للبس في تحصيل نوع المنفعة ، بل روعى مناسبة اللبس للشبع في حاجة الإنسان إليه ، وعدم استغنائه عنه ، ومناسبة الاستظلال للرى في كونهما تابعين للبس والشبع ، ومكملين لمنافعهما ؛ لأن رعاية ذلك أدخل في حسن الوعد والامتنان بالنعم المذكورة لما في جمع الأهم منها في الجملة الأولى وعطف باقيها في الجملة الثانية من الاستماع : في مرة للبشارة بنيل أصول النعم ، ومن تكملها بذكر التوابع والمتممات ما كان يفوت لو لم يفعل ذلك.

الصنف الرابع : **ائتلاف اللفظ مع الوزن** : وهو أن يأتى الشاعر بالمعنى والوزن من غير حاجة إلى تقديم وتأخير يمتنع مثله في السعة كقوله[1] :

[1] البيت من الطويل للفرزدق في مدح خال هشام بن عبد الملك بن مروان ، أحد ملوك بني أمية ، وخاله الممدوح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي ، انظر البيت في لسان العرب (ملك) ، ومعاهد التنصيص ٤٣/١ ، ديوان الفرزدق ١٧٨ ، الإشارات ١١ ، الإيضاح ٦ ، نهاية الإيجاز ٢٧٩ ، الخصائص ١٤٦/١ .

وما مثلهُ في الناسِ إلا مُمَلَّكًا		أبو أُمِّهِ حَيٌّ أبوه يُقارِبُــه

ولا إلى تغيير بزيادة كقوله[1] :

حتى إذا خَــرَّتْ على الكَلْكَــالِ

أو نقص كقوله[2] :

قواطِناً مكــةَ مِنْ وُرْقِ الحِمــا

أو بهما كقوله[3] :

مِنْ نَسْــجِ داودَ أبي ســلامِ

يريد سليمان .

وكل شعر حكيم فهو مثال لهذا الصنف .

الصنف الخامس : ائتلاف المعنى مع الوزن : وهو أن يأتي الشاعر باللفظ والوزن من غير حاجة إلى إخراج المعنى عن وجه الصحة كما جرى لعروة بن الورد في قوله[4] :

فإنّي لو شَهِدتُ أبا خبيبٍ		غداةَ غَدا بمهْجَتِه يفوقُ

فديتُ بنفسِهِ نفسِي ومالى		وما آلُوه إلا ما أُطيــقُ

أراد فديت نفسه بنفسي ولكنه اضطر فقلب المعنى لإصلاح الوزن .ومثله قــول المتنبي[5] :

---

(1) الموشح للمرزباني ٨٧ ، سر الفصاحة ٧٤ ، الجني الداني ١٧٨ ، لسان العرب (كلكل) .

(2) نسب البيت للعجاج ، انظر ديوانه ٥٩ ، الموشح ٨٦ ، نهاية الأرب ٨٧/٧ ، والحما : الحمام ، وحذفت الميم لضرورة الشعر .

(3) انظر ديوان الحطيئة ١٢٨ ، ضرورة الشعر للسيرافي ١٤٤ ، شرح عقود الجمان ١٢ ، نهاية الأرب ١٨٧/٧ .

(4) البيتان من الوافر لعروة بن الورد ، انظر الموشح ٧٠ ، الإيضاح ٨٥ ، سر الفصاحة ١٠٤ ، تحرير التحبير ٢٢٣ ، شرح عقود الجمان ١٩٤/٢ ، شواهد الكشاف ٤٠٤ ، خزانة الأدب ٤٣٨ .

(5) انظر ديوان المتنبي ١٢٩/٢ .

خرجوا به ولكُلّ باكٍ خَلفَه　　صعقاتُ مُوسى يومَ دُكَّ الطُّورُ

فجمع الصعقة ، وإن لم يكن لموسى عليه السلام إلا صعقة واحدة ، توصلا إلى الوزن .

٥-الصنف السادس : ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، ويسمى ، التمكين : وهو أن يكون لقافية البيت أو سجعة الفقرة تعلق بما قبلها وفيه تمهيد لها ودلالة منه أو من بعض جمله عليها ، فتكون ممكنة في مكانها مستقرة في موضعها . وفي الكتاب العزيز منه كل عجيبة باهرة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨].

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[يس : ١٦ ، ١٧] ، وقوله : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس : ٢٦ ، ٢٧] .

ومن أمثلته الشعرية قول أبي تمام[1] :

ومَنْ يأْذن إلى الواشين تُسْلَقْ　　مسامِعُه بألسنةٍ حِدادِ

وقوله[2] :

أموسى بنَ إبراهيمَ دعوةُ خامِسٍ　　به ظَمَأُ التثريبِ لا ظَمَأُ الوردِ

أتاني مع الركبانِ ظَنٌّ ظَنَنْتُه　　لففْتُ له رأسِي حياءً منَ المجدِ

أأُتْبِعُ هجرَ القولِ مَنْ لو هجرتُه　　إذاً لهجاني عنه معروفُهُ عندِي

نسيتُ إذاً كم منْ يدٍ لكَ شاكلَتْ

يدَ القربِ ، أعْدَتْ مستهاماً على الصَّدِّ

---

(١) البيت لأبي تمام ٧٤ .

(٢) الأبيات لأبي تمام ١١٤ ، وانظر الصناعتين ٢٢١ ، أخبار أبي تمام للصولي ٢٩٥ ، زهر الآداب ٣٥٥ (البيتان الأخيران) ، شاكلت : أى صنائعك عندي تشاكل صنيعة القرب بالنسبة للعاشق ، لجمعه بينه وبين من بعد منه .

ومن زمنٍ ألبستَنيه كأنّه إذا ذُكِرَتْ أيامُه زمنَ الوردِ

وقول البحتري[1] :

فلم أرَ ضِرغامَيْنِ أصدقَ منكُما عِراكا إذا الهيابةُ النكْسُ أكْذبَا

حملتَ عليه السيفَ لا عزْمُكَ انثنى ولا يدُكَ ارتدَّتْ ولا حدُّه نَبا

وكنتَ متى تَجْمعْ يمينك هَتِك الـ ـضَّريبةَ أو لا تُبقِ للسيفِ مَضْرَبا

ألنتَ لِيَ الأيامَ منْ بعدِ قسوةٍ وعاتبتَ لِي الدهرَ المسيءَ فأَعْتَبا

وقول المتنبي[2] :

يا مَنْ يعز علينا أن نُفارِقَهم وُجْدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكُمْ عدَمُ

إنْ كان سرَّكُمُ ما قال حاسدُنا فَما لجرحٍ إذا أرضاكُمُ أَلَمُ

وبيننا لو علمْتم ذاكَ معرفةٌ إنَّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذمَمُ

لِئنْ تَركْنَ ضميراً عن مَيامِننا لَيُحْدِثَنَّ لِمَنْ ودَّعتُهمْ ندَمُ

إذا ترحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَروا أَنْ لا تُفارِقَهم فالراحلونَ هُمُ

وما سمع لمتقدم في التمكين مثل قول النابغة[3] :

كالأقحوانِ غداةَ غبَّ سمائَه جَفَّتْ أعالِيه وأسفَلُه نَدِي

وإذا وصلت إلى قول القائل :

---

(1) انظر ديوان البحتري ٢٠٠ ، ٢٠١ ، أسرار الفصاحة ٢/٢٢٧ ، المثل السائر ٢/٣٢٢ ، الطراز ٢/٣١٠ ، الوساطة ١٣٢ ، أكذبا : كذبا ، الضرغام من أسماء الأسد ، النكس : الرجل الضعيف ، الضريبة : كل ما يضرب بالسيف .

(2) انظر ديوان المتنبي ٣/٣٧٠ ، العمدة ٢/١٦٥ ، سر الفصاحة ١٧٣ ، تحرير التحبير ٢٢٦ ، شرح عقود الجمان ٢/١٩٢ ، خزانة الأدب ٤٣٩ .

(3) انظر ديوان النابغة ٩٥ ، العمدة ٢/٨٦ ، الأقحوان : نبت له نور أبيض وسطه أصفر ، فشبه الأسنان ببياض ورقه .

ما نظرتْ عيني سواكَ مَنْظَرا مُستَحْسَنًا إلا عرضْتُ دونَـه
ولا تمنَّيْتُ لقاءَ غائـبٍ إلا سألتُ اللهَ أن تكونَ هُـو

فقد ارتقيت إلى ما لا مزيد عليه .

الصنف السابع : الائتلاف مع الاختلاف : وهو ضربان : الأول : ما كانت المؤتلفة فيه بمعزل عن المختلفة كقول سويد بن حذاقه[1] :

أبى القلبُ أن يأتي السديرَ وأهلَه وإنْ قيلَ عيشٌ بالسّدِيرِ غزيرُ
به البَقُّ والحُمّى وأُسْدٌ تحفُّـه وعمرو بنُ هِنْدٍ يعتَدِي ويجورُ

والثاني : ما كانت المؤتلفة فيه مداخلة للمختلفة : كقول العباس ابن الأحنف[2]:

وصالُكُمُ هجْرٌ وحُبُّكمُ قِلًى وعطْفُكُمُ صَدٌّ وسِلْمُكمُ حَرْبُ

٨-التورية : (وتسمى الترجية وهى أن يكون للفظ معنيان: قريب وبعيد ، فتذكره موهما إرادة القريب وأنت تريد البعيد . وهى أربعة أضرب :

الأول : التورية المجردة : كلفظ الغزالة في قول أبي الفضل عياض في صيفية باردة[3] :

كأنَ كانونَ أهدَى من ملابِسه لشهر تموزَ أنواعاً من الحُلَلِ
أو الغزالةَ منْ طولِ المدى خَرِفَتْ فما تُفرِّقُ بين الجَدْيِ والحَمَلِ

لأنه ليس قبله ولا بعده من لوازم المورى به .

(١) انظر البيتين الشعر والشعراء ٣٨٧ ، الصناعتين ٤١٨ ، شرح عقود الجمان ٢/١٩٥ ، الطراز ٣/١٥١ .
(٢) انظر ديوان العباس بن الأحنف ٣٤ ، العمدة ٢/٢٥ ، المثل السائر ٣/١٧٠ ، الطراز ٣/١٥١ ، شرح عقود الجمان ٢/١٩٥ .
(٣) البيتان من البسيط ، انظر الإيضاح ٣١٢ "بتحقيقنا" .

الضرب الثاني : التورية المرشحة بما قبلها : كلفظ الجدى والحمل في شعر عياض، فإن ما بين الغزالة وبين ذكر الجدى والحمل من الملاءمة رشحهما إلى التورية وأظهرها فيهما ما في الغزالة ظهوراً ناصعاً . وكلفظ الجفون في قول يحيى بن منصور الحنفي[1] :

وَجدْنا أبانا كانَ حلَّ ببلدة — سوى بين قيسٍ قيسِ غيلانَ والفَزْرِ
فلما نأَتْ عنَّا العشيرةُ كلهُّا — أَنَخنْا لحالِفِنا السيوفَ على الدَّهْرِ
فما أسلَمَتْنا عندَ يومِ كريهةٍ — ولا نحنُ أغْضَيْنا الجفونَ على وَتْرِ

فإن لفظ أغضينا قبله قد رشحه إلى التورية ورجحه في الظاهر لإرادة إغماض جفون العيون على إغماض جفون السيوف ؛ يعنى إغمادها لأن السيف إذا أغمد أطبق الجفن وإذا جرد انفتح للخلاء الحاصل بين الدفتين ، لكن دل سياق كلامه على إرادة أنهم لا يغمدون سيوفهم ولهم وتر عند أحد ، وهذا من ألطف تورية وقعت لمتقدم . ومثله[2]:

حملناهُمُ طُرّاً على الدُّهْمِ بعدما — خَلعْنا عليهم بالطِّعانِ الملابسا

الضرب الثالث : التورية المرشحة بما بعدها كلفظ مندوب في قول ابن الربيع[3]:

لولا التَّطَيُّر بالخِلاف وأنهم
قالوا مريض لا يعود مريضا
لقضيتُ نحباً في فنائِك خِدْمةً — لأكونَ مندوباً قَضَى مفروضا

فإن لفظ مفروض بعده رشحه للتورية ، ولو كان موضع مفروض غيره لم يكن في لفظ مندوب تورية البته . وكلفظ اليمين في قول على رضي الله عنه في الأشعث بن قيس:"كان يحوك الشمال باليمين" ، ويريد جمع شمله .

---

(1) الأبيات من الطويل وهى لموسى بن جابر الحنفي في أكثر الروايات ، وليحيى بن منصور الحنفي على ما في الحماسة، انظر البيتين الأخيرين في الإيضاح ، الحماسة ١٧١/١ .

(2) البيت من الطويل بلا عزو في الإشارات ٢٧٢ ، الإيضاح ٣١٢ ، المفتاح ٥٣٧ ، وهذا ضربٌ يستحكم حتى يصير اعتقاداً .

(3) البيتان من الطويل لعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع ، انظر الإيضاح ٣١٣ ، الإشارات ٢٧٢ .

الضرب الرابع : التورية المرشحة بلفظين كل منهما يرشح صاحبه لها : كلفظي الثريا وسهيل في قول عمر بن أبي ربيعة[1] :

أيها المُنْكِحُ الثُّريَّا سُهيلاً ... عمرُكَ اللهِ كيفَ يلتقِيانِ

هِيَ شآميةٌ إذا ما استَقلَّتْ ... وسهيلٌ إذا ما استَقَلَّ يمانِ

فإن كلاً منهما قد رشح صاحبه للتورية . فقوى لفظ الثريا على إيهام القصد بسهيل إلى الكوكب المعروفه ولفظ سهيل على إيهام القصد بالثريا إلى المترلة المشهورة لكون أحدهما شماليا والآخر جنوبياً ، ومراد الشاعر إنما هو الثريا صاحبته الشامية الدار والقبيلة لأنها من بنى أمية الأصغر بن عبد شمس وسهيل اليماني الدار لا القبيلة ، فتم له ما أراد من الإنكار على من جمع بينهما بألطف وجه .

وأنشد صاحب المفتاح[2] :

وحرفٍ كنونٍ تحتَ راءٍ ولم يكنْ ... بدالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غيَّرَهُ النَّقْطُ

٩-القسم : أن تحلف على شيء بما فيه فخر ، أو مدح ، أو تعظيم ، أو تغزل ، أو زهد ، أو غير ذلك .

فالأول : كقول الأشتر النخعى[3] :

بَقيتُ وَفْرِى وانحرَفْتُ على العُلى ... ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبوسِ

إن لم أَشنَّ على ابنِ هندٍ غـارةً ... لم تخلُ يوماً من نِهابَ نُفوسِ

فضمن القسم على الوليد بما فيه من افتخار المقسم بالجود والشرف . وأمثاله قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[الذاريات : ٢٣] .

---

(١) انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة ٢٢٩ ، شرح عقود الجمان ٩٨/٢ ، ٩٩ ، خزانة الأدب ٣٥٤ ، العمدة ٢٧٩/١ ، نهاية الأرب ١٣١/٧ ، شرح شواهد الكشاف ٤٦١ ، زهر الآداب ٢٤٥ .

(٢) انظر مفتاح العلوم للسكاكي ٥٣٤ "بتحقيقنا" .

(٣) البيتان في الطراز ١٥٤/٣ ، نهاية الأرب ٨٩/٧ ، المثل السائر ٢٠٦/٢ ، تحرير التحبير ٣٢٧ ، ديوان الحماسة للتبريزى ٧٥/١ ، ٧٦ .

والثاني : كقول الشاعر[1] :

آثارُ جودِكَ في القلوب تُؤَثِّــرُ ... وجميلُ بشْرِكَ بالنجاحِ يُبَشِّرُ

إن كان لِي أملٌ سواكَ أَعُــدُّه ... فكفرتُ نعمتَكَ التي لا تُكْفَرُ

فضمن القسم ما يزيد الممدوح مدحاً .

والثالث : كقوله تعالى ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[الحجر : ٧٢] .

أقسم سبحانه وتعالى بحياة رسوله تعظيما لقدره ، وتبييناً لمكانته عنده . ومثلـــه قول الشاعر[2] :

قالتْ وعيشُ أخي وحُرمَةُ والدِي ... لأُنَبِّهَنَّ الحيَّ إن لم تَخْرُجِ

فخرجتُ خِيفَةَ قولِها فتبسَّمَــتْ ... فعلمْتُ أنَّ يمينَها لم تَحــرُجِ

فَضَممْتُها ولَثمْتُها وفَدَيْتُ مَــنْ ... حَلفَتْ عليَّ يمينَ غيرِ المُحرجِ

والرابع : كقول الآخر[3] :

جَنى فتجَــنَّ والفــؤادُ يُطيعــُه ... فلا ذاقَ مَنْ يَجْنى عليه كما يَجْنى

فإن لم يكن عندى كعَيْنِي ومَسْمَعِي ... فلا نظرتْ عَيْنِي ولا سِمِعَتْ أُذْنِي

والخامس : كقوله[4] :

حلفتُ بمَنْ سوَّى السماءَ وشادَها

ومَن مرجَ البحرَيْنِ يلتَقِيان

ومَنْ قام في المعقولِ من غيرِ رُؤيةِ

بأثبتَ من إدْراكِ كلِّ عيانِ

لما خُلِقَتْ كفَّــاكَ إلا لأربَــعٍ

عقائل لم تعقل لهــن ثــواني

---

(١) انظر الطراز ١٥٥/٣ .

(٢) الأبيات تُنسب لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه ٤٣ ، ولجميل بثينة في ديوانه ٤٢ ، والشعر والشعراء ٤٤١ ، وعقــود الجمان ١٥٠/٢ ، خزانة الأدب ١٤٦ .

(٣) انظر البيتين في الطراز ١٥٦/٣ .

(٤) انظر الأبيات في خزانة الأدب ١٨٩ ، الطراز ١٥٦/٣ ، ١٥٧ ، شرح عقود الجمان ١٥٠/٢ .

لتقبيلِ أفواهٍ وإعطاءِ نائلٍ وتَقْلِيبِ هندِيٍّ وحَبْسِ عَنانِ

١٠-المراجعة : أن يحكي المتكلم مراجعة في القول ومحاورة جرت بين غيره وبينه بأوجز عبارة وأعذب لفظ .

ومن جيد أمثلته قول وضاح اليمن[1] :

قالت ألا لا تَلجَنَّ دارَنا إنَّ أبانا رجلٌ غائِرْ
أما رأيتَ البابَ مِنْ دونِنا قلتُ فإني واثِبٌ ظافِرْ
قالت فإنّ القَصْرَ مِنْ دونِنا قلتُ فإني فَوْقَه طائِرْ
قالت فإنَّ الليثَ عادَ بِهِ قلتُ فَسيْفِي مُرهَفٌ باتِرْ
قالتْ أليس البحرُ من دونِنا قلتُ فإني سابحٌ ساهِرْ
قالت أليسَ اللهُ من فَوْقِنا قلتُ بَلَى وهْو لنا غافِرْ
قالتْ فإما كنتَ أعَيَيْتَنا فأْتِ إذا ما هَجَعَ السامِرْ
واسقُطْ علينا كسقُوط النَّدى ليلةَ لا ناهٍ ولا آمِرْ

وألطف منه قول أبي نواس[2] :

قال لي يوماً سليما نُ وبعضُ القولِ أشنَعْ
قال صِفْنِى وعَلِيّاً أيُّنَا أتْقَى وأوْرَعْ
قلتُ إني إنْ أقُلْ ما فيكُما بالحقِّ تَجْزَعْ
قال كلاَّ قلتُ مَهْلاً قال قلْ لي قلتُ فاسْمَعْ
قال صِفْهُ قلتُ يُعطِي قال صِفْنِي قلتُ تمنَعْ

وقول البحتري[3] :

(1) انظر الطراز ١٥٢/٣ ، خزانة الأدب ١٠٠ ، الأغاني ٢٢٩٦/٦ .

(2) الأبيات ليست في ديوانه ، انظر خزانة الأدب ٩٩ ، ١٠٠ ، الطراز ١٥٢/٣ ، ١٥٣ .

(3) الأبيات في ديوان البحتري ١٤٢٤ ، خزانة الأدب ١٢٥ ، الطراز ١٥٣/٣ ، تحرير التحبير ٥٣٢ .

بتُّ أسقِيهِ صَفْوَةَ الراحِ حــتىَّ	وضَعَ الرأْسَ مائِلاً يَتَكَفَّا
قلتُ عبدَ العزيزِ تَفْدِيكَ نفسِي	قالَ لبيْكَ قلتُ لبيكَ ألفَا
هاكَها قال هاتِها قلتُ خُذْهــا	قال لا أستَطِيعُها ثم أَغفَى

١١-الإدماج : وهو ضربان :

الأول : أن يتضمن التصريح بمعنى من فن كناية عن معنى من فن آخر ، كقـــول عبد الله بن عبد الله لعبد الله بن سليمان[(١)] :

أبى دهرُنا إسعافَنَا في نُفوسنا	فأسَعَفنَا فيمَنْ نحبُّ ونُكْرِمُ
فقلتُ له نُعماكَ فيهمْ أَتِمَّها	ودعْ أمَرنا إنَّ المهِمَّ المقُدَّمُ

فأدمج شكوى الزمان وما عليه من اختلاف الأحوال في التهيئة فأحسن التخيــل في بلوغ غرضه ، وتلطف في المسألة مع صيانة نفسه عن التصريح بالسؤال لا جرم أنــه فطن له سليمان فوصله واستعمله .

وكقول ابن نباتة السعدي[(٢)] :

ولا بُدَّ لى من جَهْلَةٍ في وصالِه
فَمَنْ لى بخِلٍّ أُودِعُ الحِلْمَ عندَه

فأدمج الفخر في الغزل حين كنى عن حلمه بأن لا يفارقه ولا يرغب نفسه عـــن حلمه وإنما عزم على أن يودعه إذ كان لا بد له من وصل هذا المحبوب لأن الودائع تسترد، ثم استفهم على طريق الإنكار عن الخل الصالح ليودعه الحلم فأفهم ببقاء حلمه عليه لعـدم

---

(١) البيتان من الطويل لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، المتوفى في سنة ٣٠٠هـ يهنىء سليمان بن وهب حينما اســتوزره الخليفة المعتضد العباسي ، ويعرض له باختلال حاله . انظر البيتين في الإيضاح ٣٢٨ ، العمدة ٤١/٢ ، الطراز ١٥٧/٣، ١٥٨ ، تحرير التحبير ٤٤٩ ، شرح عقود الجمان ١٢٨/٢ ، نهاية الأرب ١٦٤/٣ ، البديع لابن منقذ ٦٠ ، ويـــروى "أبى دهرها إسعافنا"

(٢) البيت من الطويل لابن نباتة ، انظر تحرير التحبير ٤٥٠/١ ، الطراز ١٥٨/٣ ، الإيضاح ٣٢٧ ، الإشــارات ٢٨٥ ، شرح عقود الجمان ١٢٨/٢ ، جهله : مرة من الجهل بمعنى الخفة والطيش ، في وصاله: لأجــل وصالــه . أو في نيــل وصاله، يعني بسبب نيله وخل : صديق ، والاستفهام إنكاري .

من يصلح للإيداع ، ثم أدمج شكوى الزمان في الفخر بما أبداه من تغير الإخوان حتى لم يبق منهم من يستصلح لمثل هذا الشأن .

الضرب الثاني : أن يقصد المتكلم إلى نوع من البديع فيجيء في ضمنه بنوع آخر، كقول بعض شعراء الأندلس[1] :

أَأَرْضَى أن تُصاحِبنى بَغيضًا ... مُجامَلَةً وتحمِلَني ثَقيلاَ
وحقِّكَ لا رضيتُ بذا لأنِّي ... جعلتُ وحَقِّكَ القَسمَ الجَلِيلا

فأدمج المبالغة في القسم حيث لم يقل وحياتك ونحوه ، ثم علق الغزل بالعتاب ، وقال تعالى : ﴿**لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ**﴾[القصص : ٧٠] . فأدمج الطباق في المبالغة .

١٢-التعليق : وهو ضربان :

الأول : أن تأتي في شيء من الفنون بمعنى تام فيه توطئه لما تذكره بعده من معنى آخر . إما من ذلك الفن كقول أبي نواس[2] :

هُمْ في بيتِهم نَسَبُ ... وفي وسْطِ المَلا نسبُ
لقد زنُّوا عجوزَهُمُ ... ولَوْ زنَّيْتُها غَضِبُوا

فعلق هجوهم بالسخف والحماقة بهجوهم بفجور أمهم ودناءة أبيهم ، حيث لم يرضوه وادعوا غيره .

وإما من فن آخر : كقول المتنبي في صفة الليل[3] :

أُقلِّبُ فيه أجفاني كأَنِّي ... أعُدُّ بها على الدَّهرِ الذُّنوبَا

فعلق فن عتاب الزمان بفن الغزل اللازم من الوصف .

الضرب الثاني : أن يتضمن التعليق بالشرط وراء التلازم الدلالة على زيادة المبالغة كقول أبي تمام[4] :

---

(١) البيتان ٢٦٧ ، ٢٦٨ في الطراز ١٥٩/٣ شرح عقود الجمان ١٢٩/٢ .

(٢) البيتان في الطراز ١٦٠/٣ .

(٣) انظر ديوان المتنبي ١٤٠/١ ، الإشارات ٢٨٥ .

(٤) البيت من الطويل لأبي تمام في ديوانه ١٠٦ ، العمدة ١٢٣/١ ، الطراز ١٦٠/٣ ، الإيضاح ٢٨٩ "بتحقيقنا" تحرير التحبير ٤٤٧ .

فإنْ أنا لم يَحْمِدْكَ عنى صَاغِرًا عَدُوُّكَ فاعلَمْ أنّني غيرُ حامِدِ

فإنه كنى بتعليق عدم حمده لمدوحه على عدم حمد عدوه صاغرا عن المبالغة ، وعلو همته واقتدار ممدوحه على كثرة العطاء .

١٣-حسن الابتداء : أن يكون مطلع القصيدة أو غيرها مع عذوبة لفظه وسهولة سبكه صحيح المعاني متناسب القسمة . وأحسنه ما تضمن معنى ما سيق الكلام لأجله ، ويسمى براعة الاستهلال .

ومن أحسن ابتداءات المتقدمين قول امرئ القيس[1] :

خليلَيَّ مُرَّا بي على أمِّ جُندُبِ نقْضِ لُبانَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

وقول النابغة[2] :

كِلِينى لِهَمٍّ يا أُمَيْمةَ ناصبِ وليلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الكواكِبِ

وقدمه ابن المعتز وغيره لسلامته مما في ابتداء امرئ القيس لمعلقته من عدم التناسب، فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمترل في نصف بيت عذب اللفظ سهل السبك ، ثم لم يتفق له مثل ذلك في النصف الثاني ، بل أتى فيه بمعان قليلة في ألفاظ غريبة فباين الأول بخلاف بيت النابغة فإنه لا تفاوت بين قسميه.

ومن أحسن ابتداءات المولدين قول أبي نواس[3] :

خَلِيلَيَّ هذا مَوْقِفٌ مِنْ مُتَيَّمٍ فَعوجَا قليلاً وانْظراه يُسلِّم

وقول إسحاق الموصلى[4] :

هلْ إلى أَنْ تنامَ عينى سبيلُ إنَّ عهدِى بالنومِ عهدٌ طويلُ

---

(1) البيت في ديوانه ٤٧ .

(2) البيت من الطويل ، انظر ديوان النابغة ٤٠ ، الإيضاح ٣٦٩ ، العمدة ٢٤١/٢ ، البديع ٧٥ ، شواهد الكشاف ٣٣١ ، نهاية الأرب ١٣٤/٧ ، الشعر والشعراء ٦٦ ، تحرير التحبير ، خزانة الأدب ٣ . كليني : دعيني واتركيني ، ناصب : متعب ، أقاسيه : أتحمله وأعاني قسوته .

(3) انظر الديوان ٥٧٨ .

(4) انظر خزانة الأدب ٤ ، نهاية الأرب ١٣٤/٣ ، الأغاني ١٩٧٦/٢ .

وقال البحتري[1] :

بوُدّى لو يهوى العذولُ ويعشَقُ
ليَعلَمَ أسبابَ الهوى كيفَ تَعْلَقُ

وقال المعرى[2] :

غيرُ مُجدٍ في مِلَّتى واعتِقادِى نوحُ باكٍ ولا تَرنُّمُ شادِى

وقال المتنبي[3] :

اتَظُنَّنى مِنْ زلَّةٍ أَتَعَتَّبُ قلبى عليكَ أرقُّ ممّاً تَحْسَبُ

وكذا قوله[4] :

أَتُراها لكثْرَةِ العشَّاقِ تحسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً في المآقِ

لولا ما كدر صفوه وقبح حسنه بقوله فيما يليه[5] :

كيفَ تَرْثِى التى تَرى كلَّ جَفْنٍ رآها غيرَ جَفْنِها غيرَ راقِى

فبينا الذوق يستلذ حلاوة البيت الأول إذ شرقه مرارة البيت الثاني . وإذا نظرت إلى فواتح السور جملها ومفرداها رأيت من البلاغة والتفنن وأنواع الإشارة ما يقصر عن كنه وصفه العبارة .

١٤-<u>حسن التخلص</u> : أن يمزج الشاعر آخر ما يقدمه من البسط أمام المدح أو غيره من نسيب ، أو أدب أو فخر أو نحو ذلك من الفنون بأول المدح ، ويلائم بينهما في بيت أو بيتين أو ثلاثة ، وهو قليل في أشعار المتقدمين ، ومنه قول زهير[6] :

---

[1] انظر ديوان البحتري ١٥٣٠/٣ .

[2] انظر شرح سقط الزند ٩٧١/٣ .

[3] البيت للمتني وليس في ديوانه ، الزلة : الذنب ، وقوله "أتعتب" بمعنى ألوم ، وقوله "تحسب" بمعنى تظن ينكر أن يلومه على ذنبه إليه بهجره ونحوه لرقة قلبه عليه ، ويروى : "قلبي أرقُّ عليك مما تحسبُ" .

[4] البيت من الخفيف ، انظر ديوان المتنبي ٣٦٢/٣ ، الإيضاح ٣٧٠ "بتحقيقنا" ، أتراها : أتظنها ، تحسب : تظن ، خلقة : فطرة وطبيعة ، المآقي : مجاري العيون ، واحدة مؤق . بهمز العين وبتسهيلها .

[5] البيت في ديوان المتنبي ٣٦٢/٣ .

[6] البيت في ديوان زهير ١٥٢ ، الطراز ١٨٠/٣ ، تحرير التحبير ٤٣٤ ، العمدة ٤٠/٢ ، الصناعتين ٤٧٦ .

إنَّ البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولـــ ـــكنَّ الجوادَ على عِلاّتِهِ هَرِمُ

وقد لهج به المتأخرون لما فيه من حسن ، والدلالة على براعة الشاعر وكمال اقتداره فمما جاء منه في ثلاثة أبيات قول أبي نواس[1] :

وإذا جلسْتَ إلى المُدامِ وشُربِها فاجْعَل حديثَكَ كلَّه فى الكاسِ

وإذا نَزَعْتَ عن الغِوايةِ فليَكُنْ للهِ ذاكَ الـنَّزعُ لا للنـاسِ

وإذا أردتَ مديحَ قومٍ لم تَمُـنْ في مدحِهِمْ فامدَحْ بنى العبّاسِ

وفي بيتين قول أبي تمام[2] :

يقولُ في قَوْمَس قَوْمِى وقدْ أخذَتْ

منَّا السُّرى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ

أمَطْلِعِ الشمسِ تَبغْىِ أنْ تَؤُمَّ بنا

فقُلْتُ كلاَّ ولكِنْ مَطْلِعَ الجـودِ

وقول المتنبي[3] :

مرتْ بنا بين تِرْبَيْها فقلتُ لها

من أين جانس هذا الشادن العربا

---

[1] انظر ديوان أبي نواس ١٠٥ ، وانظر الطراز ١٨١/٣ ، خزانة الأدب ٤٩ ، الشعر والشعراء ٨١٤ ، البيت الثاني والثالث فقط .

[2] البيتان من البسيط لأبي تمام في ديوانه ١٢٠ ، انظر الطراز ١٨٠/٣ ، العمدة ٦٧/٢ ، المثل السائر ١٢٢/٣ ، زهر الآداب ٣٧٧ ، الإيضاح ٣٧٢ ، قومس : موضع جهة خراسان ، أخذت منا : نالت منا وأثرت فينا ، السرى : السير ليلاً ، المهرية : الإبل المنسوبة إلى مهرة ، القود : جمع قوادة وهى الذلول المنقادة ، أو طويلة الظهر والعنق ، تؤم : تقصد، كلا : هى هنا لرد الكلام السابق .

[3] البيتان من البسيط للمتنبي ، انظر ديوانه ١١٢/١ ، الطراز ١٨١/٣ ، يتيمة الدهر ١٧٦/١ ، الإيضاح ٣٧٢ "بتحقيقنا" .

تربيها : قرينتيها أو لدتيها اللتين ولدتا معها – الشادن : الظبي الصغير – ليث الشرى : أسد من تلك المأسدة المعروفة بجانب الفرات – عجل : قبيلة .

فاستَضْحَكَتْ ثم قالت كالمغيثِ يُرى

ليثَ الشَّرى وهْوَ مِنْ عِجْلٍ إذا انْتَسَبَا

وأحسن المخالص ما وقع في بيت واحد ، ومن جيده قول مسلم بن الوليد[1] :

أجدُّك ما تدرينَ أنْ ربَّ ليلةٍ كأنَّ دُجاها من قُرونكِ يُنْشَرُ

سَرَيْتُ بها حتى تجلَّتْ بغُـرَّةٍ كغُرَّةِ يحيى حين يُذْكَرُ جَعْفَرُ

لما فيه من إدماج المبالغة في مدح يحيى بالبر بأبيه ، وجمعه بين خير الدنيا والآخرة، ومن تعلق المدح بالغزل ، فأحسن ما شاء .

١٥–حسن الخاتمة : يجب على البليغ أن يختم كلامه بأحسن خاتمة فإنها آخر ما يبقى في الأسماع وربما حفظت من دون سائر الكلام ، فليجتهد في نضجها وحلاوتها وفي قوتها وجزالتها ، مع تضمينها لمعنى تام يؤذن السامع بانتهاء كلامه . كما قال المتنبي[2] :

قد شرَّفَ اللهُ أرضًا أنتَ ساكِنُها وشرَّفَ الناسَ إذ سوَّاكَ إنسانا

فذيل بما يقتضى تقرير كل ما مدح به ممدوحه ، فعلم أنه قد انتهى كلامه و لم يبق للنفس تشوف إلى ما وراءه ، وقد قلت عناية المتقدمين بهذا النوع .

وممن أجاد فيه من المتأخرين أبو نواس في خاتمة مدح المأمون بقوله[3] :

---

[1] البيتان من الطويل في ديوان صريع الغواني ١٣٥ ، الإيضاح ٣٧٢ ، الطراز ١٨٠/٣ ، نهاية الأرب ١٣٥/٧ ، الصناعتين ٤١٥ .

أجدك : يصح أن يقرأ بفتح الجيم وبكسرها ، وهنا استفهام وقسم ، والأصل (بجدك أما تدرين أن رب ليلة – إلخ) فحذف حرف الجر فانتصب المقسم به على نزع الخافض ، والجد بالفتح البخت والحظ ، وبالكسر الاجتهاد في الأمر ، وضد الهزل ، والشيء المحقق – دجاها : ظلمتها – قرونك : ذوائبك – تجلت : انكشفت وانجلت – بغرة : بشمس .

[2] انظر ديوان المتنبي ٢٣١/٤ ، الطراز ١٨٥/٣ ، يتيمة الدهر ٢٢١/١ .

[3] البيت من الكامل انظر ديوان أبي نواس ٥٧٦ من قصيدة له في مدح المأمون ، [ورواية البيت : فسلمت للأمر الذي ترجى له ....] ، الطراز ١٨٥/٣ ، تحرير التحبير ١٨٦ ، الإيضاح ٣٧٣ .

فبقيت للعلم : دعاء ، تهدى له : أصل معناه تقدم له الهدايا ، والمقصد تكرمه بإكرام آله ، تقاعست : قعدت وتأخرت عن بلوغ يومك ، والمراد باليوم : يوم وفاته ، والشاهد في حسن الانتهاء في البيت باشتماله على ذلك الدعاء المؤذن بالانتهاء .

فبقيتَ للعلمِ الذي تُهدَى لـــهُ ‏ ‏ وتقاعَسَتْ عن يومِكَ الأيـــامُ

وفي خاتمة مدح الخصيب[1] :

وإنيِ جديرٌ أَنْ بلَّغْتُكَ بالمُنـــى ‏ ‏ وأنت بما أمَلْتُ منكَ جديـــرُ

فإنْ تُولِنِى منكَ الجميلَ فأَهْلُه ‏ ‏ وإلا فإنيِّ عـــاذِرٌ وشكـــورُ

وأبو تمام في خاتمة قصيدة فتح عمورية[2] :

إن كانَ بين ليالى[3] الدَّهرِ من رَحِـــمٍ ‏ ‏ موصولَةٍ أوْ ذمامٍ غيرِ مُقْتَضَبِ

فبينَ أيامِكَ اللاتـــِي نُصِـــرْتَ بِهـــا ‏ ‏ وبينَ أيامِ بدْرٍ أقربَ النَّســـَبِ

أبقتْ بنى الأصفرِ المْراضِ كاسْمِـــهِمِ ‏ ‏ صُفْرَ الوجوهِ وجَلَّتْ أوجُهَ العرَبِ

وقوله في خاتمة اعتذاره إلى موسى بن إبراهيم الرافقى[4] :

فإنْ يكُ ذنبٌ عنَّ أو تَكُ هفــوةٌ ‏ ‏ على خطأٍ منيِّ فعذْرى على عَمْدِ

وقوله في خاتمة خطابه لمالك بن طوق[5] :

لا توقِظِ الشَّرَّ مِنْ نومٍ فقد غَنِيَـــتْ ‏ ‏ ديارُكُم وهى تُدعَى زَهَرةَ النَّعمِ

هذا ابن خالِكُمُ يُهدِى نصيحَتَـــهُ ‏ ‏ مَنْ يُتَّهَمْ فهْوَ فيكم غيرُ مُتَّهَـــمِ

وقول أبي الطيب في خاتمة قصيدة من السيفيات[6] :

---

(1) البيتان من الطويل ، انظر ديوان أبي نواس ٣٣٠ في مدح الخصيب بن عبد الحميـــد المـــرادي ، الطـــراز ١٨٦/٣ ، الإيضاح ٣٧٣ .

جدير : حقيق وأهل له – إن تولني : إن تمنحني ، وقوله "فأهله" على تقدير فأنت أهله ، وحسن الختام في قولـــــه "وإلا فإني عاذر وشكور" ؛ لأن قبول العذر يقتضى انقطاع الكلام ، والمراد شكور لعطاياه الماضية أو لإصغائه إلى مديحه .

(2) الأبيات من البسيط ، انظر ديوان أبي تمام ١٧ ، ١٨ ، الطراز ١٨٧/٣ ، الإيضاح ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

رحم : قرابة وصله – ذمام : عهد – مقتضب : مقطوع – بنو الأصفر : الروم – الممراض : الشديد المرض والعلـــة – جلت أوجه العرب : جلتها وأظهرها ، والمراد أن أيام نصره هذه أضرت الروم وأحزنتهم وشرفت العـــرب وســـرتهم ، وكان لكل في وجه صاحبه علامة ، وحسن الختام في هذا البيت ؛ لأنه يفيد نهاية الفتح فيؤذن بانتهاء الكلام .

(3) وفي رواية : "صروف الدهر" بدل "ليالي الدهر" ، وصروف الدهر : حوادثه .

(4) انظر ديوان أبي تمام ١١٤ ، المثل السائر ٢١٢/٣ .

(5) انظر ديوان أبي تمام ٢٤٠ .

(6) البيت من الوافر ، انظر ديوان المتنبي ٣٠٣/٢ ، الإيضاح ٣٧٤ "بتحقيقنا" الشطران دعاء للممـــدوح – حطـــت : أنزلت – الهيجاء : الحرب ، ومراده لا أعجزتك الحرب ولا خذلتك ، أي لا عجزت فيها ولا نيل منك .

فلا حَطَّـتْ لك الهيجـاء سَرْجـًا ولا ذاقَتْ لك الدنيـا فِراقَـا

وفي أخرى[1] :

لا زلتَ تَضْربُ مَنْ عاداكَ عن عَرَضٍ بعاجلِ النَّصْرِ في مُستَأْخَرِ الأَجَلِ

وفي أخرى وقد ذكر الخيل[2] :

فلا هَجَمْتُ بها إلا عَلى ظُفُـرٍ ولا وطِئْتُ بهـا إلا عَلى أَمَـلِ

وجميع خواتم السور في غاية من الحسن وهاية الكمال ، لأها بين أدعية ووصايا وفرائض ، ومواعظ تحميد ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك من الخواتم التى لا يبقى للنفوس بعدها تطلع ولا تشوق لما يقال كتفصيل جملة المطلوب في الفاتحة ، والدعاء الذي ختمت به البقرة ، والوصايا في خاتمة آل عمران ، والفرائض في خاتمة النساء ، والتبجيل والتعظيم الذي في خاتمة المائدة ، والوعد والوعيد الذي في خاتمة الأنعام .

وليكن هذا آخر الكتاب . واعلم أنى قد مهدت لك فيه قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها ، وهجت لك مناهج متى سلكتها اعترف لك بكمال الحذق والبلاغة أبناؤها ، ونصبت لك أعلاما متى انتحيتها أعثرتك على ضوال منشودة ، وحشدت لك من الأمثلة ما ليست عند أحد بمحشودة . فمن لم يستضئ بهذا المصباح ، فليس ينفعه نور الصباح .

والحمد لله مبدي صنوف النعماء ، وصلواته على حبيبه محمد خاتم الأنبياء ، وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

---

(1) انظر ديوان المتنبي ٨٨٠/٣ .

(2) انظر ديوان المتنبي ٤٢/٣ .

الفهارس

أولا: فهرس القرآن الكريم

وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً (٤٨)	١٤٦
فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم (٥٤)	١٤٣
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى (٧٣)	١٤٣
فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون (٧٩)	١٢٢
لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وقولوا للناس حسنًا (٨٣)	١٣٩
ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون (٨٧)	١٢٢
وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً (١٢٥)	١٣٩
وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ (١٣٠)	١٥١
قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا (١٣٦)	١٤٧
صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (١٣٨)	٢١٣
قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا (١٤٤)	٢٤٣
ولئن اتبعت أهواءهم (١٤٥)	١٣١
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ (١٥٣)	١٣٩
وبشر الصابرين (١٥٥)	١٣٩
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (١٦٤)	١٤٧
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ(١٧٣)	١٥٦
وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)	١١٢، ١٤٤
حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود (١٨٧)	١٦٩
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ (١٨٩)	١٥٢، ١٧٩
فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين (١٩٤)	٢٠٥
فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)	١٣١
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ (٢١٥)	١٥٢
ولا تقربوهن حتى يطهرن (٢٢٢)	١٨٥
ولكن لا تواعدوهن سرًا (٢٣٥)	١٨٥
ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه (٢٦٧)	١٤١
إنما البيع مثل الربا (٢٧٥)	١٦٣

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (٢٧٩)	١١٢
سورة آل عمران	
إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)	٢١٥
يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم (٤٤)	١٤٣
ثم قال له كن فيكون (٥٩)	١٣٢
سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً (١٥١)	١٤٣
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ (١٤٤)	١٥٦
فإذا عزمت فتوكل على الله (١٥٩)	١١٥
فنبذوه وراء ظهورهم (١٨٧)	١٨٢
سورة النساء	
وأرسلناك للناس رسولا (٧٩)	١٢٨
وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (٨٦)	١٢٥
بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨)	٢٤٢
ما لهم به من علم إلا اتباع الظن (١٥٧)	١٧٣
أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا (١٦٦)	١٩٦
سورة المائدة	
كانا يأكلان الطعام (٧٥)	١٨٥
تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك (١١٦)	٢١٣
أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله (١١٦)	١٥٦
ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله (١١٧)	١٥٦
سورة الأنعام	
وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)	٢٠٩
وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ (٣٨)	١١٠
وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ (٦٨)	١٤٥،١٤٤
وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ (٨٠)	٢٢٠
وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ (١٠٠)	١٢٦
وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ (١٢٤)	١٩٤

إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)	١٧٣
لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)	٢٥٥
فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)	١٨٢
سورة النحل	
وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)	١٢٦
وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ (٥١)	١١٠
إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى (٩٠)	١٤٥،١٤٤
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)	١٧٢
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف (١١٢)	١٧٩،١٧٧
إن كنتم إياه تعبدون (١١٤)	١٢٨
سورة الإسراء	
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ (٢٤)	١٧٧
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٥)	١٩٩
وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥)	١١٥
سورة الكهف	
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ (١٨)	٢١٠
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ (٤٦)	٢٤٤
الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(١٠٤)	٢٠٨
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧)	٢٥٠
سورة مريم	
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً (٤)	١٤٥،١٢٤، ١٨١
يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن (٤٥)	١١٢
أي الفريقين خير مقامًا (٧٣)	١٧٢
سورة طه	

قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)	١٥٦
قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)	٢٥٠
وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١)	١٣٥،١٢٩
وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)	١٣١،١١٧
أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ (٢٣)	١٣١
إني إذا لفي ضلال مبين (٢٤)	١٣١
إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)	١٣١
قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)	٢٥٠
بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)	٢٥٠
وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)	١٨١
قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)	١٨٢
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)	١٣٩
وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)	١٣٩
سورة الصافات	
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣)	١٥١
لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)	١٢٨
سورة ص	
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣)	١٣٠
سورة الزمر	
وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج (٦)	١٧٢
وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)	١٣١

سورة غافر	
الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (٧)	١٤٨
سورة فصلت	
ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ (٢٨)	٢٣٨
سورة الشورى	
أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الوَلِيُّ (٩)	١٤٣
فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً (١١)	١٣٠،١٨٣
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً (٥٠)	٢٢٤
سورة الزخرف	
وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)	١٠٨
سورة الدخان	
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ (٣٠)	١١٠
مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المُسْرِفِينَ (٣١)	١١٠
ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ (٤٩)	٢٤٢
سورة محمد	
حتى تضع الحرب أوزارها (٤)	١٨٤
سورة الفتح	
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (١٠)	١٨٣
ليدخل الله في رحمته من يشاء (٢٥)	١٤٣
سورة الحجرات	
لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم (٧)	١٣١
سورة الذاريات	
فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)	٢٥٤
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ (٢٤)	١٣٤

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)	١٣٤
فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦)	١٣٤
فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)	١٣٤
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)	١٣٤
وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)	١٨١
سورة الطور	
وَالطُّورِ (١)	٢٠٢
وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢)	٢٠٢
سورة القمر	
فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)	١٥٠
سورة الرحمن	
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)	٢٣٦
سورة الواقعة	
فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)	٢٢٨
وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)	٢٢٨
إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)	٢٢٨
فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)	٢١٠
سورة الصف	
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم (١٠)	١٣٩
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)	١٣٩
سورة الجمعة	
مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ (٥)	١٦٤
سورة المنافقون	
إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ (١)	١٤٨

ثانيا: فهرس الحديث الشريف

ثالثا: فهرس الأمثال العربية

رقم الصفحة	المثل
١٢٧	١-أتعلمني بضب أنا حرشته!
١٦٥	٢-الصيف ضيعت اللبن.
١٤٤	٣-القتل أنفى للقتل.

رابعا: فهرس الشعر

القافية والبيت		رقم الصفحة
قافية الهمزة:		
إذا جرى في كفه الرشاء	جرى القليب ليس فيه ماء	١٤١
....	أقوم آل حصن أم نساء	١٥١
إنما مصعب شهاب من الله	تجلت عن وجهه الظلماء	١٥٧
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها	لو مسها حجر مستها اسراء	١٩٤
كأن سبيئة من بيت رأس	يكون مزاجها عسل وماء	١٢٣
ومهمه مغبرة أرجاؤه	كأن لون أرضه سماؤه	١٢٤
فأعرض هيثم لما رآني	كأني قد هجوت الأدعياء	١٨٩
فقد آليت لا أهجو دعيا	ولو بلغت مروءته السماء	١٨٩
لا تسقني ماء الملام فإنني	صب قد استعذبت ماء بكائي	١٨٣
من يكن رام حاجة بعدت عنـ	ـه وأعين عليه كل العياء	٢٠٥
فلها أحمد المرجى بن يحيى بـ	ـن معاذ بن مسلم بن رجاء	٢٠٥
ما نوال الغمام وقت ربيع	كنوال الأمير يوم سخاء	٢٤٤
فنوال الأمير بدرة عين	ونوال الغمام قطرة ماء	٢٤٤
ويصعد حتى يظن الجهول	بأن له حاجة في السماء	١٨٠
قافية الباء:		
لو أن قوما لارتفاع قبيلة	دخلوا السماء دخلتها لا أحجب	١٤٠
يا إخوتي مذ بانت النجب	وجب الفؤاد وكان لا يجب	٢٠٦
فارقتكم وبقيت بعدكم	ما هكذا كان الذي يجب	٢٠٦
ولست بمستبق أخا لا تلمه	على شعث أي الرجال المهذب	٢٢٧/١٦٦
أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب	فكيف إذا لم يكن عنه مذهب	١٠٥
هو المهرب المنجى لمن أحدقت به	مكاره دهر ليس عنهن مهرب	١٠٥
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	وليس وراء الله للمرء مهرب	٢٢٠
لئن كنت قد بلغت عني خيانة	لمبلغك الواشي أغش وأكذب	٢٢٠
ولكني كنت امرءا لي جانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب	٢٢٠

قافية التاء:

قافية الجيم:

قافية الحاء:

قافية الدال:

قافية الراء:

فما جــازه جــود ولا حــل دونــه	ولكن يصير الجود حيث يصـير	٢١٥/١٨٩
وزنـــد نـــدى فواضلـــه ورى	وزنـد ربى فضائلـــه نضـــير	١٩٨
خرجوا بـــه ولكـل بـاك خلفـه	صعقات موسى يوم دك الطـــور	٢٥٠
فكدت و لم أخلق من الطـير إن بـدا	سنا بارق نحــو الحجــاز أطـير	٢٢٨
فهبها كشيء لم يكـــن أو كنـازح	به الدار أومـــن غيبتــه المقـابر	٢٢٤
قـــالت ألا لا تلجـــن دارنـــا	إن أبانـــا رجـــل غـــائر	٢٥٦
أمـــا رأيـت البـاب مــن دوننــا	قلــت فــإني واثــب ظـــافر	٢٥٦
قــالت فـإن القصـر مــن دوننــا	قلــت فــإني فوقـــه طــائر	٢٥٦
قــالت فـإن الليـث عــاد بـــه	قلــت فسـيفي مرهــف بــاتر	٢٥٦
قالت أليـــس البحـر مــن دوننــا	قلــت فــإنني ســابح ســاهر	٢٥٦
قــالت أليـس الله مـــن فوقنـــا	قلــت بلــى وهــو لنـا غــافر	٢٥٦
قــالت فإمــا كنـــت أعييتنـــا	فــأت إذا مــا هجــع السـامر	٢٥٦
واســقط علينــا كسـقوط النـدى	ليلـــة لانـــاه ولا آمـــــر	٢٥٦
فيا عجبـــا كيــف اتفقنـــا فنـاصح	وفي ومطوى على الغـــل غــادر	٢١١
من القاصرات الطرف لو دب محـــول	من النمل فوق الإتب منها لأثــرا	٢٣٢
لعمري لقـــد كـــان الثريـــا مكانـــه	ثراء فأضحى اليوم مثواه في الـثرى	١٩٧
علـــى لا حـــب لا يـــهتدى بمنـاره	إذا ساقه العود النباطى جرجـــرا	١٤٣
أبت الــــروادف والثـدى لقمصـــها	مس البطون وأن تمـــس ظـــهورا	١٨٦
وإذا الرياح مــــع العشـــى تنـــاوحت	نبهن حاســـدة وهجـــن غيـــورا	١٨٦
لا أرى الموت يسبق المـــوت شـــيء	نغص الموت ذا الغـــنى والفقـــيرا	٢٣٥
تسربل وشيا مـــن خـــزوز تطـــرزت	مطارفها طرزا من البرق كالتـــبر	٢٠٣
فوشى بلا رقـــم ونقـــش بـــلا يـــد	ودمع بلا عين وضحك بلا ثغـــر	٢٠٣
ما سرت إلا وطيف منك يصحبـــني	سرى أمامي وتأويبا على أثـــري	١٥٤
وإذا تأمل شـــخص ضيـــف مقبـــل	متســـربل ســـربال ليـــل أغـــبر	١٠٧
أو ما إلى الكومـــاء: هـــذا طـــارق	نحرتـــني الأعـــداء إن لم تنحـــر	١٠٧
مضوا لا يريـــدون الـــرواح وغـــالهم	من الدهر أسباب جرين على قـــدر	١٤١
فقـــال فريـــق القـــوم لا، وفريقـــهم	نعم، وفريق أيمن الله مـــا نـــدري	٢٢٤
وجدنا أبانـــا كـــان حـــل ببلـــدة	سوى بين قيس قيس غيلان الفَــزْر	٢٥٣

فلما نــأت عنــا العشـيرة كلـها	أنخنا فحالفنا السيوف على الدهـر	٢٥٣
فما أســلمتنا عنـد يـوم كريهـة	ولا نحن أغضينا الجفون على وتـر	٢٥٣
بالله يا ظبيــات القــاع قلـن لنـا	ليلاي منكن أم ليلى من البشـــر	١٥١
لو اختصرتم من الإحســان زرتكـم	والعذب يهجر للإفراط في الخصـر	١٦٥
تردى ثياب الموت حمـرا فمـا أتـى	لها الليل إلا وهي من سندس خضر	٢١٣
لا تعجبـوا مـن بلـى غلائلـه	قـد زر أزراره علـى القمـــر	١٧٤
لـه همـم لا منتـهى لكبارهــا	وهمته الصغرى أجل مـن الدهـر	١٢٢
وكــأن حمـرة لونهـا مـن خـده	وكأن طيب نسيمها مـن نشـره	٢٤٠
حتى إذا صب المـزاج تشعشـعت	عن ثغرها فحسـبته مـن ثغـره	٢٤٠
فقــال قائلـهم أرسـوا نزاولهــا	فكل حتف امرئ يجري بمقــدار	١٣٦
يا خــاطب الدنيـا الدنيـة إنهـا	شرك الردى وقــرارة الأكـدار	٢٠١
ثانية في كبــد السـماء ولم يكـن	كاثنين ثــان إذ همـا في الغـار	١٩٢
وفي قـرب القلـوب لكـل صـب	شفاء ليـس في قـرب الديـار	١٤٥
اشـربا مـا شـربتما فـهذيل	من قتيـل أو هـارب أو أسـير	٢٢٣
بكـرا صـاحبي قبـل الهجـير	إن ذاك النجــاح في التبكـــير	١٠٢
فلو كنــت ضبيـا عرفـت قرابـتي	ولكن زنجـي عظيـم المشـافر	١٧٢

قافية السين:

ليس مـا ليـس بـه بـأس بـاس	لا يضر المرء مـا قـال النـاس	١٩٥
وبلـدة ليـس بهـا أنيـس	إلا اليعافـير وإلا العيـــس	١٧٣
أس أرمــلا إذا عــــرا	وارع إذا المـــرء أســـا	٢١٧
حملناهم طرا على الدهـم بعـد مـا	خلعنا عليهم بالطعــان الملابسـا	٢٥٣
لو كان صادف رأس عــازر سـيفه	في يوم معركــة لأعيـا عيسـى	٢٣٤
أو كــان لج البحـر مثـل يمينـه	ما انشق حتى جاز فيـه موسـى	٢٣٤
ولــولا كــثرة البـاكين حــولي	على إخوانهــم لقتلـت نفسـي	٢٢٥
وما يبكـون مثـل أخـي ولكـن	أعزى النفــس عنـه بالتأسـي	٢٢٥
قــامت تظللــني مـن الشــمس	نفس أعــز علـى مـن نفسـي	١٧٤
قــامت تظللــني ومـن عجــب	شمـس تظللـني مـن الشـمس	١٧٤

وإن مـــن أدبتـــه في الصبـــا	كالعود يسقي المـــاء في غرســـه	١٦٤
حـــتى تـــراه مورقـــا نـــاضرا	من بعد ما أبصرت مـــن يبســـه	١٦٤
وإذا جلســـت إلى المـــدام وشـــربها	فاجعل حديثك كله في الكـــأس	٢٦١
وإذا نزعت عـــن الغوايـــة فليكـــن	لله ذاك النـــزع لا للنـــاس	٢٦١
وإذا أردت مديـــح قـــوم لم تمـــن	في مدحهم فامدح بـــني العبـــاس	٢٦١
من يفعل الخـــير لا يعـــدم جوازيـــه	لا يذهب العرف بين الله والنـــاس	٢٣٠
بقيت وفرى وانحرفت علـــى العلـــى	ولقيت أضيـــافي بوجـــه عبـــوس	٢٥٤
إن لم أشن على ابـــن هنـــد غـــارة	لم تخل يوما من نهـــاب نفـــوس	٢٥٤

قافية الصاد:

قالوا اقترح شيئا نجـــد لـــك طبخـــه	قلت اطبخوا لي جبـــة وقيمصـــا	٢١٣

قافية الضاد:

وقد تعوضـــت عـــن كـــل بمشـــبهه	فما وجدت لأيام الصبـــا عوضـــا	١٤٦
لـــولا التطـــير بـــالخلاف وأهـــم	قالوا مريـــض لا يعـــود مريضـــا	٢٥٣
لقضيـــت نحبـــا في فنـــائك خدمـــة	لأكون مندوبا قضـــى مفروضـــا	٢٥٣

قافية الطاء:

....	جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قـــط	١١٠
وحرف كنون تحـــت راء ولم يكـــن	بدال يؤم الرســـم غـــيره النقـــط	٢٥٤

قافية الظاء:

تقرى الرياح رياض الحـــزن مزهـــرة	إذا سرى النوم في الأجفان أيقاظـــا	١٧٩

قافية العين:

عـــج تنـــم قبـــك دعـــد آمنـــا	إنمـــا دعـــد كـــبرق منتجـــع	٢١٧
ته أحتمل واحتكم أصبر وعـــز أهـــن	ودل أخضع وقل أسمع ومر أطـــع	٢٠٤
قـــال لي يومـــا ســـليما	ن وبعـــض القـــول أشـــنع	٢٥٦
قـــال صفـــني وعليـــا	أينـــا أتقـــى وأورع	٢٥٦
قلـــت إني إن أقـــل مـــا	فيكمـــا بـــالحق تجـــزع	٢٥٦
قـــال كـــلا قلـــت مـــهلا	قـــال قـــل لي قلـــت فـــاسمع	٢٥٦

قافية الفاء:

قافية القاف:

قافية الكاف:

قافية اللام:

قافية الميم:

قافية النون:

قافية الهاء:

قافية الياء:

فهرس موضوعات المصباح

فهرس الفهارس